

الدولة الفاطمية

قيامها ببلاد المغرب وانتقالها الى مصر
إلى نهاية القرن الرابع الهجرى
مع عناية خاصة بالجيش

الديتور
عبد الله محمد محمد الدين

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

دار الثقافة والنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المرنى - النجاة
القاهرة ت / ٩٠٤٦٩٦

إهداء

الى أمي

بين الأبداعات في النعيم المقيم
قاولاًها ما خططت حرفاً ولا كتبت سطرًا
عبد الله جمال الدين

الجيش عصب الأمم ، وساعدها المتين ، وأداتها القوية ،
بها تحقق الدول غايتها ، وتصل الى أهدافها ومقاصدها ، وتؤكد
وجودها ، وتحمل كيانها . وبدون جيش قوى تعتبر الدولة بنيانا
متداعيا ، وكيانا هزيلا متهالكا ، وبمقدار ما تملك من قوى عسكرية ،
وما توفر لنفسها من عدد وعناد حربى ، بمقدار ما تفرض هيبتها
على الآخرين ، وتنتزع احترامهم ، وتعال تقديرهم واكبارهم .

ولقد شهدت العصور للوسطى دولة من أقوى الدول وأزهارها ،
وعاش الناس فى ظلها أياما موفورة الرخاء ، حافلة — فى جملتها —
بالخصب ، تلك هى الدولة الفاطمية .

وقد دفع ذلك كثيرا من الدارسين الى التوفر على دراسة تلك
الدولة ، وأولوها قسما غير قليل من اهتماماتهم وعنايتهم ، فتناولوها
بالبحث من مناح متعددة : علمية ودينية ، واقتصادية واجتماعية ،
وسياسية وفنية .

غير أن جانبا من جوانب تلك الدولة ، ترك رغم أهميته بدون
دراسة ، ولم ينل ما يستحقه من عناية الباحثين ، ولا ترى — خاصة
به — الا صفحة هنا ، وصفحات هناك . لا تروى الظلم ولا تشفى
حاجة النفس .

ولقد كان ذلك لافتا لنظر الأستاذ الدكتور ضياء الدين الرئيس ،
رئيس قسم التاريخ والحضارة بكلية دار العلوم سابقا — رحمة الله
عليه — فقد شعر بحاجة الدولة الفاطمية الى دراسة تغطى هذا
النقص فيها ، وتتملا للفراغ بين جوانبها ، وكان أن نصحنى ببحث
ذلك الموضوع .

ولابد لموضوع يدرر حول الدولة الفاطمية من التعريف بها ،
وشرح نشأتها وبيان الأسس التى قامت عليها ، والجهود التى بذلتها

الدعوة الفاطمية منذ بدايتها الى أن نجحت في اقامة الدولة الفاطمية ،
والعوامل التي هيأت لذلك النجاح ، واستتبع ذلك الحديث عن الوضع
السياسي والاقتصادي للمنطقة التي قامت فيها تلك الدولة ، وتعريفنا
بالدول التي قامت على أنقاضها ، فقد كان تفكك هذه الدول واختلاف
كلمة الحاكمين فيها ، وانهيارها اقتصاديا ، مما ساعد على النجاح
الفاطمي .

ولقد كان قيام تلك الدولة يستند أساسا على مناصرة بعض
للقبائل لها ، وجهادهم في سبيل اعلانها ، وتعرضت — بعد وجودها —
لمعاداة قبائل أخرى ، وثورتهم بها ، وحربهم لكيانها ، فكان من
الضروري لذلك أن نتحدث عن القبائل البرية في بلاد المغرب ،
وأن نحدد مواطن كل منها ، ونعرض — في ايجاز — لذهابها السياسية
والدينية ، وقد شكل ذلك كله موضوع الفصل الأول من هذا البحث .

لقد تم اعلان الدولة وأضحت حقيقة واقعة ماثلة أمام العين في
بلاد المغرب ، وبدأ يظهر في الأفق المعادون لها ، والناقمون عليها ،
والضائقون بها ، ولم يرد هؤلاء للدولة الناشئة أن تعيش في سلام ،
وأن تقيم آمنة في موطنها الجديد ، فأعلنوا الحرب عليها ، وقامت
الثورات وحركات التمرد ضدها هنا وهناك .

كذلك لم يكن قيام الفاطميين بدولة لهم في البلاد المغربية ،
إلا هدفا مبدئيا ، وخطوة أولى نحو تحقيق أملهم الواسع في حكم
كل البلاد الاسلامية من أقصى المغرب الاسلامي الى أقصى المشرق .

من هنا كان دور الجيش الفاطمي مزدوجا في هذه المرحلة من
عمر الدولة ، عليه أن يقمع حركات المائثرين ، ويقضي على ثورات
المعانددين ، وعليه في الآن نفسه أن يعمل على نشر جناحي الدولة ،
وتوسيع رقعتها ، وضم مناطق جديدة الى حكمها .

وكان موضوع الفصل الثانى من هذا البحث هو دراسة جهود الجيش فى هذا السبيل بشقيه : دراسة الثورات ضد الفاطميين وأسبابها ومدلولاتها وتحدى الجيش لها من ناحية ، ثم بيان تحركات الجيش وحروبه بهدف فتح بلاد جديدة للفاطميين من ناحية ثانية .

ولقد كان فتح مصر بالذات يمثل هدفاً أسمى لدى الفاطميين ، فقد كانت غنية فى ثروتها ، موفرة فى خيرها ، كما كانت ذات موقع استراتيجى هام يمكن منه النفاذ الى الخلافة العباسية فى بغداد وللقضاء عليها .

من هنا — ولأسباب أخرى — حرص الفاطميون منذ عهد أول خليفة لهم فى بلاد المغرب على غزو مصر ، وتتابع على البلاد المصرية الحملات تلو الحملات ، متخذة طابعاً حربياً أحياناً ، وسالكة سبيل المسالة والدهاء السياسى حيناً ، واستمر ذلك من سنة ٣٠١ هـ الى أن نجح القائد الفاطمى « جوهى الحقلى » فى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ على عهد الخليفة « المعز » الذى انتقل الى تلك البلاد ، واتخذها مقبلة لدولته وحاضرة للكه منذ سنة ٣٦٢ هـ .

ولقد حتمت الضرورة دراسة دل حملة من الحملات الفاطمية ضد مصر على حدة وبيان حالة البلاد أثناء مجيئها ، والنتائج التى حققتها ، والحقائق التى يمتن استنباطها منها : وشرح عوامل النجاح والاختفاق فيها .

وقد تتخلل الفصل الثالث من هذا البحث بدراسة تلك الحملات ، بوصف اعدادها ، وشرح دلريقها ، وأسباب فشل الجيش الفاطمى أو فلاحه فيها .

ولقد أتم الجيش الفاطمى فتح الشام بعد فترة وجيزة من غزو مصر ، وعاشت الدولة الفاطمية فترة حرجة فى تلك البلاد ،

وتعرضت فوق أراضيها للاقتاة أقسى الخصوم وألد الأعداء ، فقد تحالف القرامطة والأتراك والأعراب عليها ، فكثفوا جهودهم بهدف تحقيق أمل موحد هو القضاء على دولة الفاطميين ، وإنهاء وجودها غير أن الجيش الفاطمي كان لهم بالمرصاد ، واستطاع في براعة ومقدرة أن يهزم عدوه ، وأن يقضى عليه ، وأن يحطم باستماتته وحسن بلائه كل أهداف العدو ومقاصده .

والفصل الرابع من هذا البحث شرح لذلك الدور لجيش الفاطميين ، بمقدار ما بذل من جهد وما قدم من تضحيات في هذا الصدد .

أما الفصل الخامس فقد خصص لبحث دور الجيش الفاطمي في منطقة من أهم المناطق هي صقلية والروم .

لقد كانت الدولة الفاطمية تهدف — ضمن ما تهدف — إلى بسط نفوذها على « صقلية » ، فذلك يساعد على تحقيق هدفها في إنشاء امبراطورية عظيمة في البحر الأبيض المتوسط ، ويمتد اتخاذها منطلقا لفتح كثير من البلدان على ساحل هذا البحر ، ويقيها في الآن نفسه غارات الروم على سواحل بلادها بأفريقية ، هذا فوق غناها وثروتها الاقتصادية ووفرة المعادن النفيسة بها .

فلا عجب لذا أن تتوجه الجيوش الفاطمية لفتح تلك البلاد ، وتضمها لدولة الفاطميين ، ولقد اتخذ الفاطميون تلك البلاد قاعدة أغاروا منها على كثير من البلدان الأوروبية ، وأخضعوا لحكمهم جزلر بعضها ينتمي لإيطاليا وبعضها لفرنسا اليوم ، وفرضوا احترامهم وهيبتهم وشروطهم على الروم الذين كانوا يحكمون في تلك النواحي . ومع ذلك فلم يسلم وجود الفاطميين بصقلية من الاضطرابات والثورات ، ولم يخل من أعداء يتربصون به الدوائر ويكيدون له السبب أو الآخر . وكان الجيش يتكفل دائما بالقضاء على الثورات ، ونشر الأمن والسلام في ربوع البلاد .

وكما كانت صقلية ميدانا للحرب بين الفاطميين والروم ، كانت بلاد الشام ميدانا آخر لهذا القتال ، وكما نجح الجيش فى فرض احترام الفاطميين على الروم فى صقلية وبلدان أوروبا ، استداع ان يقضى على الآخرين فى بلاد الشام وأن يحملهم على العودة الى بلادهم مدحورين .

ولقد تكون الجيش الفاطمى من عناصر عدة ، وأجناس مختلفة ، شأنه فى ذلك شأن معظم جيوش الدول الاسلامية ، وقد كان وجود الخليط من الأجناس فى هذا الجيش ، مثيرا للحسد بينها ، يدفعها الى التنافس والتقاتل ، ويرمى بها فى حروب تستنفذ جهد الدولة وثرواتها .

ولقد قام الفصل السادس من هذا البحث على دراسة تلك العناصر ، مبدءاً دخول كل منها فى خدمة الدولة الفاطمية ، وتطور وجوده فيها ، وعلاقته بالخلافة وموقفها منه ، والأثكنات أو المعسكرات التى أقام فيها أفراد كل عنصر ، ثم العلاقات بينها أخيراً ، وأثر ذلك على انهيار الدولة وتداعى أركانها .

أما الفصل السابع فهو بحث للنظام والأسلحة فى الجيش الفاطمى — تلك النظم التى كانت أساساً أخذت به الدول التالية فى التاريخ المصرى — ولقد عرض ذلك الفصل لراتب رجال الجيش فى الدولة الفاطمية ، وألقاب القواد فى الجيش الفاطمى ، والمناسب القيادية العسكرية ، وشروط من يتولى تلك المناصب ، والمهمة المناطة به ، وتحدث عن طريقة الفاطميين فى التجنيد ، وأساليبهم فى الترقية وصاحب الحق فيها ، كما عرض لديوان الجيش ، وشروطهم فىمن يثبت فى ذلك الديوان ، ومرتببات العاملين العسكريين ، وأساس تقدير هذه المرتببات ، ووضع الاقطاع فى دولة الفاطميين ، وتقدير ذاك وأنه لم يكن يعطى مقابل مرتببات فى تلك الدولة ، وإنما كانت الخلافة

تمنحه هبة منها ، وعطية لأوليائها ، ولقد تناول ذلك الفصل كذلك موضوع الامارة على الجهاد وشروط الفاطميين فيمن يتولاها ، والعمل المكلف به ، كما تناول التعبئة الفاطمية للجيش أثناء المعارك الحربية ، وملابس الجنود ، والخدمات الطبية في الجيش الخ .

كذلك تكفل هذا الفصل بشرح أهمية الأسلحة والتسليح لدى الفاطميين ، فبين ما رصدوا لذلك من مبالغ ضخمة ، وما أعدوا من خزائن متنوعة لحفظ السلاح ، وفصل أسلحتهم ، ووصف كل سلاح منها .

وأخيرا تحدث عن العرض العسكري للجيش الفاطمي ، متمثلا ذلك في مواكب الخلفاء ، واحتفالاتهم بمناسبات معينة قام الجيش بالنصيب الأوفى فيها ، وساعد ترتيب العاملين في الدولة بهذه المواكب ، على معرفة مكانة رجال الجيش ، وترتيب قواده وفرقه .

أما عن مراجع هذه الدراسة ، فحسبى أن أقول اننى لم آل جهدا في سبيل الحصول والاطلاع على كل كتاب عرض للدولة الفاطمية من قريب أو بعيد ، مخطوطا أو مطبوعا ، وقد دونت آخر هذا البحث ، قائمة بأهم المراجع التى أفادتنى بطريقة مباشرة .

وبعد

فلا يسعنى الا تقديم الشكر خالصا ، والوفاء صادقا للأستاذ الدكتور ضياء الدين الرئيس ، رئيس قسم التاريخ الاسلامى بكلية دار العلوم .

فقد اختار للبحث موضوعا ، وتبناه فكرة ، وأحاط صاحبه بعناية ماهرة ، ومنحه الكثير من وقته وجهده ، وسدد خطاه ، ووجهه وأرشدته ، حتى خرج الموضوع بصورته الحالية الى الوجود ، ولولاه ما رأى النور .

ولست أملك ازاء ما قدم من عون ، ومنح من جهد ، إلا أن أنوجه الى الله أن يجزيه خير ما يجزى المخلصين الصادقين .

الفصل الأول

الموطن والقبائل

ونشأة الدولة الفاطمية

بلاد المغرب من الناحية الجغرافية

من الضروري أن نقدم بين يدي هذه الدراسة ، وصفا جغرافيا سريعا للبلاد المغربية ، لأن هذه البلاد تمثل مسرحا للحوادث التي انتهت بقيام الدولة الفاطمية ، وستظل مقرا لتلك الدولة أمدا ليس بالقصير ، ففهم تلك الدولة إذا ، وما يرتبط بها من حوادث ، يستلزم تقديم صورة جغرافية للأراضي والمناطق التي دارت عليها هذه الحوادث .

« المغرب » اسم يطلق على تلك المنطقة الممتدة من قرية السلوم — غرب الاسكندرية — فى الشرق ، الى المحيط الأطلسى غربا ، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا الى بلاد السودان جنوبا (الصحراء الكبرى ، ومالى والنيجر والسودان) .

وتسمية هذه المنطقة باسم المغرب ، تسمية محدثة لم تعرف الا فى القرن الأول الهجرى أطلقها عليه الفاتحون من المسلمين ، لأنه يعتبر فى الجهة الغربية بالنسبة للمراكز التي توجهت منها الجيوش لفتح هذه البلاد .

وينقسم المغرب الى أقسام ثلاثة — حسب قربه وبعده عن مصر والشام — وهى :

١ — المغرب الأدنى : ويشمل المساحة من غرب الاسكندرية فى الشرق الى مدينة « بجاية » فى المغرب (برقة ، وطرابلس وتونس وشرق الجزائر الآن) .

٢ — المغرب الأوسط : وهو عبارة عن المنطقة من « بجاية » شرقا الى وادى ملوية غربا (وسط الجزائر وغربه وجزء من دولة المغرب « مراکش » الآن) .

٣ - المغرب الأقصى : ويبتدىء من وادى ملوية شرقا الى المحيط الأطلسى غربا (ببقية القطر المغربى « مراکش » حتى المحيط الأطلسى الآن) (١) .

ويقول ابن عذارى للمراكشى : ان حد بلاد المغرب هو : من ضفة النيل بالاسكندرية الى مدينة « سلا » ، وينقسم أقساما ، فقسم من الاسكندرية الى طرابلس ، وقسم من طرابلس وهى بلاد الجريد ، ويقال لها أيضا بلاد الزاب الأعلى ، ويلى هذه البلاد بلاد الزاب الأسفل ، وحدها مدينة تيهرت ، تأتى بعد ذلك بلاد « طنجة » وحدها مدينة « سلا » وهى آخر المغرب (٢) .

هذا ويخترق بلاد المغرب سلسلتان من الجبال ، تبتدىء من المغرب الأقصى وتنتهى فى تونس ، السلسلة الشمالية منها تسمى « الأطلس الشمالى » والجنوبية تسمى الأطلس الصحراوى ، ويعرف جبل الأطلس هذا باسم « درن » كذلك ، والواقع أنه يأخذ أسماء متعددة تختلف فى كل بلد عن الأخرى ، فهو فى بلاد المصامدة « الكلاوى » وفى داخل بلاد البربر « للعياشى » ، وأوله عند المحيط من جهة الغرب ، وآخره على ثلاث مراحل من اسكندرية (٣) .

وهذه المنطقة الجبلية ليست من النوع الصحراوى القفر ، وانما أغلبها حدائق ومزارع حيث تجود الزراعة فى نجودها .

(١) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ١ ص ٣ القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٥ طبعة بروفسال ، أوربا سنة ١٩٤٨
بجاية : مدينة على ساحل البحرين بين افريقية والمغرب ،
وادى ملوية : ملوية : نهر ومرسى قرب بكور ، سلا : مدينة بأقصى المغرب
ليس بعدها معمور الا مدينة صغيرة .
(٣) انظر : عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف اعلام الناس بجمال
حاضرة مكناس ج ١ ص ٦٢ طبعة المغرب سنة ١٣٤٧ هـ .

أما الصحراء المغربية فيزرع فيها النخيل بأنواعه المختلفة ،
وبها مواطن للأحجار النفسية وأنواع الثروات المعدنية^(٥) .

بعد هذا التعريف الجغرافى ، نتحدث عن سكان تلك المنطقة
المعروفة بالمغرب ، ومن الضرورى أن نعرف القبائل التى كانت تعيش
فيها ، وميول كل منها سياسية ودينية ، لأن الدولة الفاطمية قامت
على أساس التكوين القبلى واعتمدت على تأييد ومناصرة القبائل لها .
يرجع علماء الأنساب القبائل البربرية الى أصلين كبيرين هما :
البرانس والبتر وكل من هذين يتفرع بدوره الى شعب تنقسم
الى بطون متعددة :

فشعوب البرانس يجمعها سبعة أجزام هى : يزداجة ،
ومصمودة ، وأوربة ، وعجيسة ، وكثامة ، وصنهاجة ، وأوريغة ،
ويضيف بعض العلماء الى هؤلاء : لحلة ، وهكورة ، وجزولة .

أما البتر فينحدرون فى أجزمة أربعة هى : نفوسة ، وضربة ،
وأداسة ، ونبوا الأكبر^(٦) .

وليس هناك تناقض بين من يقسم البربر الى قبائل عدة ،
ويذكرها مفصلة^(٧) وبين المؤرخين الذين يختفون بذكر الأصول فحسب :
ذلك لأن البربر كانت أصولا جبرى ، تفرغت الى شعب ، انقسمت
بدورها الى بطون ، فمثلا هواره انحدرت من أوريغة ، وقبيلة مليلة
انحدرت من هواره ، وانحدرت غمارة من مصمودة ، وتتفرع من قبيلة
« لوا » نغزاوة ولواته ، ومن لواته سدراته ... وهكذا^(٨) .

(٥) انظر : دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ١ ص ١٠ .

(٦) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٨٩ ، ص ٩٠ طبع
ببلاق سنة ١٢٨٤ هـ .

(٧) انظر مثلا : الشريف الادريسي : المغرب وارض السودان ومصر
والاندلس ص ٥٧ ، ٨٥ طبع ليدن سنة ١٨٦٤ ، ١٨٦٦ .

(٨) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٩٠ ، ٩١ ، سعد زغلول
عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٣٠ ، ٣١ دار المعارف
سنة ١٩٦٥ م .

ونأخذ الآن فى بيان مواطن أهم القبائل البربرية :

مكناسة :

هى فرع من زنانة ، وكانت تسكن على وادى ملوية من لدن أعلاه فى سجلماسة الى مصبه فى البحر ، وما بين ذلك من نواحي ملوية وكرسيف ومليله وما لليها من التلول بنواحي تازا وتسول^(٩) كما كانت تسكن حول سردنة وتلمسان ، بالإضافة الى احتلالها قرب مدينة « أدنة » ويحتلون كذلك قلاعا كثيرة فى جبل أوراس مع هواره^(١٠) .

ويذكر « الأصطخرى » أن نفزة ومكناسة موطنهما الأندلس بين الجلائفة وقرطبة^(١١) ويبدو أن هناك فروعا من هذه القبيلة ، عاشت فى المغرب الأقصى ، فالبكرى يذكر أنه حوالى مدينة فاس من البربر ، هواره وأورية ومكناسة ، فوق مساكن لهم فى « طبنة » يشاركون فيها العرب وهواره ، وجبل أوراس الذى يطل على طبنة وعلى ما وراءها تنقطنه قبائل من مكناسة وأخرى من هواره ، وهم يدينون بالمذهب الاباضى ، كما تنقطن زنانة ومكناسة فى جوفى « تيهوت » الحديثة^(١٢) .

ويمكن القول بأنه على طول وادى ملوية فيما بين المغرب الأوسط والأقصى كانت تنتشر قبيلة مكناسة .

(٩) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٢٩ ، ١٣٤ .
(١٠) انظر : اليعقوبى : صفة المغرب ص ٦ ، ١٧ ، ١٨ طبع أوربا بدون تاريخ ، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٤٤ ط دى سنان : باريس ٩١١ .
(١١) انظر : المسالك والممالك ص ٣٦ تحقيق محمد جابر الحينى - القاهرة ١٩٦١ .
(١٢) انظر : البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٦٧ ، ١١٧ ، ١٤٤

هــوارة :

أما هوارة فكانت تسكن أول الفتح في نواحي طرابلس وما يليها من برقة كما أن منهم من قطع الرمل إلى بلاد القفر^(١٣) في اتجاه السودان ويشتركون مع غيرهم من البربر في سكن جبل « أوراس »^(١٤) وهم ومديونة يعيشون في المنطقة التي تسمى « شفتيرية »^(١٥)^(١٦) ومنهم من يقيم قبلي تيهرت الحديثة ، كما أن منهم فروعا تقيم بالقرب من « أصيلة » وحول مدينة « فاس » وحوالي طينة ، وبالقرب من تلمسان ، والذين يسكنون الأوراس منهم من الالباضيين^(١٧) .

وكانت هذه القبيلة قد انقسمت إلى قسمين عند نزولها ببلاد المغرب ، نزل أحدهما بجبل نفوسة ، ونزل الآخر بالمغرب الأقصى^(١٨) ، ولعل هذا هو سر توزيعهم بين المغربين الأدنى والأقصى .

لواته :

توجد جبال متصلة من الشرق إلى الغرب في قبلة قابس وطرابلس ، أولها من الناحية الغربية جبل يسمى « دمر » وتسكنه أمم من لواته من جانبه الغربي^(١٩) ، وهذا الجبل غربي « برقة » وبطن لواته

(١٣) انظر : ابن حوقل : صورة الأرض « المسالك والممالك » ص ٧١ طبع بيروت ١٩٦٤ ، وابن خلدون : العبر ج ٦ ، ص ١٤١ .

(١٤) انظر : اليعقوبي : صفة المغرب ص ١١

(١٥) انظر : الاضطخري : المسالك والممالك : ٣٦

(١٦) مليلة : مدينة بالمغرب قريبة من سبتة على ساحل البحر ،
سردنة : الموجد سردانية : منتره بأفريقية قرب جلولا ، ادنة : مدينة
بالمغرب قرب المسيلة ، رطبته : بلدة في طرف أفريقية مما يلي المغرب ،
شنتريه : مدينة بالاندلس شرقي قرطبة .

(١٧) انظر : البكري : المغرب ص : ٦٧ ، ١١٢ ، ١١٧ ،
١٤٣ ، ١٤٤ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٣٥ من
طبعة بروكسسال .

(١٨) انظر : الشريف الإدريسي : المغرب ص ٥٧ .

(١٩) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٤٢ ، ١٤٣

التي تسكنه هي : زكودة ، ومخرطة وزنارة ، وهناك مدينة على البحر الأبيض بينها وبين طرابلس خمسة أيام ، يسكنها البربر من زناتة ولواته^(٢٠) ، ومن مدينة « برقة » الى فحص قرب الاسكندرية تسكن لواته ، وحوالي مدينة برقة نفسها فروع منهم ، وحوالي مدينة « قابس » بالقرب من طرابلس ، تعيش قبائل من بينها لواته ، و « أصيلة » غربي طنجة ، و « أودغست » ، وحصن « ايزامة »^(٢١) بالقرب من نظمسان ، كلها تعتبر « لواته » من سكانها^(٢٢) وكان بجبل « أوراس » أمة عظيمة منهم ، واستمروا بها الى عهد ابن خلدون مع قبائل من هولرة وكتامة^(٢٣) .

ويمكننا أن نقول انه في النواحي الشرقية — وخاصة على حدود مصر — كانت توجد قبائل لواته ، وأن أراضيهم كانت تمتد من حدود مصر الى طرابلس ، وجدير بالذكر أن « نفزاوة » التي سميت باسمها المناطق الجنوبية من بلاد تونس ، وما يتاخمها من بلاد طرابلس شرقا ، وصحراء قسنطينة غربا ، فرع من لواته ، ومن نفزاوة تفرعت ورفجومة وسبدرلته التي أعطت اسمها للمنطقة الواقعة في جنوب « وارجلا »^(٢٤) .

-
- (٢٠) انظر : اليعقوبي : صفة المغرب ص ٣ ، ٤ ، ١٧ .
 (٢١) أصيلة : بلد بالاندلس قرب طنجة ، اودغست : مدينة بينها وبين سجلماسة شهرين ، ايزامة : حصن معمور قرب تيهرت .
 (٢٢) انظر : البكري : المغرب ص ٣ ، ٥ ، ١٧ ، ١١٢ ،
 ١١٣ ، ١٤٣ ، ١٥٨ ، وابن عذاري : البيان المغرب ص ٢٣٥ من طبعة بروكسسال .

- (٢٣) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٧ .
 (٢٤) انظر : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص ٣٦ .

نفوسة :

فى الجانب الشرقى من جبل « دمر » السابق ذكره ، تسكن أمم من نفوسة ، وهناك جبل يقع فى طول الجبل السابق شرقا وفى اقليم طرابلس ، وقد سمى باسم نفوسة لأنها تمسكته (٢٥) ، وبين ذلك الجبل وبين طرابلس ثلاثة أيام ، وأهله من الخوارج (٢٦) وتقتن « نفوسة » كذلك فى مدينة « قابس » - بالقرب من طرابلس - مع لماية ولواته وزواغة وغيرهم ، كما يستوطنون مدينة « أودغست » ولواته وزناتة ونفزاوة (٢٧) .

ازداجة ووزداجة :

كانت كلتاهما تسكن « وهران » فى المغرب الأوسط ، واحتلت « وزداجة » منسنة تلى مدينة « باجة » البعيدة عن « القيروان » بمراحل ثلاث ، وهؤلاء كانوا من الممتنعين على الأغالبسة فلم يؤدوا اليهم جزية (٢٨) .

صنهاجة :

لقد كانت هذه القبلية أوفر القبائل عددا لعهد ابن خلدون ، وصلت بطونها الى سبعين بطنا ، لا يكاد يخلو منها جبل ولا بسيط ، وكان لها ذكر فى الحروب وفى الخروج على للولاة ، وكانت مواطنها فيما بين المغرب الأوسط وأفريقية (٢٩) ، وهناك مدينة فى المغرب الأقصى اسمها « هاز » تسكنها زناتة ، وما يليها من مدن مساكن لصنهاجة وزواوة ، وبلدة « الوسن » حول « تلمسان » تسكنها

-
- (٢٥) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٤٣ ، وسعد زغلول . تاريخ المغرب العربى ص ٣٨ . والبكرى : المغرب ص ٩ .
(٢٦) انظر : البكرى : المغرب ص ١٧ ، ١٥٨ .
(٢٧) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٤٤ ، واليعقوبى . صفة المغرب ٨٠ .
(٢٨) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٥٢ .
(٢٩) انظر : اليعقوبى : صفة المغرب : ص ١٣ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ .

« صنهاجة » مع غيرها من البربر ، ومدينة سجلماسة والسوس الأقصى من السويس الى بلد أغمات - مساحن لصنهاجة ، وفي الصحراء المتجهة الى بلاد السودان - وعلى امتداد خمسين مرحلة - ابنىة كلها لأقوام من صنهاجة^(١٠) وهناك جبل اسمه « الدرقنة »^(١١) تعيش فيه صنهاجة ، وتمتنع به اذا ارادت المحالفة على الملوك ، وبالقرب من قس « ابن خروب » بلد لصنهاجة ، وبالقرب من أصيلة تزيه ، وادرس لصنهاجة ، والطريق من تامدلت الى اودغست ، فيه مسانن هيرة لصنهاجة ، ويتسارخون غيرهم من البربر في سحنى جبل درن^(١٢) .

وهذا كله يعنى أن « صنهاجة » كانت تقطن المنطقة الجبلية الممتدة من جنوب بجاية ، الى جنوب مدينة الجزائر ، والتي يسميها انفرنسيون منطقة الغبائل الكبرى ، وبجانب ذلك استوطنت جماعة منهم بلاد المغرب الأقصى في جبال درن للشرقية (الاطلس الوسطى) ، وهؤلاء صهاجة الجبل الثالث كما يطلق عليهم ابن خلدون^(١٣) .

كثامة :

هذه القبيلة لها أهمية تاريخية ، لأنها هي التي أقامت الدولة الفاطمية بجهودها ، وكانت مواطنها في العهد الأول للإسلام من أرياف « قسنطينة » الى تخوم « بجاية » غربا الى جبل « اوراس » من ناحية القبلة (جنوبا) وكان بهذه المنطقة ديارهم المشهورة مثل جبل ايجان وسطيف ، وباغاية ، وبلزمة ، وتبتكست ، وقسنطينة ونيرها . وبعد انتقالهم الى مصر بقيت لهم بقايا في جبل اوراس وقلعته وهضابه ، ومن كثامة كذلك من سكن المغرب الأقصى وبناحية مراحش .

-
- (٣٠) أغمات : مدينتان متقابلتان قرب مرادش ، اندرة : جبل قرب سبتة تتبع منه أنهار .
 (٣١) أنظر : البكري : المغرب : صفحات ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ .
 (٣٢) أنظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٠٥ ، سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص ٤١ .

وتعتبر زاوية من كتامة — على أرجح الأقوال — ومواطنها متصلة بمواطنهم^(٣٣) .

و «سحليف» مدينة خبيزة بين «تيهت» وبين القيروان» وسكانها «كتامة»^(١١) و «قسنطينة» ومدينة «تانا فللت» يسكنهما اناس من كتامة ، وبالقرب من قلعة «ابن خروب» توجد بلد لصنهاجة بعدما قرى محصلة لكتامة ، ومدينة مرسى الدجاج — قرب اثير م وقلعه ابن خروب — على مرحلة من طنجة — يقيم فيهما أقوام من كتامة ، وبعد شلعة لصنهاجة نجد مجموعة من القرى المتصلة لكتامة ، وقرية «الكنيسة» بالقرب من سبتة ، ووادي «مغار» ومدينة افنتس^(١٢) على نهر «واولكس» ، كلها لكتامة^(١٣) ، وعلى مدينة جيجل جبل تسكنه كتامة وغيرها من القبائل^(١٤) ، وبالقرب «سحليف» جبل «ايحجان» وهو حصن حصين ومعقل منيع لكتامة وتمتد عمارتها فيه الى ان تجاوز أرض القل وبوئنه ، كذلك قرية النهر اوين م ودكمة ، الغالب عليهما كتامة^(٣٨) .

وهذا كله يعنى فى النهاية ان كتامة كانت تسكن المغرب الأوسط مع صنهاجة ، وتحصل المنطقة ما بين مدينتى بجاية وقسنطينة^(١٥) اى انها تحتل تلك المنطقة التى يسميها الفرنسيون اليوم منطقة القبائل الصغرى ، وكانت مساكن صنهاجة الى المغرب من مساكنهم^(١٦) .

-
- (٣٣) المرجع السابق ص ١٤٨ - ١٥١
(٣٤) انظر : الاصطخرى : المسالك والممالك ص ١٤ ، ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٣ .
(٣٥) نامدلت : بلد بالمغرب شرقى لمطة ، باغاية : مدينة كبيرة فى أقصى المغرب ، بلزمة : حصن معمر قرب القيروان ، وادي مغار ، وافنتس : كلاهما قرب سبتة .
(٣٧) انظر : الاستبصار لمجهول ص ١٢٨ تحقيق سعد زغلول — اسكندرية ١٩٥٨ ، الشريف الادريسي : صفة المغرب ص ٨٥ ، ١٢٠ .
(٣٨) انظر : الشريف الادريسي : صفة المغرب ص ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢٠ . وعن مواطن كتامة ، انظر كذلك ابن حوقل : صورة الأرض : ص ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ .
(٤٠، ٣٩) انظر : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٤٠ .

لمطه وكزولة وهسكورة :

تسكن هذه القبائل في السوس وما يليه من بلاد الصحراء ،
حما يقيمون في البساتن من جبال درن^(٤١) ، ويسمى « اليعقوبى »
كزولة باسم « جزولة » ويذكر أنها تسكن قرب تلمسان حيث الجبل
امتصل بالسوس قرب « تيهرت » ويقال لهذا الجبل « جزول » نسبة
لهذه القبيلة لسكنها عليه ، وهذا الجبل يسميه أهل سوس « درن »
ويسمى بتيهرت « جزول » كما يطلق عليه بالزاب اسم
« لأورلس »^(٤٢) .

وتجاوز لمطه كزولة ، وكثيرا ما قامت بينهما المنازعات والحروب ،
وأكثر أهل « لمطه » « ظواعن » ، أما هسكورة ، فمواطنهم هي جبالهم
المتصلة من درن الى تادلا من جانب المشرق ، والى درعة^(٤٣) من
جانب القبلة^(٤٤) .

المصامدة :

المصامدة من أوفر القبائل عددا ، وهم فروع كثيرة أشهرها
برعواطه وغمارة ، وهم يقيمون في المغرب الأقصى وجبال درن ،
ويعرفون بأنهم أهل الجبال ، الا أن هناك عددا قليلا منهم يسكنون
البساتن ، وقد استمرت « غمارة » في مواطنها من الفتح الاسلامى
الى عصر ابن خلدون^(٤٥) . ويسكن المصامدة كذلك حول مدينة
« بونه » في الطريق الى القيروان ، وتشاركهم في هذه المنطقة أوربة

(٤١) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٠٣ .

(٤٢) انظر : اليعقوبى : صفة المغرب ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ .

(٤٣) القل : مرسى قرب الزيتونة ، بونة : مدينة حصينة بافريقية ،
النهر اوين : تقع قرب القيروان ، ودكمة كذلك ، تادلا : من جبال البربر
بالمغرب قرب تلمسان ، درعة : مدينة بالمغرب بينها وبين سجلماسة
ربعة فراسخ .

(٤٤) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٠٣ .

وغيرها ، كما يحتلون المسافة من سبتة الى طنجة • « وأغمات »
بالقرب من جبل أوراس ، « وباغاية » تسكن فيهما مصمودة ، ويعتبر
« البكري » كتامة من فروعها الكبرى (٤٦) •

وينزل المصامدة كذلك في المغرب الأقصى ، ويعمرون بلاده منذ
أوائل الهجرة البربرية (٤٧) ويسكن الى جانبهم في المغرب الأقصى أوربة
وصنهاجة ومضغرة ، لكن هؤلاء يسكنون الجبال ، وأوربة بالذات
سكنت في جنوب الريف (فاس) وبمساعدهم قامت دولة الأدراسة
في بلاد المغرب (٤٨) •

بالاضافة الى اقامتهم في جنوب الريف فانهم يستوطنون حول
مدينة بونة - قرب بسكرة - حيث توجد مساكن لمصمودة وأوربة
وغيرهما من البربر (٤٩) ، كذلك تششارك « أوربة » غيرها في سكنى
جبل « وذشريس » (٥٠) •

يسكن المغرب للأقصى أمم من زناتة ، تقع منازلهم على نهر ملوية
وبالمغرب الأوسط ديار لزناتة ، كانت من قبلهم مساكن غيرهم من البربر
ثم احتلوها هم وطردها أصحابها منها (٥١) ، وهناك بلدة اسمها
« اجدابية » - بينها وبين برقة أربعة مراحل - أهلها من زناتة ،
كما يشاركون في سكنى بلدة « قابس » البعيدة عن « طرابلس »
بمراحل خمس ، ومدينة « أوزكا » - بينها وبين تيهرت مراحل ثلاث
الغالب عليها فخذ من زناتة ، ومن هذه المدينة الى المغرب حتى

(٤٥) انظر : العبر ج ٦ ص ٢٨٦ - ٢١١

(٤٦) انظر : المغرب ص ١٠٤

(٤٧) انظر : الشريف الادريسي : صفة المغرب العربي ص ٥

(٤٨) انظر : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص ٤٢

(٤٩) انظر : الشريف الادريسي : صفة المغرب العربي ص ٨٥

(٥٠) انظر البكري : المغرب ص ٥٥ ، ١١٧

(٥١) انظر ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠٢

سجلماسة مساكن لزنانة ومدينة « تيجس »^(٥٢) يسكن بها فرع من زنانة و « تلمسان » قاعدة المغرب الأوسط — بالقرب منها ديار لزنانة ، ويشساركون غيرهم فى استيطان مدينة « أودغست »^(٥٣) « ومطماطة » فرع من زناته ، وكانوا يسكنون بلاد الجريد وقد أطلق اسمهم على الجبل هناك .

ومجموعة قبائل نفوسة م وهوارة ، ومطماطة ، وجراوة ، كلها فروع من زنانة البدوية التى ملأت المغرب الأوسط لعهد ابن خلدون .

ومضراوة فى جنوب الجزائر ، و « بنويفرن » الى الغرب منها وفى جنوب وهران وتلمسان ، ومغيلة فى الأقاليم الساحلية شرقى مصب وادى شلف ، وجنوبى « فاس » الى المغرب الأقصى ، ومديونة — جنوبى تلمسان — وكوميه — غرب وهران م والى الغرب منها مطغرة ، هذه القبائل كلها تعتبر من زناته هى الأخرى ، وقد انتشرت فى المغرب الأقصى عن طريق وجدة وفارس وممر تازا^(٥٤) ^(٥٥) .

مديونية ، مطماطة ، نفزاوة ، نفزة :

تحتل مديونة مع هوارة منطقة « شنتبرية »^(٥٦) وهناك — بالقرب من ايكجان — أرض تسمى « أرض القل » تجاورها مساكن لمديونية ، ، بالإضافة الى سكناهم فى بلاد المغرب الأقصى .

(٥٢) جبل ونشريس : بين مليانة وتلمسان من نواحي المغرب ، تيجس : مدينة حصينة قرب القيروان .
(٥٣) انظر : البكرى : المغرب صفحات ٦٣ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ١٤٣ ١٥٨

(٥٤) انظر : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٣٩
(٥٥) وادى شلف : شلف : مدينة ونهر قرب أستر . وجدة : مدينة بينها وبين تلمسان أربع مراحل ، ممر تازا : موضع فى جبل يستخرج منه الذهب بالمغرب .

(٥٦) انظر : الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٦

وتسكن « مطماطة » فى جبل يسمى باسمها قرب القيروان * كما
يعتبرون ببطونهم الكثيرة من أكثر سكان « تيهرت » فيقطنون جوف
هذه المدينة مع زناتة ومكناسة^(٥٧) ، ويشاركون غيرهم كذلك بالسكن
فى « ونشريس » جنوب مليانة^(٥٨) * .

أما « نفزاوة » فيشترون مع « نفوسة وبنى يفرن » وسواهم
من البربر فى سكنى بسائط افريقية حتى طرابلس^(٥٩) ولهم عدة مدن
قرب القيروان يسكنونها مع غيرهم من البربر * .

أما نفزة فتسكن الأندلس مع مكناسة فيما بين قرطبة
والجبالقة^(٦٠) ، ويسكن قسنطينة قبائل شتى من نفزة وغيرها * أما
حصن « ايزمامة » قرب « تلمسان » فممكن لنفزاوة ولوائه^(٦١) * .

نخلص من ذلك كله الى أن المغرب الأدنى كانت تسكنه « لوائه »
وكانت فى « برقة » حتى خليج « سرت الأكبر » فى طرابلس ، ومن
هذا الخليج الى مدينة طرابلس لهوارة ، وتجاورها « نفوسة »
فى غرب مدينة طرابلس وجنوبها ، كما جاورت أمم من زناتة
« نفوسة » فى طرابلس وأن سكن معظمها المغرب الأوسط * .

أما افريقية (تونس اليوم) فكان موطنها « لنفزاوة » من
جنوب مدينة « الكاف » الى جنوب « قسيطة » ، ومن نفزاوة « ورفجومة »
التي كانت تنقسم غرب مدينة « قابس » المجاورة لجبل أوراس * .

أما الجزائر فمن « بجاية » فى الغرب الى « سكيكدة » فى
الشرق حتى شمال أوراس فى الجبال — وهى منطقة نوميديا الوسطى

(٥٧) انظر : البكرى : المغرب ص ٦٦ ، ٦٧
(٥٨) انظر : الشريف الادريسي : صفة المغرب ص ٨٥
(٥٩) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠٣
(٦٠) انظر : الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٦
(٦١) انظر : البكرى : المغرب ص ١٤٣

والغربية — فكانت مواطن كتامة م ومن غرب بجاية الى شرق مدينة الجزائر — على طول الساحل — فلزواوة المارجح انقماؤها لكتامة ، ومن شرق مدينة الجزائر الى غرب مدينة مليانة الى المسيلة جنوبا ، مواطن صفهاجة ، كما سكنت كذلك شرقي « تيهرت » جهة مليانة وآمدية ، ومن مليانة شرقا الى وادي ملوية غربا ، مساكن زناتة ، وفي هذه البقاع « مطماطة » كذلك في جبال « الونشريس » وفي غربي « تيهرت » كانت نفوسة وزواغة وغيرها ، وفي شمالها مطماطة وزناتة ومكناسة وغيرها وفي جنوبها لواته وهوارة ولماية وغيرها ، وفي جبال أوراس كذلك ، نجد لواته وهوارة ومحراوة من زناتة ، وكانت كلها تسكن شرقي تيهرت في شمال « الأوراس » وجنوبه .

وأما المغرب الأقصى ففي شماله غمارة ومضجرة وأوربة — في شمال فاس الحالية ، وأما وسط المغرب الأقصى وجنوبه بجبال درن فمساكن المصامدة ، وفي صحراء المغرب الأقصى نجد صفهاجة أيضا م كما نجدها في الغرب من صحراء المغرب الأوسط ، ونجد فيها كذلك هوارة وزناتة . وعلى العموم فاننا نجد البرانس — غالبا — في سواحل بلاد المغرب ، والبتري في وسط المغرب الكبير وجنوبه (٦٢) ، وما تزال سلالات هذه القبائل البربرية تقيم في أماكن مختلفة من البلاد المغربية حتى الآن (٦٣) .

هذه أهم القبائل البربرية ، وتلك مواطنها التي أقامت فيها ، ومع ذلك فينبغي أن يلاحظ أن هذا التحديد الجغرافي لمواطن تلك القبائل ، ليس دقيقا تمام الدقة ، ذلك لأن طبيعتها البربرية كانت تجعل انتقالها من مكان لآخر سهلا وميسورا ، كما كانت تقوم بينها

(٦٢) انظر : ديوز : تاريخ المغرب الكبير ج ١ ص ٣٨ وما بعدها ، ج ٣ ص ٢٤٥

(٦٣) انظر : من بقى من البربر وتفصيل مواطنهم الآن في :
أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ص ١٨٨ وما بعدها .
القاهرة سنة ١٩٦٣ طبعة ثانية .

منازعات وحروب يترتب عليها أن قبيلة « ما » تهجر منطقتها وتبحث لنفسها عن مكان آخر تعيش فيه نتيجة لتغلب الأخرى عليها وسيطرتها على موطنها ، أضف لهذا أن المصادر التى بين أيدينا لا تتخذ طابعاً واضحاً فى حديثها عن هذه القبائل وعن مواطنها ، وإنما كان يأتى ذكر موطن القبيلة عرضاً فى الكتب الجغرافية عند حديثها عن المنطقة الجغرافية سكن تلك القبيلة .

وحقيقة أفراد ابن خلدون فصولاً لهذه القبائل ، وتحدث عنها وعن أماكنها وتنقلاتها فى الجزئين السادس والسابع من كتابه « العبر » ، ولكن يلاحظ أن هذا المؤرخ يتحدث عن عنصره هو ، وعن القبائل ومقر كل منها فى القرن الثامن الهجرى ، بيد أنه من ناحية أخرى ، فإن اتفاق أمثال الاصطخرى واليعقوبى معه فى تحديد موطن القبائل التى اشتركا فى عرضها والحديث عنها ، يجعل تحديده يصلح — ولو بحسبة عامة — للقرنين الثالث والرابع الهجريين ، اللذين شهدا محاولات الفاطميين إقامة دولتهم فى بلاد المغرب ، ثم شهدا نشأة تلك الدولة واستقرارها فى تلك البلاد .

وانما قلت «بصفة عامة» لأن هجرة بنى هلال فى القرن الخامس الهجرى إلى المغرب ، ومحاربتها لقبائله ، تسببت فى تغيير عدد كبير من مواطن القبائل فوق الخريطة المغربية .

وبعد :

فقد آن أن نقدم صورة سريعة لبلاد المغرب من الناحية السياسية فى الفترة التى سبقت قيام الدولة الفاطمية بها ، حتى يكون تصورنا لمسرح الحوادث تاماً وشاملاً لمختلف النواحي .

« الحالة السياسية فى بلاد المغرب قبيل قيام الدولة الفاطمية »

إذا أردنا أن نختار نقطة نبدأ منها هذه الجزئية ، فيبدو أن سنة ٢٧٠ هـ هى أنسب نقطة لتلك البداية ، ذلك أن بعض الأخبار تدل على أن الدعوة الشيعية ، قد عرفت طريقها الى بلاد المغرب وأفريقية بعد هذه السنة ، وكان ذلك على يد الداعيين « الحلوانى وأبى سفيان » اللذين أرسلهما « ابن حوشب » - داعى المين - حوالى العام المشار اليه ، ليقوما بنشر الدعوة الشيعية فى البلاد المغربية^(١) ع وقد أحرزا نجاحا فى مهمتهما ومالت قلوب أهل تلك النواحي اليهما^(٢) .

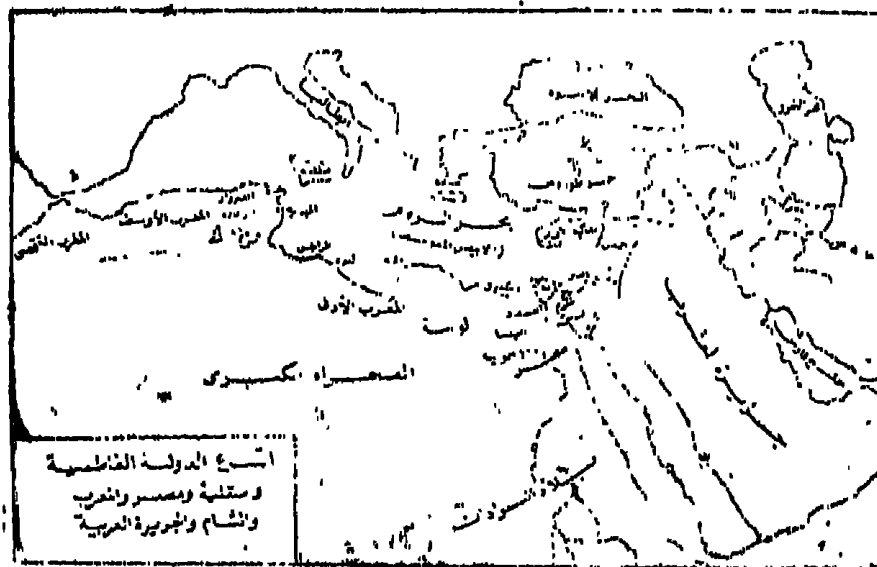
وكان يتولى على افريقية فى تلك الفترة التى انتقلت فيها الدعوة الشيعية اليها « ابراهيم بن أحمد الأغلبى » (٢٦١ : ٢٨٩ هـ) ثم تولى حكم هذه البلاد واليا عن الخلافة العباسية فى بغداد .

وقد قدمت لنا المراجع التاريخية صورتين متناقضتين لمسيرة هذا الوالى وحالة البلاد أثناء حكمه ، فالبعض يصفه بأنه كان مجاها عادلا حازما ذا فطنة ، بلغت الامارة الأغلبية أوج مجدها ورقيها على أيامه^(٣) ، بينما يقدم له البعض الآخر صورة مضادة ، فيصفه بالجور

(١) انظر : حسن ابراهيم : عبید الله المهدى ص ٤٥ طبع القاهرة سنة ١٩٤٧

(٢) انظر : النويرى : نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٢٤ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية .

(٣) انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٠١ ، حوادث سنة ٢٦١ هـ طبع بولاق بدون تاريخ ، ابن أبى دینار : المؤنس فى اخبار افريقية وتونس ص ٤٩ ، ٥٠ طبع تونس سنة ١٢٨٦ هـ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٠٣ ، ص ٢٠٤ ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ١٦٠ من المطبعة السابعة - القاهرة سنة ١٩٦٥ ، حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ٧٢ من المطبعة الثالثة طبع تونس سنة ١٣٧٣ هـ .



وسفك الدماء ، والفسوة والاستبداد ، وانعدام المعاملة الحسنة بينه وبين رعيته بل بينه وبين أفراد أسرته بل وبين أبنائه أنفسهم ، والشئ الذى سبب غضب القبائل وثورتها عليه ، وظهور حركات التمرد عليه فى جهات متعددة من البلاد (٤) .

وقد ترك هذا الوضع السيئ آثاره على اقتصاديات البلاد ، فاشتد القحط وعلت الأسعار ، حتى بيع قفيز القمح — والقفيز مقدار أردب وربع بالمصرى — بثمانية دنانير وهلك الناس وأهل بعضهم بعضا (٥) ، وكل هذا جعل الناس يجارون بالشكوى من واليهم الى « المعتضد » الخليفة العباسى (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) ، فعزله عن إفريقية وولى عليها ابنه أبا العباسى (٦) .

ويظهر أن سر اختلاف المؤرخين فى وصف سيرة ذلك الوالى ، مرده أن شخصيته مرت بمراحل مختلفة ، وأم ثكن على نسق واحد فى مختلف مراحل حياتها ويمدنا أن نميز بين مراحل ثلاث فى سيرته :

(أ) سيرته قبل تولية الحكم وخلال السبع سنين الأولى منه .

(ب) سيرته بعد ذلك والى نزل « المعتضد » له .

(ج) سيرته فى السنين الأخيرة من عمره وحتى وفاته .

وقد كان فى المرحلة الأولى خيرا ، حسن السيرة ، محبا للشعب ، حتى أنه ارتضاه لحكمه . وحمله على الحنث فى خمسين يمينا : كان قد أقسمها الا ينتزع الحكم من أولاد أخيه .

(٤) انظر صورا من ذلك فى النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٣٦ ، ٣٧ ، ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ من ص ١١٣ — ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٤ طبعة ليدن سنة ١٨٤٨ بتحقيق « دوزى » .

(٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٣٦ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١١١

(٦) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٣٨

وفى الثانية ساء حكمه ، وحرص على جميع الأموال ، وأخذ يقتل خواصه وأصحابه ، وكان يزداد سوءاً فى كل سنة عن سابقتها (٧) .

وفى المرحلة الثالثة ، أحسن بكرهية الناس له ، وتظلمهم منه ، ونظر حواليه فوجد أن الدعوة الشيعية قد استفادت من حكمه الظالم ، وأخذت تنتشر بين القبائل ، وأضحى لها صوت مسموع بفضل « كتامة » والمؤمنين بها ، لهذا كله أظهر التوبة وأخذ يرضى العامة ويستميل الخاصة ، وقرب العلماء اليه ، وقصد الحج والجهاد (٨) .

وقد تم عزل ذلك الوالى سنة ٢٨٨ هـ بأمر من الخلافة العباسية فى بغداد ، وتولى مكانه ابنه « أبو العباس عبد الله بن إبراهيم ابن الأغلب » .

وتتفق المصادر التاريخية على أنه كان عادلاً ، برا برعيته ، مجاهداً أقام حكمه على أساس من الشورى ، وأحاط نفسه بالعلماء يستفتيهم ويستترشد بهم (٩) بيد أن حياة ذلك الوالى لم تدم طويلاً ، فقد كان ضحية مؤامرة دبرها نائبه على « صقلية » ابنه (زيادة الله) كان نتيجتها أن ثلاثة من الخدم وثبوا بأبى العباس وقطعوا رأسه وهو نائم سنة ٢٩٠ هـ بعد حكم لم يدم أكثر من سنة واحدة فقط .

(٧) أنظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٢٦ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٣٨
(٨) أنظر : تفصيل ذلك فى ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٠١ حوادث سنة ٢٦١ هـ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ٧٢

(٩) عن سيرة ذلك الوالى : أنظر مثلاً : العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ج ١٤ ص ١٥٥ مخطوط بدار الكتب المصرية ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٤١ ، ابن الأثير : الكامل : ج ٧ ص ١٨٦ حوادث سنة ٢٨٩ هـ .

وقد تولى ابنه « زيادة الله بن أبى لعلباس » بعد وفاته ، فأحاط نفسه بالندماء والمضحكين ، ولازم الشرب وعكف على اللذات ، وقتل اخوته وبنى عمومته وذوى قرباه حتى يأمن منازعتهم لم فى الحكم^(١٠) ، وبالجمللة فقد كان سيىء السيرة فى الرعية ومع الجند منصرفا لارضاء ملذاته وشهواته .

وهكذا كانت حالة افريقية من السوء ، فى الفترة التى عمل الشيعة فيها على نشر دعوتهم فى هذه المنطقة ، فالحكم ظالم مستبد ، والأسرة الحاكمة نفسها ، يمزقها للخلاف ، وتلعب بها الأسواء والنزوات ، ويتعرض افرادها لمؤامرات بعضهم ضد البعض الآخر . وللشعب متذمر مستمء ، يؤله انصراف حكامه عنه واهمالهم لثئونته وتعرضه للمسغبة والجوع من جراء سوء الحالة الاقتصادية فى البلاد .

حقيقة مرت بالبلاد حقب كانت ترى فيها العدل ، وتنعم بالأمن والهدوء ، لكنها كانت بمثابة البريق ينتمع لحظة فيستلقت النظر ويأخذ باللب ، ثم لا يلبث أن ينتشر الظلام مرة ثانية ، ويعم الأفق ويخيم على البلاد ، ولهذا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان البلاد كانت حالتها سيئة بصفة عامة ، وأن ذلك ساعد للدعوة الشيعة على النجاح ، فراجت سوقها وكثر انصارها يوما من بعد يوم ، ودخل فيها الكثيرون من البربر ، وقد تمكنت بهم من تكوين جيش التقى بجيش « لابن غالب » جمع فيه كل ما انتهت اليه طاقته ، وزوده بكل ما تقدر عليه من المال والسلاح ، ومع ذلك انهزم أمام جند الشيعة ، ولما علم بذلك « زيادة الله » حمل ما خف حمله من مال ومتاع وفر هاربا الى المشرق .

(١٠) انظر : العيني : عقد الجمان ج ١٤ ص ١٥٥ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٤١ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٣٠

وظلت البلاد تتساقط فى يد الشيعة واحدة بعد الأخرى ،
حتى تمكنوا من دخول عاصمة الأغالبة سنة ٢٩٦ هـ كما سيأتى •

وبسقوط « رقادة » العاصمة ، سقط حكم الأغالبة لأفريقيّة
بعد أن استمر مائة واثنى عشرة سنة ، منذ أن ولى الخليفة العباسى
« هارون الرشيد » (١٧٠ - ١٩٣ هـ) حكم هذه البلاد « ابراهيم
ابن الأغلب » سنة ١٨٤ هـ الى أن سقطت فى يد الفاطميين
سنة ٢٩٦ هـ •

دولة الرستميين فى تيهرت :

لم تكن دولة الأغالبة تحكم وحدها فى بلاد المغرب خلال الفترة
التي نعرض لها ، وانما كانت هناك كذلك الدولة التى أسسها
« بنو رستم » فى « تيهرت » على أساس من مبادئ الخوارج
الاباضيين •

فقد نجح الخوارج فى الدعاية لمذهبهم ونشره بين القبائل ،
وخاصة فى منطقة المغرب الأوسط ، حيث أتيحت عوامل هيات لذلك
النجاح ، مما دفع « عبد الرحمن بن رستم » الى الهجرة للمغرب
الأوسط حيث قبائل لمساية ولواته وهوارة ونفوسة ومزاته (١١) التى
تعتنق المذهب الخارجى الأباضى عن يقين • ولما وصل « ابن رستم »
الى هؤلاء الأتباع رهبوا به ، وطالبوه بإنشاء دولة تقوم على أساس
من الدين وهدى القرآن الكريم وللسنة النبوية ، ويتساوى فى ظلها
كل المؤمنين ، وقد اختار رؤساء القبائل « ابن رستم » لامامة هذه
الدولة فاستجاب بعد تمنع ، وبعد قيام قاعدة الدولة الجديدة تمثلت
فى مدينة « تيهرت الحديثة » وكان قيام تلك الدولة سنة ١٦٠ هـ (١٢) •

(١١) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٢١ •

(١٢) انظر تفصيل ذلك فى دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ من
ص ٢٥١ - ٢٩٥ طبع القاهرة سنة ١٩٦٣ م •

وعند ظهور الدعوة الشيعية في بلاد المغرب كان امام الرستميين هو : « أبو اليقظان محمد بن أفلح » ، وكان حاكما قديرا ، تمكن بفضل علمه وورعه من توحيد صفوف الخوارج الأباضيين ، وجمعهم حوله ، فظلوا قوة لا يعرف الانقسام سبيله اليها الى ان توفى ذلك الامام سنة ٢٨١ هـ (١٦) .

وتعتبر نهاية ذلك الامام بداية اضمحلال تلك الدولة ، ذلك لأن البيت الحاكم سيتعرض للفرقة والانقسام ، وسيخرج أفراداه على بعض ، وسيقيمون المؤامرات بعضهم ضد البعض الآخر ، وسيبحار أعضاء مجلس الشورى لفريق ضد فريق ، بل ستؤلف الجيوش ، ويتحارب أبناء الأسرة الواحدة ، وقد ماجت البلاد بتيارات الفتن والحسد والتنافس ، وأثر ذلك على مجريات الأحداث في الدولة ، فتفكرت إبادتها ، وتولى واحد عليها بالسيف لا طبقا لاختيار الأمة ، وقامت في البلاد ثورات متعددة وعبثت بالشعب واتحاده العصبية القومية والمذهبية ، وعفت بهيئة الحكومة المنافسات السياسية والاختلافات الداخلية ، تلك حال للدولة الرسمية في الوقت الذي ظهر فيه الدعوة الشيعية بكتامة ، وقضت على دولة الأغلبية (١٧) .

وكان « الشيعي » قد سيطر على منطقة الزاب كلها ، واستفحل أمره وقرب من ديار الرستميين ، وبعدها فرغ من الأغلبية قصد « تيهرت » فخرج اليه أهلها ووعدوه بتسليم المدينة ، كما خرج اليه البيت الحاكم بجميع أفراداه واستقبله مسالما « وهكذا استولى أبو عبد الله الشيعي على دولة « تيهرت » لأنه وجد أمة بلا حكومة ، وحكومة بلا أمة » (١٨) .

(١٣) انظر : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص ٣٨٨ - ٣٩٤

(١٤) انظر : مبارك بن محمد بن الهلالى الميلى : تاريخ الجزائر

في القديم والحديث ج ٢ ص ٣٧ طبع الجزائر سنة ١٣٥٠ هـ .

(١٥) المرجع السابق : نفس الجزء والموضع .

ولكن ماذا كانت حدود تلك الدولة ؟ *

القدامى من المؤرخين لا يذكرون أكثر من أنها حكمت « تيهرت » وما حولها . أما المحدثون فيحددونها — اعتمادا على تنقلات أثمتها — مو، جميع مسارح الرعى للقبائل التي ساندت الدعوة الخارجية ، والتي تنتشر جنوبا فى كل بلاد الزاب ، أى كل الأقاليم والقرى التي كانت تعتنق المذهب الخارجى ، وبذلك يكون امتدادها ما بين جبل نفوسة شرقا و تيهرت غربا (١٦) .

أما حدها من الشمال الى الجنوب ، فمن البحر الأبيض المتوسط الى الصحراء الكبرى الى ما بعد ورجلان واغدامس وفزلن (١٧) .

ويعنى ذلك أنها شملت « أغلب عمالة » (محافظة) الجزائر ، وأغلب عمالة « وهران » ، وعلى جبال أوراس ، وعلى نصف افريقية الجنوبية ، وعلى طرابلس الى الصحراء الكبرى ما عدا ما بين طرابلس والبحر » (١٨) .

ذلك هو أقصى اتساع وصلت اليه تلك الدولة فى عهد امامها الثانى « عبد الوهاب » ، وان كان لا يعنى عدم تغير حدودها — حسب الظروف الطبيعية والسياسية التي خضعت لها — لأنها كانت دولة ذات طابع بدوى صحراوى يتميز بعدم الاستقرار .

دولة بنى واسول بسجل ماسة :

الى جانب دولة الأغلبية التي حكمت فى المغرب الأدنى ، ودولة الرستميين التي سيطرت على المغرب الأوسط وجزء من الأدنى ، كانت هناك دولة « بنى واسول » التي قامت فى جنوب المغرب الأقصى .

(١٦) سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

(١٧) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٥١٧ .

(١٨) انظر : نفسه وانظر تفصيل الحدود فيه ص ٥١٥ وما بعدها .

ذلك أن قبيلة « مكناسة » كانت تدين بمذهب الصفرية من الخوارج ، وقد اجتمع أربعون ألفا على هذا المذهب ، وولوا عليهم خارجيا سودانيا وبيعوه بامانتهم ، وأنشأوا مدينة « سجلماسة » لتكون حاضرة لدولتهم سنة ١٤٠ هـ ، وبعد فترة نقموا على رئيس دولتهم وخلعوه ، وولوا عليهم « أبا القاسم سمكو بن واسول » للذى كان اباضيا صفريا وخطب فى عمله للمنصور (١٣٦ هـ — ١٥٨ هـ) والمهدى (١٥٨ هـ — ١٦٩ هـ) من بنى العباس (١٩) .

وكان يحكم فى هذه الدولة قبيل الدولة الفاطمية « المنتصر بن اليعسج الملقب بمدرار » (٢٠) ، ولم يذكر المؤرخون شيئا عن حكمه وحالة البلاد فى أيامه ، فيما عدا أنه هو الذى وضع المهدي وابنه أبا القاسم فى سجنه « بسجلماسة » حين طلب الخليفة العباسى « المعتضد » ذلك منه ، فقد كان المهدي هو الامام الذى يعمل للحسين الشيعى باسمه ويدعو اليه .

ويبدو أن الفترة التى حكم فيها « المنتصر بن اليعسج » كانت تتميز بالاستقرار والهدوء فقد حدثتنا المصادر عن اضطرابات فى عهد سابقيه ، وعن خلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، نشأ عنها صراع مسلح ، ونجح المنتصر بن اليعسج « حين تولى فى إعادة السكينة للبلاد ، ولدا يغلب على الظن أنه حكم بنجاح ، وكان من الممكن الا يتعرض الشيعى له — أو على الأقل يؤجل التعرض لدولته — لولا أنه سجن المهدي وابنه ، مما حمل الشيعى على التعجيل بالرحيل اليه ، ومخاطبته فى لين ، حتى ينقذ رقبة الامام الذى يعمل من أجله ، ويحميه من القتل .

(١٩) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٣٠ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٥٥ ، والبكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٤٩ ، السلاوى : تاريخ المغرب الأقصى ج ١ ص ٥٦ طبع المغرب سنة ١٣١٢ هـ .

(٢٠) انظر البكرى : المغرب ص ١٥٠ ، الاستبصار لمجهول ص ٢٠١ .

ومهما يكن من أمر ، فقد توجه « أبو عبد الله الشيعي » الى « سجلماسة » بعد استيلائه على « رقادة » وقد خرج اليه الوالى مع مكناسة فى جموع غفيرة تمكن من هزيمتها ، ثم اقتحم مدينة « سجلماسة » وأخرج للمهدي وابنه من محبسهما ، وأرسل الى المنتصر بن اليسع من أدركه وأتى به ، ثم ضربت عنقه سنة ٢٩٦ هـ (٢١) .

أما عن حدود تلك الدولة ، فقد ذكر القسدماء أنها كانت تحكم « سجلماسة » وما حولها ، ويحدد صاحب تاريخ المغرب الكبير الحدود الشمالية لتلك الدولة ، بجنوب الأطلس الكبير فى جنوب المغرب الأقصى ، ويقول انها تمتد جنوبا الى قلب الصحراء الكبرى ، وأن حكمها شمل منطقتى سجلماسة ودرعة (٢٢) .

أما « العمرى » فيذكر أن « المغرب الأقصى كله كان قد اجتمع للأدراسة ، وخطب لهم فيه بالخلافة ثم اقتطع منه بنو مدرار مملكة سجلماسة » (٢٣) .

وهذه العبارة يفهم منها أن دولة الأدراسة قامت أولا ، ثم اقتطع « بنو واسول » بعض ممتلكاتها وأقاموا دولتهم عليها ، ولئن هذا يخالف الحقائق التاريخية ، ذلك أن كل المؤرخين ذكروا أن دولة « بنى واسول » قامت فى سجلماسة سنة ١٤٠ هـ ، وقامت دولة الأدراسة ١٧٢ هـ (٢٤) . ومعنى ذلك أن دولة بنى واسول أسبق فى الوجود من دولة الأدراسة ، ولذلك ربما كان الأقرب الى المصواب هو ما ذكره ابن خلدون (٢٥) من أن « ادريس الثانى » هو الذى قضى

(٢١) انظر مثلا : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٣١ ، التويرى :

نهاية الأرب ج ١٦ ورقة ٣٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٥٦

(٢٢) دبيرز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

(٢٣) انظر : ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ج ٣ مجلد ١

ص ١٤١ مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٢٤) انظر : السلاوى : تاريخ المغرب الأقصى ج ١ ص ٦٨ .

(٢٥) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣ ، ١٤ .

على الخوارج ، واقتطع المغريين عن دعوة العباسيين « من لدن السوس الأقصى الى شلف » ، وبذلك تكون دولة « بنى واسول » قد انحصرت فى سجلماسة ويكون الأدارسة قد استولوا على جزء من ممالكها وليس للعكس .

العلاقات بين الدول السابقة :

لقد كانت الروح السائدة بين دول المغرب الثلاث (الأغالبة والرسثيين وبنى واسول) هى روح المودة والمسالمة وحسن الجوار ، فبرغم اختلاف مذاهبها سياسية ودينية ، الا أن أيا منها لم يقف موقف العداء من الأخرى ، كذلك على الرغم من كراهية العباسيين لهذه الدول ، آثروا المعيشة معها فى صفاء ، ولهذا نجد روح « روح بن حاتم » والى الخلافة العباسية فى بلاد المغرب ، يعقد معاهدة حسن جوار مع « ابن رستم » بمقتضاها ترك المغرب الأوسط للاباضيين ليعيشوا به فى صفاء ، ثم جاء « ابراهيم بن الأغلب » بعد ذلك ، واتفق مع « ابن رستم » على أن تكون السيادة على دواخل طرابلس للخوارج ، وأن تبقى له هو السيطرة على المدينة نفسها وعلى الأقاليم الساحلية (٢٦) .

وقد كانت الدولة الرسثمية ودولة بنى واسول — وكلتاها خارجية — تعايش الأخرى فى صفاء ومودة ، وكانت رعايا الدولة الرسثمية تغشى سجلماسة ، ورعايا سجلماسة تغشى الدولة الرسثمية (٢٧) .

وقد ذكر ابن خلدون أن « ابن ولسول » كان اباضيا صفرى ، لأن العلاقة بين الصفرىين والاباضيين كانت وثيقة للدرجة التى يصعب

(٢٦) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٣ ، ١٢١ ، سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٤٤٩ .
(٢٧) انظر : دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٤٤٠ .

معها التمييز بينهما (٢٨) ، وقد كانت بين الدولتين مصاهرة وعلاقات تجارية وثقافية وسياسية (٢٩) .

وهذه العلاقة الطيبة كانت قائمة كذلك بين سجلماسة والقيروان ، بل ان حاكم سجلماسة كان يتلقى التعليمات والأوامر من أمير بنى الأغلب أو الخليفة العباسي ، وعلى الرغم من قول بعض الباحثين ان ذلك لم يحدث الا متأخرا ، حين قبض « المنتصر بن الياسع » على « المهدي » بأمر للخليفة من بنى العباس ، الا اننا نجد المثل على ما كان من حسن في العلاقة بين العباسيين وبنى واسول ، قائما منذ الأيام الأولى لحكمهم .

فقد ذكر ابن خلدون أن « سمو بن واسول » الذي تولى سنة ١٥٥ هـ خطب في عمله للمنصور والمهدي من بنى العباس (٣٠) ، وهذا يعنى أن العلاقات الحسنة بين الدولتين لم تحدث في آخر أيام « بنى واسول » فقط وانما ترجع الى العهد المبكر من حكمهم .

أما بلاد المغرب الأقصى ، فقد كانت تحكم بواسطة ، الأدارسة ، الذين أسسوا لهم دولة هناك سنة ١٧٢ هـ بمساعدة قبيلة « أوربة » ولن يتعرض الفاطميون لهم خلال دور نشأة دولتهم هذا ، وانما ستقوم العلاقات بينهم في دور التوسع الفاطمي ، ولذلك سنرجى الحديث عنهم الآن .

بعد أن تم تصوير مسرح الحوادث ، وأخذنا فكرة عنه من نواحيه الجغرافية والقبلية والسياسية ، نتساءل :

-
- (٢٨) انظر : ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ١٣٠ ، سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص ٤٠١ .
(٢٩) انظر : دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .
(٣٠) انظر : المعبر ج ٦ ص ١٣٠ .

فى أى قبيلة من القبائل السابق الحديث عنها انتشرت الدعوة
الشيعية ، وأيها استجاب للداعية الفاطمى « أبى عبد الله الحسين
الشيعى » وساعده على إقامة الدولة الفاطمية ببلاد المغرب ، ومن منها
ناصره العداء وأعلنها حربا عليه ، وقبل ذلك كله ، ماذا عن الدعوة
الشيعية نفسها ، وكيف ومتى انتقلت الى بلاد المغرب ، وماذا كانت
وسائل الدعاة وطرقهم لنشر مبادئهم فى هذه المنطقة ، ولماذا اختاروها
بالذات ؟ ذلك ما ستحاول الصفحات التالية الاجابة عنه ان شاء الله .



الدعوة الشيعية منذ البداية

وحتى قيام الدولة الفاطمية

يعتقد « الشيعة » أن « على بن أبى طالب » وذريته من بعده ، هم أصحاب الحق الشرعى فى حكم الدولة الاسلامية ، ويرون أن بنى أمية قد انتزعوا الخلافة من أصحاب الحق فيها ، ولذلك لم يعترفوا بحكمهم ، وولوا على أنفسهم أئمة من ذرية « على » ، وآمنوا أن الواجب يملى عليهم أن يعملوا جاهدين ليجمعوا لهؤلاء بين الخلافة التى تمثل السلطة الزمنية ، والامامة التى تمثل السلطة الدينية الروحية (١) .

ولذلك ظل للشيعة يعلنون الثورات على الأمويين ، فقابلها هؤلاء بالعنف والقسوة ، مما جعل مشاعر الناس تتجه الى الشيعة وتعطف عليهم ، ثم تمكن العباسيون من استغلال هذا الشعور لصالحهم ، ونجحوا فى تجميع الناس حول مبدأ « الرضى من آل محمد » وأقاموا دولتهم ، لكن تولية واحدا من ذرية العباس الخلافة ، أحنق العلويين ، ودفعهم الى القيام بثورات تمكن خصوصهم من القضاء عليها ، وكلما قام العلويون بثورة أخمدها العباسيون (٢) .

(١) عن الفروق بين الامامة والخلافة انظر :

الرئيس : النظريات السياسية الاسلامية من ص : ٩٥ الى ١٢٢
الطبعة الرابعة . دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٧

(٢) عن حركات العلويين ضد العباسيين انظر :

ابن خلدون : العبر ج ٤ من ص ٢ الى ٣٠

وفوق ذلك كان الضعف قد أصاب الشيعة أنفسهم ، فنتيجة انقسامهم الى فرق وطوائف متعددة وأدرك أحد أئمتهم وهو « اسماعيل ابن جعفر » أن حالتهم لا تمكنهم من مواجهة الحاكمين ، وأيقن أن الثورات العنيفة لن تمكنهم من تحقيق هدفهم في حكم الدولة الإسلامية ، لذلك « عمل على تكوين جماعة ذات طابع خاص في تفكيرها ونظامها الاجتماعي والديني والسياسي ، تلك الجماعة هي الطائفة الاسماعيلية »^(٣) التي نجحت في تأسيس الدولة الفاطمية .

وكانت تقوم على مبادئ من أهمها التسير والمبالغة في الثمويه ، والاعتماد على حجة يعهد اليه بأمر الدعوة وتنظيمها ، ونشر الدعاة في سائر جزائر الأرض . وقد اتخذ الامام الحجيج ، وأمرهم أن يتسموا باسم الامام « فمن أخذ العهد على مستجيب سمي له أحد أولئك الحجب والحجيج حتى يمضي الوهم اليه سيرا على صاحب الأمر »^(٤) .

وكان الدعاة في البلاد المختلفة يختلفون في ذكر الامام حتى لا ينكشف أمره ويقع في قبضة العباسيين^(٥) .

ومع ذلك فقد ظهر أمر هؤلاء الدعاة في عهد الخليفة « المأمون » العباسي وكان الامام الذي يدعون اليه هو « عبيد الله بن محمد ابن اسماعيل » فنتبعه العباسيون وفتكوا بأسرته ، واضطر هو للهرب الى « سلمية » من أعمال حمص بالشام ، ولم يبيح لاحد باسرار دعوته .

(٣) انظر : حسن ابراهيم : عبيد الله المهدى ص ٢١ .
(٤) انظر زهر المعاني ص ٥٤ من المنتخب في The rise of the
I'ationidd تحقيق الشيال القاهرة ١٩٤٨
(٥) انظر المقرئى : اتعاض الحنفى ص ٦٤ ، ٦٥ ، زهر
المعاني ص ٥٤

ومنذ ذلك الحين (و يرجح أنه سنة ٢٠٦ هـ) «وسلمية» هي مركز الدعوة الإسماعيلية ، ومنها يرسل الدعاة لبث الدعوة باسم الامام الذي كانوا يحرصون على اخفاء اسمه (٦) .

وقد راجحت الدعوة رواجاً عظيماً في عهد الامام « الحسين ابن أحمد » وانتشرت في اليمن على يد الداعية « ابن حوشب » وفي بلاد المغرب على يد الداعيين « الحلواني وأبى سفيان » (٧) .

وقد ذكر ابن خلدون « أن أصل ظهور الشيعة بافريقية كان على يد الحلواني وأبى سفيان ، وأن الذي أوفدهما « جعفر الصادق » وقال لهما « بالمغرب أرض بور ، فاذهبا وحرثاها حتى يجيء صاحب البذر ، فنزل أحدهما ببلد مراغة ، والآخر بسوق جمار ، وكلتاها من أرض كتامة ، فغشت هذه الدعوة في تلك النواحي » (٨) ، ويعنى ذلك أن ارسال هذين الداعيين الى المغرب كان بأمر الامام « جعفر الصادق » الذي توفي سنة ١٤٨ هـ لا بأمر « الحسين بن أحمد » .

والواقع أن « ابن حوشب » قد نجح في أقل من عامين في السيطرة على معظم بلاد اليمن فأضحت من أهم مستودعات الدعوة الإسماعيلية ، ولاحظ أئمة الشيعة اتفاق طبيعة بلاد المغرب الجغرافية مع بلاد اليمن ، فوق بعد المغرب عن مركز الخلافة العباسية ، الى جانب شعور أهلها بظلم للولاة لهم وتذمرهم منهم ، ووجود التشيع قريبا منهم في بلاد المغرب الأقصى .

لكل ذلك قرر الأئمة تكليف « ابن حوشب » — وكان بعد انتصاره في اليمن مسئولاً عن نشر الدعوة في عدة مناطق منها البلاد

(٦، ٧) انظر : عيون الاخبار للداعي ادراس في
The rise . p. 36 , 37.

(٨) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣١ ، وكذلك : المقرئى —
اتعاط الحنفا ص ٦٧ وهامشها ، الاستبصار لمجهول ص ٢٠٢ — ٢٠٦

المغربية^(٩) - ارسال الدعاة لتلك البلاد ، فأرسل اليها الحلواني وأبا سفيان ، وذلك واضح في أقوال كثير من المؤرخين^(١٠) .

ولعل سر نسبة ارسال الداعيين الى « جعفر الصادق » مرده رغبة الفاطميين في تجميع كل الشيعة حولهم وحول دولتهم ، اذ أن كل الشيعة معترف بإمامته .

والحقيقة أن ارسالهما كان حوالي سنة ٢٧٠ هـ ، وأن الذي بعث بهما هو « ابن حوشب » بأمر الامام وحجته ، اذ يستبعد انفراده وقيامه بالتصرف دون مشورتها وموافقتها^(١١) .

وقد التقت كل المراجع التاريخية على أن الداعي الذي خلف الحلواني وأبا سفيان عقب وفاتهما ، وعهد اليه بنشر الدعوة في بلاد المغرب هو : أبو عبد الله الشيعي أو الصنعاني أو المحتسب أو المشرقي ، ولسمه « الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي » من أهل صنعاء^(١٢) أو من أهل الكوفة^(١٣) .

(٩) انظر : المقرئ : المقفى الكبير ج ٤ لوحة ٢١١ مصور بدار الكتب .

(١٠) انظر : العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج ١٨ ورقة ١٥٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١ حوادث سنة ٢٩٦ هـ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٤ ، المقرئ : اتعاظ الحنفا : ص ٥٣ ، ٥٤ ، تاريخ أبي الفدا مجلد ٢ ص ٦٨ طبع القسطنطينية أربعة أجزاء في مجلد واحد سنة ١٢٨٦ هـ ، حسن ابراهيم : عبيد الله المهدي ص : ٧٤ وما بعدها .

(١١) انظر : حسن ابراهيم : عبيد الله المهدي ص ٧٥

(١٢) انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١ حوادث سنة ٢٩٦ هـ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٥

(١٣) انظر : المقرئ : اتعاظ الحنفا ص ٦٨ ، أبو الفدا : تاريخ أبي الفدا مجلد ٢ ص ٦٨ .

وكان قد سسم بوجود الامام « بسلمية » فاتصل به ، ورأى
الامام أهليته ونجابته ، فأرسله الى « ابن حوشب » وطلب منه أن يتتلمذ
على يديه ، وينظر الى مخارج أفعاله ويعمل بها ، ثم يذهب الى بلاد
المغرب لينشر الدعوة هناك (١٤) .

وقد مكث ذلك الداعية فترة عند « ابن حوشب » ، وصار من
كبار أصحابه ، ثم زوده بمال وأرسل به الى بلاد المغرب وقال له « ان
أرض كتامة من البربر قد حرثها الحلواني وأبو سفيان ، وقد ماتا ،
وليس لها غيرك ، فاذهب اليها ، فانها موطأة ممهدة لك » (١٥) .

وقد استجاب « الحسين » لما طلب اليه ، وأعد نفسه لتنفيذ
المهمة أنى عهد اليه القيام بها بعد عام قضاه مع « ابن حوشب » فخرج
الى « مكة » مع الحجاج اليميني ، وجعل يمشى بين الناس فى
الموسم ، ويظهر الورع والتقوى ، واتصل بالكتاميين الذين استجابوا
للحلواني وأبى سفيان ، وحدثهم باستفاضة عن فضائل « على
ابن أبى طالب » وآل بيت النبوة ، فأحبوه وأعجبوه به وقدروه .

وأثناء عودتهم الى بلادهم صحبهم الى مصر ، وأخذ يستفسر
منهم عن بلادهم واستعدادهم ومدى طاعتهم لحكامهم ، فأجابوه
بما سره وطمأنه ، ولما أراد « الحسين » مفارقتهم فى مصر ، رفضوا
فى شدة ، وأصرروا على اصطحابه الى ديارهم ، فقبل بعد تمنع
شديد ، والحاج فى الطلب ، وحرص أشد الحرص على اكتساب
احترامهم ، وحملهم على مهابته ، عن طريق الحديث عن آل البيت
وفضائلهم ، دون أن يطلعهم على حقيقته ومقصده .

(١٤) انظر : المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٥
ورقة ١٤٥ مخطوط بجامعة القاهرة ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة
٢٥ ، المقرئى اتعاض الحنفا ص ٦٨ ، ٦٩ ، ابن خلدون : الدبر
ج ٤ ص ٣٢ .

(١٥) المقرئى : اتعاض الحنفا ص ٧٤ ، ٧٥

وعندما وصل الركب أرض كتامة فى ربيع أول سنة ٢٨٨ هـ (١٧) تنازع الكتاميون عليه ، ففجأهم بسؤاله : أى موضوع عندكم يسمى فجج الأخيار ؟ فدهشوا لأنهم لم يذكروه فى حديثهم معه ، وأجابوه بأنه عند « بنى سكتان » فقال : اياه نقصد ثم نأثى كل قوم منكم فى موضعهم ونزورهم فى بيوتهم ، ولا أجعل لأحد حظا من نفسى دون أحد ان شاء الله ، وأرضى الجميع بذلك .

وقد أراد أن يعرف الكتاميون عنه معرفته للغيب والتنبؤ بالمستقبل ، حتى اذا حدثهم بعد ذلك عن المهدى ، وعن ظهوره فى هذه الأيام ، وعن انتصاره على أيديهم ، لا يجد صعوبة فى تصديق ما يقوله ، والا فقد عرف « بفجج الأخيار » وأنه موطن المنتشيعين من كتامة ، من « ابن حوشب » خلال العام الذى قضاه عنده للتعلم .

تلك رواية « ابن الرقيق » نقلها عنه النويرى وغيره ، بفضلها على غيرها من الروايات ، لأن ابن الرقيق مؤرخ افريقية الذى عاصر قيام الدولة الفاطمية ، وشهد — أو على الأقل — سمع عن قرب ، ما سبق دور النشأة من دعوة الشيعى ، ومن جهوده وجهود المستجيبين له حتى ثبتت دعائم تلك الدولة .

هذا ويمكننا أن نميز فى وجود الحسين « بكتامة » بين مراحل ثلاث :

١ — الحسين فى حماية بنى سكتان :

سار « الحسين » الداعية الشيعى الى جبل « ايكجان » (١٧)

(١٦) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٨ ، الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٩٠٨ م .

(١٧) جبل قرب قسنطينة فيه قبائل كتامة (هامش اتعاض الحنفا ص ٧٦ ، وهو فى منتصف الطريق بين طنجة وفاس ، وكانوا يطلقون عليه فى قديم الزمان Tazajjan) لأنه محل اجتماع الحجاج من الأندلس وشمال المغرب الأقصى (حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٨ والمراجع المبينة به) .

حيث يقع « فج الأخيار » موضع سكنى « بنى سكتان » وانتشر
الحجاج فى أرجاء بلادهم وأخذوا ينشرون خبره ، فتوافدت الجموع
اليه ، وحدثهم عن فضائل آل البيت ، ثم بدأ يفضى بما فى نفسه
شيئا فشيئا فقال : هذا فج الأخيار ، وما سسمى الابكم ، ولقد جاء
مى الآثار ، ان للمهدى هجرة تنبو عن الأوطان ، ينصره فيها الأخيار
من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان فانهم « كتامة »
وبخروجكم من هذا الفج يسمى « فج الأخيار » ثم قال للكتاميين :
لنا صاحب البذر الذى ذكر لكم الحلوانى وأبو سفيان ، فازدادت
محبتهم له (١٨) .

ولما ذاع خبره خشيه والى افريقية ، وأرسل اليه رسالة فيها
طابع التهديد والاعراء معا ، لكن « الحسين » لم يعبأ بها ، وأكد أنه
ليس الا رسولا لأمر قد حم وقرب .

وفى هذه المرحلة خشى بعض الكتاميين أن تزول السلطة من
أيديهم اذا نجح الشيعى فى قلب الوضع السياسى لصالحه ، ووجدوا
أن استعمال القوة والعنف لن يكون فى صالحهم ، ولذلك آثروا
اصطناع الحيلة ، فاتصلوا بواحد من بنى سكتان ، وأغروه ومنوه
بالرياسة عليهم اذا أخرج الحسين من بينهم ، لكنه رفض ، وتطور
الأمر الى حرب بين الفريقين ، ثم حقنا للدماء وعدهم ذلك الرجل بالعمل
على اخراج الحسين ، وجعل يحتج على آل بيته ويخوفهم عاقبة
بقائه عندهم .

٢ - الشيعى فى حمايته بنى عصمان :

أحسن « أبو عبيد الله المشرقى » بما يدور حوله ، كما شعر
بذلك « الحسن بن هارون » من أكابر كتامة ، فنقله عنده فى مدينة

(١٨) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١ ، ١١ حوادث سنة ٢٩٦ هـ ،
المقريزى اتعاط الحنفا ص ٧٧

تازوت ورحب به مع قومه، وقاسموه أموالهم، واجتمع إلى نصرته بجانب هؤلاء - كثير من فروع كتامة ، الشيء الذي أغاظ بنى سكتان وجعلهم يعملون على تآليب مناصريه عليه ، وقامت حروب كانت نتیجتها تجمع « بنى عصمان » ووقوفهم صفا واحدا مع الشيعة الداعية « الحسين بن أحمد » .

٣ - الحسين يباشر الحروب :

خرج الحسين للحرب ، وولى قيادة جيوشه « الحسن بن هارون » وتمكن من تجميع بنى عصمان حوله ، كما انضم إليه ، بلزمة ، وعجيسة وزواوة وجميع قبائل كتامة^(١٩) ، واشتد بهؤلاء ساعده ، وقوى بهم فى محاربة المعادين له .

ولما أصبح على هذه الحالة ، أخذ يوجه أعوانه للاغارة على القبائل وارهابها ، فتكتلت ضده مجموعة من القبائل ، وجاءه سبعمائة فارس وألف راجل من كتامة ، حثهم على القتال وشاركهم فيه ووعدهم النصر ، ثم دخل حربا مع أعدائه استولى منها على ما لا يحصى من المغانم ، ثم عاد إلى « تازوت » ونشر أصحابه فى مختلف النواحي فدخل الناس فى أمره طوعا أو كرها^(٢٠) .

وقد اتخذ المدينة السابقة عاصمة له ، وبنى قصره فيها ، كما بنى أصحابه مساكنهم حوله ، واشتد بأسه ، وزاد اقبال الناس عليه .

الحرب بين الحسين وجيوش الأغالية :

كان « أبو عبد الله » قد أتم فتح « ميلة »^(٢١) وآمن أهلها ما لم

(١٩) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٣ ، ٣٤

(٢٠) المقرئى : اتعاظ الحفّا ص : ٧٨ ، ابن الأثير : الكامل

(٢١) ميلة : مدينة بالمغرب قرب سطيف .

ج ٨ ص ١٢ حوادث سنة ٢٩٦ هـ .

يحدثوا حدثا ، لكن جماعة منهم فروا الى اللوالى الأغلبى واستنجدوا به ، وهونوا له أمر الحسين ، فجهز معهم اثني عشر ألف فارس ، أمر عليهم ابنه المعروف بأبى جوال (الأحول) ووزع عليهم الأموال ، وخرج الجميع من تونس سنة ٢٨٩ هـ ، فالتقوا بعسكر « الحسين » عند بلدة « بلزمة » ، واقتتل الفريقان قتالا شديدا انهزم فيه الشيعة ، وساعدت عوامل طبيعية على حرق مدينتهم « تازروت » وغيرها واضطرتهم للانتساب الى « ايكجان » ثم أتيح له أن يهزم عدوه فى لقاء آخر .

وبرغم هزيمة « الأحول » فقد استمر يناوش « الحسين » ويحول بينه وبين التقدم الى أن استدعاه « زيادة الله » وقتله — فيمن قتل من آل بيتته — فانتشرت جيوش الشيعة فى البلاد (٢٣) ، واتخذ « الحسين » لنفسه دار هجرة فى جبل « ايكجان » وأخذ يقول : المهدي ، يخرج فى هذه الأيام ويملك الأرض ، فيأطوبى لمن هاجر الى وأطاعنى (٢٤) وسمى اتباعه وأشياعه من كتامة بالمؤمنين (٢٥) .

زيادة الله يعد كل ما يمكنه لمحاربة الحسين :

وصلت أخبار نجاح الداعى المشرقى وفتوحاته فى البلاد الى اللوالى « زيادة الله » وخشى أن يقضى عليه ان لم يعمل على معالجته بالحرب ، فحشد الجند ، وزاد فى مرتباتهم ، وتجمع لديه أربعون ألف فارس وراجل ، ولى عليهم أحد أقاربه الذين لم يكونوا يعرفون الحرب ، وأمدهم بالسلاح والعدد والمال ، وسار الجيش حتى وصل

(٢٢) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٣٣ ، ٣٤

(٢٣) (٢٤ ، ٢٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٢ حوادث سنة ٢٩٦ هـ ،

ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٣٤ وما بعدها .

(٢٥) ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٦ طبع

الجزائر سنة ١٣٤٦ هـ .

مدينة « قسنطينة » حيث وصله مدد أصبح به الجيش مائة ألف ، وبقي قائد الأغالبة بالمدينة السابقة ومنطقتها ستة أشهر لا يتقدم الى عدوه ، ثم زحف اليه بعساكره كلها .

دخل الفريقان في معركة حاسمة ، واقتتلوا قتالا شديدا وانهزم فيه جند والى الأغالبة ، وغنم الشيعة وسبوا وقتلوا وعظم أمرهم ، وسقطت في أيديهم مدن كثيرة كان آخرها « الأريس »^(٢٦) مما اضطر جيش الأغالبة الى الانسحاب جهة « القيروان » .

أقام « الحسين » سنتين بعد ذلك يشن الغارات ، ويغنم الأموال حتى سيطر على كل شيء ، ولم يبق الا العاصمة « رقادة »^(٢٧) ومن فيها من الأمراء والقبائل .

سقوط العاصمة في يد الحسين الشيعي :

لما وصلت أخبار انتصارات أبي عبد الله الى « رقادة » اضطربت وماجت ، وأيقن « زيادة الله » أنه لا مقام له بعد انهزام جيشه ، فقد أعده بكل ما وسعته قدرته وزوده بكل ما يملك ، لذلك جمع كل ما أمكنه وفر هاربا الى مصر .

أما « الحسين » فقد زحف على العاصمة في ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل^(٢٨) ، ودخلها في رجب سنة ٢٩٦ هـ ، وآمن أهلها ، وفرق

(٢٦) انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٥ ، ١٦ حوادث سنة ٢٩٦ هـ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٥ ، ٣٦ والأريس قرية اهلة في الشمال العربي من الجمهورية التونسية بعمل الكاف ، وهي بالقرب من سبيته (حسن عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ٧٤ ، والمبلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٧٩) .

(٢٧) « رقادة » مدينة جنوب القيروان تبعد عنها ثمانية اسيال واطلال انقاضها لا تزال ظاهرة (حسن عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ٧١) .

(٢٨) ابن حماد : اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ص ٦ ، المبلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٧٩

دورها على « كتامة » وأمر بضرب السكة ، ونقش على وجه منها « بلغت حجة الله » ، وعلى الآخر « تفرق أعداء الله » ونقش على السلاح « عدة فى سبيل الله » وعلى أفخاذ الخيل « الملك لله » ، وكان رسم خاتمه « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا » وأمر الخطباء يوم الجمعة ، فصلوا على النبي ﷺ ، وعلى « على » « وفاطمة » دون أن يتحدد اسم الامام ، فقد كان « الحسين » حريصا على اخفائه حتى ذلك الحين (٢٩) .

تخليص المهدي وتولية الخلافة :

كان « الحسين » قد أرسل الى المهدي فى « سلمية » رجالا من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليه ويستقدمونه (٣٠) فاستجاب لذلك ، ووصل هو وابنه أبو القاسم الى « سجلماسة » بعد مخاطر تعرضا لها فى الطريق ، ثم سجنه صاحب المدينة المشار اليها ، تلبية لأمر الخليفة العباسى .

وكان أبو العباس — أخو الحسين الداعى — قد سحب المهدي فى رحلته ، وأمكنة الوصول الى « رقادة » حيث أخبر أخاه « الحسين » بما حدث للامام ، فجيش الجيوش ، وتوجه « بملء الأرض من الخيل والرجال الى سجلماسة سنة ٢٩٦ هـ » (٣١) فهز المغرب كله وأخافه .

بعد ذلك أرسل الى صاحب « سجلماسة » حتى لا يقتل الامام أو يؤذيه ، فرد عليه الوالى ردا عنيفا ، ثم وصل « الحسين » اليه وقتلته وأمكنه اخراج « المهدي وابنه » من محبسهما ، ومشى فى ركابهما ، وتوجه الجميع الى « رقادة » فوصلوها فى العشرين من

(٢٩) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٢٤ ص ٣٦

(٣٠) انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٣ حوادث سنة ٢٩٦ هـ

(٣١) انظر : ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٨

ربيع الأول سنة ٢٩٧ هـ (٣٢٢) ، ونزل المهدي في قصر من قصور تلك المدينة ، وتلقب « بالمهدي أمير المؤمنين » وخطب باسمه في الجمعة ، وضرب على السخنة ، وولى الولاية ، ودون الدواوين ، وجبى الأموال ، وتوفرت له جميع الأركان الضرورية اللازمة لقيام الدول من سفارات وعلاقات خارجية ومجتمع الخ (٣٢٣) .

ولعله قد انتصح للآن الأسس التي قامت عليها الدولة الفاطمية ، وما أسهمت به « كتامة » من جهود وتضحيات في سبيل إعلانها ورفع بنائها ، ولسنا مغالين إذا قلنا انه لولا « كتامة » ، ما سمع للفاطميين بدولة في افريقية وما قام لهم حكم هناك .

فالخناميون اذا هم جيش الدولة الفاطمية في هذه المرحلة من حياتها عليهم تمام حل العبد ، وتحملوا كل الجهود الحربية ، وبنحسهم للحسين وجهودهم معه ، نجح في مهمته ، وأقام للفاطميين دولة في المغرب الافريقي .

لكن لماذا نجح للفاطميين في إقامة دولتهم في بلاد المغرب ؟ وما العوامل التي ساعدتهم على النجاح وهيأته لهم ؟ لعل هذا السؤال يفرضه نفسه الآن في هذه المرحلة من البحث .

عوامل نجاح للفاطميين في بلاد المغرب :

كانت هناك عدة عوامل عدة يتصل بعضها بالخلافة العباسية ، وبعضها بالمنطقة التي قامت فيها تلك الدولة ، والاخر يرتبط بالتخليم الشيعي والدعوة الفاطمية ، وكلها تنسافت وساعدت على انتصار الفاطميين .

(٣٢) عن أخبار الحسين الشيعي منذ دخوله بلاد المغرب الى انقاذ المهدي من سجنه انظر : النوبري : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة من ٢٤ الى ٣١ (٣٣) عن مفهوم الدولة وأركانها ، انظر (الرئيس) - النظرات السياسية الإسلامية من ١٩ وما بعدها .

فقد استبد الأتراك بالحكم فى الدولة العباسية ، وسيطروا على كل شىء منذ أوائل العصر العباسى الثانى ، وحتى الخلفاء أنفسهم لم يكن لهم من الأمر شىء ، يتضح ذلك من قول بعض الخلفاء •

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممثعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شىء فى يديه (٣٤)

وهذا الضعف أفقد الخلافة والقائمين عليها المهابة والاحترام ، وساعد على قيام ثورات هددتها فى عاصمتها نفسها ، كما حدث فى ثورة الزنج • وقد شجعت تلك الحالة الولايات البعيدة والأطراف على الاستقلال عن الدولة ، « وانعدمت الأمانة عند موظفى الدولة على أموالها » (٣٥) •

كل هذا كان من شأنه أن يشغل حكومة « بغداد » ، وكانت فرصة استغلها العلويون لنشر دعوتهم فى مناطق مختلفة من الدولة شملت فارس واليمن والمغرب والعراق وغيرها •

وكانت للولايات التابعة للخلافة العباسية من الفوضى والضعف بصورة مكنت للمذهب الاسماعيلى أن يذيع وينشر •

فقد تمكن « ابن حوشب » من قهر العساكر الرسمية فى اليمن ، وإقام حولة تسيعية هناك ، وساء حكم الطولونيين فى مصر والشام للدرجة التى مكنت الفاطميين من اتخاذ « سلمية » مركزا لدعوتهم ، وساعدتهم على الاقلام من الولاة دون مشقة وو عناء •

(٣٤) الخليفة هو المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) وانظر : السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٥ القاهرة ١٣٥١ هـ •

(٣٥) الرئيس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٤٨٠ الطبعة الثانية - القاهرة سنة ١٩٦١ م ، وارجع اليه لمعرفة فساد الادارة فى الدولة العباسية ، وفساد السياسة فيها ، وتحكم الأتراك ، وقيام الاعراب بثورات عليها ، وتجرؤ العدو على مهاجمتها وتجرؤ تلك الامبراطورية من ص ٤٧٠ الى ٤٩٢

أما « افريقية » فقد مر بنا تصوير حالة السخط على حكم الأغالبة فيها ، وقد كان مناخها السياسى من أهم العوامل التى محتلت للدعوة الفاطمية ، وهىأت لها النجاح .

كما كان سوء الوضع الاقتصادى لتلك البلاد ، واثقال للولاة تاهل الأهالى بالخرائب المتعددة ، من الأسباب التى سهلت استئناق البربر لمذهب الخوارج ثم النسيعة ، ثم قيامهم بحركات ثورية ضد الولاة « لفرضهم خرائب فادحة ليست مما يفرضه الدين »^(١١) .

ويجب ألا نغفل الطبيعة البربرية للقبائل أنفسهم تلك الطبيعة التى نفوم على الشطط فى العيش ، ولاسراع الى السبف ادا ما آثار أحد نائريهم الى « أن يملك قلوبهم بحسن معاملته واحترامه »^(١٢) . زد على ذلك عشقهم للحرية ، وعامل الاندفاع الذى فطروا عليه ، وما انحوت عليه أخلاقهم من خشونة ، فكل ذلك جعلهم أساس قيادا « للحسين » الداعى الفاطمى ومقتة من اثارة حميتهم ، ووصل الى أغراضه بذلك وبحبهم لال على والمهدى^(١٣) .

وقد آثار ولاة العباسين هؤلاء البربر ، حين اعتبروهم من الناحية الاجتماعية جنسا متخلفا ولحققروهم ، وحملوهم فوق طاقتهم الشىء الذى جعلهم أكثر كرها لحكامهم وأكثر استجابة للحسين الشيعى « ولم يعد من الصعب أن يحرض البربر على محاربة الولاة الذين لا يمكن اعتبارهم الا متخلفين على أرض الوطن »^(١٤) .

ولابد أن نضع فى الاعتبار الطريقة التى نطمت بها الدعوة الفاطمية ، والسرية التامة والكتمان المحكم الذى ميزها .

(٣٦) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٥

(٣٧) انظر : دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ١ ص ٨٣

(٣٨ ، ٣٩) انظر : Nicholson : the establishment of the Fatimides Dynasty in Africa p. 26.

نقلا عن حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٤ ، ٤٥

لقد كانت شخصية الامام مجهولة حتى لكبار الدعاة أنفسهم
وكان الدعاة ببحار الدعوة في كل أقطار الأرض لا يتفقون في اسم
الامام وقد نظمت الدعوة على أساس أن يتفق اسم الامام مع اسم
حجته ، بل أن بعض الدعاة سموا جد « المهدي » ، « محمد بن اسماعيل
الامام » بالكتوم « لما اتفقوا عليه من اخفائه وحذروا من المتغلبين
عليه » (٤٠) .

كل هذا كان من شأنه أن يضل الخلفاء العباسيين وولاتهم
ويهيء للفاطميين وحججهم ودعاتهم ، فرص العمل في اطمئنان ، آمين
سطوة العباسيين الفارقين في مشاكلهم .

على أنا بعد ذلك لانسى شخصية الداعي أبي عبد الله الحسين
للشيعي ، وما امتاز به من حكمة ومقدرة وبراعة في الحديث والمجادلة ،
مكنته من أسر الناس ، وحتى من الدفاع عنه بأرواحهم ، ولقد وعد
— بحق — من رجالات التاريخ الأهمذاذ الذين تمكنوا بالحيلة والدهاء
ودون ما سبقتهم من مال أو رجال ، أن يقيموا وحدهم دولة عظيمة ،
شأنه في ذلك شأن « عبد الرحمن الداخل » .

يضاف لكل ما سبق بعد بلاد المغرب عن مركز الخلافة العباسية
في « بغداد » وتغلغل المذهب الخارجي في بعض نواحيها ، مما
جعل من السهل التحول عنه الى المذهب الشيعي .

الفصل الثاني

الجيش الفاطمي في إفريقيا

استمر الفاطميون يحكمون فى افريقية منذ تأسست دولتهم هناك سنة ٢٩٦ هـ الى أن انتقل خليفتهم الرابع - المعز لدين الله - الى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، وخلال السنين المذكورة تعرضت الدولة الفاطمية لثورات قامت ضدها وبلدان خلعت طاعتها ، وفى الوقت نفسه كانت حريصة على نشر جناحيها على كل البلاد الاسلامية : مصر وبلاد المشرق من ناحية ، والمغرب وما وراء المحيط من ناحية أخرى •

وكان الجيش الفاطمى عماد الفاطميين فى تنفيذ مخططاتهم ، فعليه عبء حماية للدولة وتثبيت مركزها ، كما كان عليه تحقيق الآمال الواسعة نحو حكم كل البلاد الاسلامية •

وهذا الفصل محاولة لشرح دور الجيش الفاطمى فى هذا الصدد ، وإبراز مهمته ، بصورة تمكنا من الوقوف على العناصر التى شاركت فى تكوينه ، والقبائل التى كونت وحداته ، كى يكون تصورنا له واضحا فى هذه المرحلة من حياته ، وحتى نستطيع متابعة تطوره فيما بعد • ومن الممكن أن يقسم دور الجيش الفاطمى فى افريقية الى موضوعين رئيسيين هما :

- (أ) دور الجيش الفاطمى فى اخماد الثورات •
- (ب) دور الجيش الفاطمى فى توسيع رقعة الدولة •

ونخص كلا من هذين الموضوعين بكلمة :

- (أ) دور الجيش الفاطمى فى اخماد الثورات •

الجيش يخمّد ثورات « سجلماسة وتيهرت » :

لقد كانت كل من « سجلماسة » ، « وتيهرت » أول من تمرد على الحكم الفاطمى ، ذلك لأن كليهما كان يتغلغل فيها المذهب الخارجى ، وتقوم فيها دول خارجية ، ولذلك لم يكن من السهل استسلام هؤلاء للشيعنة أعدائهم المذهبيين •

فلم يكد الوالى الفاطمى على « سجلماسة » يمضى بها خمسين يوما ، حتى ثار عليه أهل البلد وقتلوه هو ومن معه من الشيعة ، وكانوا نحو ألفى فارس من كتامة (١) .

وأرادت الخلافة الفاطمية القضاء على تلك الحركة والانتقام من الفائزين ، فكونت جيشا من جموع الكتامين والمكناسيين جعلت على قيادته « مصالة بن حبوس » ، وقد توجه الى تلك البلاد وحاصرها ودوخ أهلها ، وتمكن من اعادتها فاطمية تدين بدعوة المهدي (٢) .

وقد كان « مصالة » من أبرز القواد الفاطميين الذين بهم استتب الحكم الفاطمى فى بلاد المغرب الأوسط ، ولذلك يلزمنا تقديم تعريف به :

مصالة بن حبوس :

قائد فاطمى من قبيلة مكناسة ، تولى رئاسة هذه القبيلة فى النصف الثانى من المائة الثالثة للهجرة ، وتغلب على قبائل البربر الأخرى وعظم أمره .

ولما خضع المغرب للفاطميين ، خان مصالة من أكبر قوادهم ، وولاه الخليفة المهدي « تيهرت » والمغرب الأوسط ، وزحف على المغرب الأقصى سنة ٣٠٥هـ وأخضع للشيعة « فاس » و « سجلماسة » ثم عاد الى القيروان بعد أن ولى ابن عمه موسى بن أبى العافية على ضواحي المغرب وأمصاره ، وقد قتل حباسة بيد عدوه محمد بن خرز الزناتى سنة ٣١٢ هـ . ولما تم لابن عمه موسى اخضاع المغرب الأوسط والأقصى وملك « تلمسان » سنة ٣١٩ هـ — نقص دعوة الفاطميين وانحاز

(١) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) انظر : السلاوى : تاريخ المغرب الأقصى ج ١ ص ٥٥٦ ،

ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٣١ ، الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦٦ طبعة وزارة الثقافة بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م .

للأمويين بالأندلس ، فأرسلت له الخلافة الجيوش واستمرت فى محاربته حتى قتل فى بعض صحارى « قلوية » (٣) .

ولقد عادت سجالماسة الى التمرد ثانية فى عهد الخليفة « المعز لدين الله » (٣٤١ — ٣٦٥ هـ) فتصدت لها عساكر من صنهاجة وكتامة بقيادة « جوهى الصقلى » استطاعت ارجاعها فاطمية سنة ٣٤٧ هـ ، وقبضت على الثائرين ، وقتلت كثيرا من الصفرية الخوارج لحمايةهم لهم (٤) .

أما « تيهريت » فقد رفض سكانها من « زناتة » الخضوع للحكم الفاطمى منذ الأيام الأولى لنشأته ، فحاربوا واليها ، واضطروه للفرار ، وقتلوا حوالى ألف فارس من أصحابه ، واستكثروا من العدة والسلاح بهدف مناهضة الدولة الفاطمية فى تلك النواحي .

وقد أعد الخليفة « المهدي » (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ) للعساكر ، وحشد الجنود ، وطلب منها التوجه الى المدينة الثائرة ، فحاربتها ثلاثة أيام وحرقتها بالنار ، وقتلت من أهلها ثمانية آلاف رجل ، كما التقى جيش الفاطميين « بزنانة » فى مكان يسمى « فك الديك » ، وقتل عددا كبيرا وتمكن من إعادة فتح المدينة .

وبرغم من ذلك استمرت « زناتة » تتحدرش بالفاطميين ، وتعتدى على رجالهم كلما وانتها الفرص ، فأخرج « المهدي » جيشا جعل على رأسه « موسى بن محمد الكتامى » لتأديب تلك القبيلة ، فكان نصيبه الهزيمة أمامها وقوى ساعدها بانضمام قبيلة « لماية »

(٣) انظر : خير الدين الزركلى - الأعلام ج ٨ ص ١٢٨ ، ١٧٣ - والمراجع المبينة به .

(٤) انظر : ابن أبى زرع : الأتيس المطرب ج ١ ص ١٣٢ تحقيق محمد الهاشمى الفيلالى - الرباط ١٩٣٦ ، البكرى : المغرب ص ١٥٠ ، ١٥١ .

لها فى الثورة على الفاطميين ، وقامت وقائع بينهم وبين الجيوش
الفاطمية ، مكنت الثائرين من التغلب على منطقة الزاب كلها ،
والسيطرة على جميع أراضيها •

وازاء حالة السوء التى وصلت اليها الجيوش الفاطمية ، لم يجد
ال خليفة بدا من اعداد جند جديد من كتامة ومن انضم اليها ، وأخرج
عليه ولى عهده « أبا القاسم » ، وقد استطاعت الجيوش الجديدة
أن تفتح بلاد «مزاته ومطماطة وهوارة» ، وتستولى على قلاع الاباضية
والصفرية ، فى نواحي « ثيهرت » وما وراءها ، وتقضى على الثورة
فى تلك البلاد •

وهكذا وجدنا الخليفة الفاطمى يدخر ولى عهده الى وقت اشتداد
الأزمة ، ثم يدفع به الى الحرب على رأس الجنود المقاتلة ، كى تستمد
من وجوده معها زادا روحيا يدفعها الى التفانى فى الحرب حتى
الانتصار •

ولقد برز اسم أبى القاسم كقائد حربى فى كثير من المعارك
بالبلاد المغربية ويقضينا المقام أن نعرف به بصورة مركزة •

أبو القاسم محمد بن المهدي :

هو أبو القاسم محمد نزار بن الخليفة المهدي — خليفة الفاطميين
الأول — ويلقب بالقائم، ولد فى «سلمية» ببلاد الشام سنة ٢٧٧ أو سنة
٢٨٠ أو سنة ٢٨٢ هـ ، وقد صاحب والده عند رحيله من بلاد الشام
الى افريقية حيث بويع بخلافة المسلمين وأقام الخلافة الفاطمية •

وقد بايع الخليفة المهدي ابنه أبا القاسم بولاية العهد فى حياته ،
ولما توفى أبوه جددت له البيعة وأصبح الخليفة لفاطمى الثانى •

وقد ظهرت مواهبه الحربية وتولى قيادة الجيوش فى حياة أبيه ،

فكان على رأس الحملة الفاطمية الأولى لفتح مصر سنة ٣٠١ هـ ،
كما تولى الحملة الثانية سنة ٣٠٧ هـ وقد فشلت كلتا الحملتين
كما سيأتى .

وقد نجح القائم فى مهمة أوكلها الخليفة اليه سنة ٣١٥ هـ حيث
أرسله الى بلاد المغرب لتأديب عدوة الفاطميين « زنانة » وغيرها
من المخالفين . وقد أمكنه إخضاع « زناته وهوارة ولساية وكواية » ،
ولنتهى الى « برقة وثيهرت » كما أدب الصفرية والأباضية ثم عاد الى
المهدية^(٥) .

وكانت البدلية العسكرية لحركة أبى يزيد زمن خلافة القائم
(٣٢٢ — ٣٣٤ هـ) ، وبلغت ذروتها على أيامه ، ومات الخليفة وجيش
الثائر محاصر له سنة ٣٣٤ هـ ، فتولى بعده ابنه المنصور (٣٣٤ —
٣٤١ هـ) وأخفى نبأ وفاته ، ورسم الخطط لحرب عدوه حتى استطاع
هزيمته وأسرهم كما سيأتى^(٦) .

هذا وبرغم هزيمة « زنانة » — بفضل جهود ذلك القائد —
فقد استمرت تثير القلاقل أمام حكم الفاطميين ، وتسبب المتاعب له
أيام حكم المهدي والقائم والمنصور ، ولم تستطع الجيوش الفاطمية
وضع حد لثوراتهم بصورة قاطعة ، الشيء الذى اضطر الخلافة الفاطمية
الى ترك الحرب الظاهرة ، واللجوء الى تفريق كلمة تلك القبيلة باعتبار
ذلك الوسيلة المثلى للتخلص منها .

وكانت « زنانة » تنقسم الى فرعين كبيرين هما مضراوة تحت

(٥) انظر : النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٣٦ ، ابن عذارى :
البيان المغرب ج ١ ص ١٩٧ ، ١٩٩ .

(٦) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١١١
ترجمة ٦٥٧ .

تحقيق محمد محيى الدين عبد المجيد — أربعة أجزاء — القاهرة ١٩٤٨

رئاسة آل الخزر ، « وبنو يفرن » وكلاهما كان ينازع الآخر السلطة ، وينتمى الى سلطة خارجية يعتز ويستتصر بها .

وقد نجح الخليفة « المنصور » فى استمالة « مضراوة » وأحسن اليها ، وجعل لها حكم هذه المنطقة من بلاد المغرب باسم الفاطميين ، وكرد فعل لذلك انجاز « بنويفرن » للخليفة الأندلسى « الناصر » وخطبوا باسمه من « طنجة » الى « تيهرت » .

وقد أراد الخليفة « المعز » أن يقضى على جميع المعارضين لحكمه فى بلاد المغرب ، فجهز قائده « جوهر » سنة ٣٤٧ هـ لتحقيق ذلك الهدف ، وأمر ولاية الجهات بامداداه بالرجال المحاربة .

وقد التقى جمع « جوهر » ببنى يفرن قرب تيهرت ، واستطاع أن يقتل رئيسهم فى المعركة ، وأن يهزم جنده هزيمة ساحقة ، وبعد ذلك خرج الخليفة بنفسه وقضى على بقايا الثوار فى تلك المنطقة ، ولم يأت عام ٣٥٩ هـ حتى كانت البلاد قد ظهرت تماما من كل المناوئين ، وأصبح حكمها خالصا للفاطميين .

وهكذا كانت « زنانة » أولى القبائل التى أعلنت العداء والحرب على الفاطميين ، وكلفت الجيش كثيرا من الجهد حتى اضطرها الى الخضوع للحكم الفاطمى (٧) .

(٧) عن ثورات « تيهرت » ضد الفاطميين ، ودر الجيش الفاطمى فى القضاء عليها ، انظر : ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب ج ١ صفحات : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٥ ، حوادث سنة ٣٥٨ هـ ، الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ج ٢ ص ٨٣ وما بعدها ، عثمان الكعاك : موجز التاريخ العام للجزائر ص ٢٣٩ ، ٢٤٨ وما بعدها ، طبع تونس سنة ١٣٤٤ هـ .

الجيش الفاطمي يتصدى لثورة كتامة :

تعرضت الدولة الفاطمية لثورة أخرى قامت ضدها أيام الخليفة « المهدي » وتعتبر تلك للثورة ذات طابع خاص في حياة الدولة والجيش الفاطمي .

مفضل قبيلة « كتامة » ومعاونتها قامت للفاطميين دولة في بلاد المغرب ، وكانت هي الجيش الفاطمي الذي حارب أعداء الفاطميين وثبت أقدامهم في البلاد ، لكن تلك القبيلة ما لبثت أن أعلنت الحرب على الخليفة الفاطمي ، وشهرت السيوف ضده .

وكان سبب ذلك أن « المهدي » قتل الداعية أبا عبد الله الحسين الشيعي ، الذي عرفهم بالمذهب الفاطمي ، ونشره فيهم ، بحجة أنه يستعدي الناس على الخليفة ، ويشككهم في شخصه ، ويدبر لمقتله .

وقد قامت فتنة في البلاد بسبب قتل ذلك الداعية ، ورفع الناس السيوف وأظهروا العصيان ، وأراد « المهدي » تسكين الناس ، فأعد جيشا من أصحابه خرج هو على رأسه ، وتتبع الثوار وقتل جماعة منهم ، فازدادت الفيران اشتعالا وتجددت ثوراتهم في « القيروان » وقتل كثيرون ، فخرج « المهدي » بنفسه مرة ثانية ليؤمن الشعب الثائر . وكأنه أحس بأن العامة لا تستسيغ التشيع ، فطلب من الدعاة ألا يطلبوا التشيع منهم ، لكن ذلك كله لم يجد ، فقد رجعت « كتامة » إلى بلادها ، وأقاموا بينهم طفلا زعموا أنه المهدي ، وأنه يوحى إليه ، وأن الحسين الشيعي حي لم يموت ، ثم زحفوا إلى « ميله » فجهز الخليفة جيشا جديدا جعل على قيادته ولي عهده « أبا القاسم » ، فحاصر الثائرين حتى هزمهم ، وقضى على كثير منهم ، وقتل الطفل الذي أقاموه (٨) .

(٨) انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨ ، ١٩ حوادث سنة ٢٩٦ هـ ، المقرئى اتعاط الحنفا ص ٩٧ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٣٥ .

وبذلك تمكن الجيش الفاطمي من اخماد تلك الثورة والقضاء عليها *

الجيش الفاطمي يقضى على ثورتين فى طرابلس والقيروان :

تمكن الجيش الفاطمي من اخماد ثورتين ، قامت احدهما فى القيروان ، والاخرى فى « طرابلس » ، وكان دافع هاتين الثورتين مختلفا عن أسباب حركات التمرد السابقة ، وكان نشوبهما أساسا بسبب « كتامة » *

ذلك أن تلك القبيلة ، قد شعرت بفضلها على « المهدي » فأخذت تدل عليه ، وتطالب منه أن يطلق يدها فى نهب « القيروان » وتطاولت على الناس وأذنتهم ، واعتدت على حواشيئهم ، وتجمع أفرادها ونهبوا وشهروا السلاح فى وجوه الرعية ، الشيء الذى دفع الناس الى الصياح وطلب النفير حتى قتلوا ألف رجل من الكتامين ، حينئذ لحق الباقون منهم ببلادهم ، وأعلنوا غضبهم وثورتهم على الخليفة الفاطمي ، وولوا على أنفسهم غلاما زعموا أنه « المهدي المنتظر » ، وتمكنوا من السيطرة على مدن الزاب كلها *

وقد اهتمت الخلافة الفاطمية بأمر هؤلاء ، وأخرجت لهم جيوشا متعددة ، كان آخرها بقيادة ولى العهد « أبى القاسم » ، وكانت له معهم معارك حامية اضطروا بعدها لطلب الأمان ، فأمنهم القائد ، ورجع بهم الى « رقادة » حيث طيف بكبرائهم فى القيروان^(٩) ، ثم قتلوا بمدينة رقادة بعد ذلك^(١٠) .

(٩) انظر : ابن أبى الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ج ١ ص ١٢٢ تونس سنة ١٩٦٣ م ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٩ .

(١٠) لمعرفة تاريخ انشاء القيروان وأهمية موقعها ارجع الى : العدوى « المسلمون والجرمان » من ص ٧٣ - ٧٨ القاهرة ١٩٦٠ م .

وكما كان استبداد للكتاميين وغطرستهم ، سببا فى ثورة القيوان ،
كان السبب نفسه وراء تمرد أهل طرابلس على الحكم الفاطمى •

فقد ولت الخلافة الفاطمية بعض الكتاميين على تلك الناحية ،
فاستبد بها ، وبسط أيدي أقاربه على الناس ، واعتدى على حرماهم ،
مما جعل أهل « طرابلس » يتذمرون ويغضبون ، وطردوا عامل المدينة
منها ، وأخذوا يقتلون كل من صادفهم من الكتاميين •

وقد أعد الخليفة « المهدي » جيشا ، وأرجع والى المدينة مع
الجنود ، فحاربها شهورا دون أن ينجح فى فتحها ، فجهز الخليفة
أسطولاً بحريا من خمسة عشر مركبا حربيا ، وجيشا بريا يقوده
« أبو القاسم » ولى العهد •

أما الأسطول فقد استطاعت مراكب الثائرين فى طرابلس أن
تحرقه وأن تقتل من فيه •

أما جيش « أبى القاسم » فقد نزل على « طرابلس » وحاصرها ،
وضيق على أهلها ، حتى لم يجدوا بدا من طلب الأمان ، فأمنهم للقائد
عدا ثلاثة نفر شرط ألا يدخلوا فى الأمان ، وكان مصيرهم القتل (١١)
ثم غرم أهل البلد ما تكلفته الحملة من أموال بلغ مقدارها ٣٤٠ ألف
دينار ، ثم رحل عن المدينة بعد أن أخذ بعض وجوه أهلها كرهائن
معه (١٢) •

(١١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ،
أحمد الأنصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ص ٩٧
بيروت سنة ١٩٦٠ م •

(١٢) انظر : النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٣٥ ،
ابن أبى دينار : المونس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٥٣ ، ٥٤ •

الجيش الفاطمي يحارب هواره ونفوسة :

كانت الطبيعة البربرية فى « زنانة » وراء ثورتها ضد الفاطميين ، وقد نجح الجيش الفاطمى فى وضع حد لحركاتها ، وحملها على الخضوع للحكم الفاطمى ، وكان الدافع نفسه حاملا لكل من هواره ونفوسة فى الخروج على الخلافة الفاطمية .

فقد أعلنت « هواره » فى طرابلس العصيان على الخليفة الفاطمى واستقبلت بعض المتمردين من «لماية وزنانة » وغيرهما ، وقاموا جميعا بحصار المدينة المذكورة .

وأراد الخليفة المهدي مواجهة الثوار ، فأخرج جنودا كثيرة ، وهيا عساكر عدة ، استطاعت أن تلتقى بجموع أعداء الفاطميين ، وأن تهزمها وتقتل الكثير منها ، كما طاردت الباقين وشردتهم ، وأرسلت رموس القتلى الى « رقادة » فنصبت بها .

وكما تمردت « هواره » ، أعلنت « نفوسة » كذلك العصيان على الفاطميين وعظمت حركتها واشتد بأسها ، فعهد الخليفة المهدي الى قائده « على بن سليمان الداعى » أن يتوجه اليها فى جموع غفيرة ، لكن الثائرين هجأوه وقتلوا كثيرين من أصحابه وحملوا الباقين على الفرار منهزمين .

بيد أن الخلافة الفاطمية لم تكن ترضى لجندها الا الصمود فى ميدان القتال حتى النصر أو الموت ، وترفض منهم أن يفروا من المعركة ، لذلك أمر الخليفة عامله على مدينة « قابس » بقتل كل من مر بها من الفارين المنهزمين ، وأمد قائده بجيوش كثيرة ومدد جديد ، تمكن به من محاربة « نفوسة » فى عزم وقوة ، وأمكنه أخيرا الانتصار عليها ، وقتل رجالها ، وسبى ذريتها ، ثم دخل حصنها وهدمه (١٣) .

(١٣) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

والى جانب الثورات السابقة ، قامت ضد الفاطميين حركات عصيان أخرى فى مناح متفرقة من الدولة ، وفى عهود الخلفاء : المهدي ، والقائم ، والمنصور ، والمعز ، وقد أمكن الجيش الفاطمى فى كل مرة أن يعيد للأمن ويردع الثائرين ، ويرجع الى المناطق المضطربة هدوءها (١٤) .

جيش الفاطميين يقضى على ثورة أبى يزيد :

كانت ثورة « أبى يزيد مخلد » أخطر الثورات ضد الفاطميين ، فقد هزت العرش الفاطمى وعرضته للسقوط ، واقتطعت منه حل البلاد — عدا العاصمة — وتركته فى حالة اضطراب وفوضى مدة قاربت أربع سنين .

ومع أنها كلفت الجيش الفاطمى كثيرا من الجهد ، وكلفت الخزانة كثيرا من المال ، إلا أن العسكر الفاطمى قد استنطاع فى النهاية أن ينتصر عليها وأن يقضى على القائمين بها .

وتعتبر هذه الثورة امتدادا لتمرّد « زنانة » على الحكم الفاطمى ، ورغبتها القضاء على الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب (١٥) ، فالثائر هو « أبو زيد مخلد بن كنداد » من بنى جعفر من أجانا الذى تتسب

(١٤) عن هذه الثورات انظر :

أحمد الأصبary : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس العرب ص ٩٨ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٩٨ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٣٥ ، ج ٢٢ ورقة ٤٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢١٦ ، الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ج ٢ ص ٨٣ وما بعدها .

(١٥) انظر : سرور — مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٨ القاهرة سنة ١٩٦٠ .

اليه قبيلة « زنانة » ، وقد نشأ « بتقيوس أو بتوزر » (١٦) ، ولما شب
وجبر خالط جماعة من الأبازيين الكبار ، ودرس مذهبهم ، وأجاد الجدل فيه ،
ثم أخذ يعلم الصبيان القرآن ، وينشر مبادئ مذهبه فيهم .

وقد كان قولم ذلك المذهب تكفير أهل الملة واستباحة أموالهم
ودمائهم والخروج على الحاكمين .

وقد نجح « أبو يزيد » فى أن يكون له جماعة تعظمه أيام
« المهدي » ، واعد أصحابه للثورة ضد الحكم الفاطمى ، ومع ذلك فلم
يكن أصحابه من القوة بحيث يعتمد عليهم فى مواجهة الجيش الفاطمى ،
ولذلك رحل الى جبل « أوراس » حيث كان يقيم « بنو كملان » من
هواره ، وقد كان هؤلاء على اتفاق معه فى المذهب الدينى ، فعول عليهم ،
وقويت شوكتهم بهم ، وأظهر الزهد والتقشف ، ولبس الخشن أول أمره ،
ثم تخطى عن ذلك واستباح دماء المخالفين ونساءهم (١٧) .

إعلان الثورة :

كان التأثير فى البداية حريصا على أن يهيئ النفوس للثورة
ويعددها للعصيان دون أن يجهر بحركته ، ويظهرها للفاطميين حتى
لا يقضى عليها الحاكمون فى مهدها ، ويحكمون عليها بالفشل قبل أن
يتوفر السند الحامى لها ، ولما شعر بقوته وضمن كثرة أتباعه فى
عهد العليفة القائم ، أخذ يكشف عن نفسه ويبين عن حقيقة مقصده ،
فى صورة لفساد المدن وتحريقها ، حتى خرب كثيرا من المدن الإفريقية ،

(١٦) انظر : المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٩ ، العيى : عقد
الجمان : ج ١٥ ص ٢٤ ، تاريخ أبى الفدا مجلد ٢ ص ٩٧ .
وتوزر : مدينة فى أقصى إفريقية من نواحي الزاب الكبير ، وتقيوس
قرية منها .

(١٧) ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ١٨
وما بعدها .

وقتل عددا كبيرا من أهلها ، وزاد أمره ظهورا واشتدادا سنة ٣٣٢ هـ ،
فدخل الى القيروان ، ودعا الى مجاهدة الشيعة •

موقف الخلافة منه :

كل ذلك والخليفة الفاطمي يستهين بأمر الثائر ، ولا يكلف نفسه
اعداد الجيوش ورسم الخطط الحربية لمناهضته ، مما دفع « أبا يزيد »
الى التماذى فى العصيان ومحاصرة بلدان القائم ، حتى تم له فتح
باغاية ، وقسطيلة وتبسة ومجانة ومرمجنة وسبيته^(١٨) ، ثم الاريس
أخيرا . ولما وصلت المسألة الى هذا الحد فى افريقية ، وسمع بها
أهل المهدية ، هرعوا الى الخليفة وعظموا ذلك لديه وقالوا له :
« ان الاريس باب افريقية ولما أخذت زللت دولة بنى الأغلب »
فقال : « لابد أن يبلغ أبو زيد المصلى وهو أقصى غايته » يقصد أن
لديه علما سابقا ومعرفة متوارثة عن الكتب والآباء بالمدى الذى سيصل
اليه ذلك للثائر ، وأنه سوف يحاصر المهدية ويكون على رمية سهم
منها ولا يتجاوز ذلك •

بدء الحركات الحربية ضد الثورة :

ومع ذلك فقد أعد « القائم » الجيوش ، وهيا العساكر ، وعهد
اليها بمهمة ضبط البلاد ، وإعادة السكينة اليها ، فذهب جيش الى
« رقادة » وآخر الى « القيروان » وثالث الى « باجة » بقيادة
« الفتى بشرى » ، كما كان على بقية الجيوش « ميسورا للفتى » •

وقد التقى جيش « بشرى » مع جموع الثائرين فى « باجة » ،
وأمكنه انتزاع النصر لصالح الفاطميين ، ولم يبق مع الثائرين سوى

(١٨) قسطيلة : مدينة كبيرة من ارض الزاب ، تبسة : مدينة أثرية
قريبة من القيروان ، ومجانة قريبة منها كذلك ، مرمجته : مدينة قريبة
من جبل الاوراس ، سبيته ، ناحية بافريقيا من أعمال القيروان •

أربعمئة جندى استطاع بهم أن يأتى الجيش الفاطمى من الخلف ، وبصورة لم تخطر لهم على بال ، فارتبكوا وقتل منهم كثير ، وانسحب الباقيون ، ففوى شأن أبى يزيد مرة أخرى ، وهابته القبائل ودخلت فى طاعته وقدمت له آلات الحرب والقتال .

وهنا نجد الخلافة الفاطمية ، تلجأ الى وسيلة جديدة تكسب بها ود الرجال ، فقد أغرق القائد « بشرى » الناس بالعطايا ، وأمدهم بالأموال ، وجهزهم بالمعدات ، ثم دخل بهم فى معارك مع عدوه كانت نتيجةها انبصار الجيوش الفاطمية ، وقتل من أصحاب أبى يزيد أربعة آلاف ، وأسر خمسمائة أرسل بهم الى « المهديّة » مصفدين فى السلاسل فقتلهم العامة هناك (١٩) .

نكسة للجيش الفاطمى :

لم ييأس الثائر من انهزام جنده ، وإنما جد فى جمع الرجال واعداد العساكر ، حتى تم له مائة ألف من البوهر ، زحف بهم نحو « القيروان » وهزه الكتامين بالقرب منها ، وطاردهم حتى « رقادة » حيث نزل بالجهة الشرقية منها ، وأرسل سراياه وجنوده ، تنهب وتقتل ، وترتكب الأعمال الشنيعة ، والوالى الفاطمى على تلك المدينة يرهبه ويخشى بأسه ، ويؤثر انتظار العساكر الفاطمية بزعامه « الفتى ميسور » .

وأخيرا وصلت الجيوش الفاطمية ، وبينها من يعمل لصالح عدوها ، ويمثل « طابورا خامسا » عليها ، فقد كان من مع « ميسور » من « بنى كملان » من يكاتب « أبى يزيد » ، وتم الاتفاق بينهم على تسليم القائد « ميسور » الى الثائر وتمكينه من هزيمته ، لكن الخليفة الفاطمى كان حذرا ، وعرف بذلك عن طريق دسائسه ، وأرسل الى قائد جيشه

(١٩) : ابن أبى دينار : المونس ص ٥٥ .

يعلمه بذلك ، ويأمره بطرد « بنى كملان » ، ومع ذلك فلم يجد ذلك
التصرف شبيهاً ، فقد للتقى الفريقان ، وتحامل « بنو كملان » على
القائد الفاطمي حتى قتلوه ، وطيف برأسه في « القيروان » ، وانهزم
العسكر بانهزامه ، وانتشر البربر يقتلون وينهبون في البلاد .

الجيش الفاطمي يحصن « المهدية » ويستعد فيها :

عندما عرف الناس في « المهدية » بنكبة جيش « ميسور » ، خافوا
وهجروا أرباض المدينة ، واحتموا بسورها ، إذ أن الكرة القادمة
ستكون عليهم ، لكن الخليفة طمأنهم ووعدهم الانتصار ، واتخذ من
الوسائل ما يمكنه من هزيمة عدوه ، فأمر الرجال بحفر الخنادق حول
« المهدية » وكتب إلى القبائل وإلى سادات « كتامة » وإلى « زيري
ابن مناد » سيد « صنهاجة » يحثهم على المجيء إليه لمقاتلة الثوار ،
فاستجاب له كل هؤلاء ، واستعدوا للمسير إليه .

وهنا نجد تطورا في العناصر التي تكون الجيش الفاطمي ،
فلأول مرة يتجه الخليفة إلى قبيلة « صنهاجة » ويطلب منها أن تتخرط
في سلك جيشه وأن تنضم إلى الأجناس التي تحمي وجود الدولة
الفاطمية .

وسيكون وجود هذه القبيلة من أكبر عوامل انتصار العسكر
الفاطمي فيما بعد ، وستبذل مجهودا كبيرا وناجحا في تدعيم أركان
الحكم الفاطمي في بلاد المغرب ، ونشر الأمن في جوانبه .

حصار « المهدية » :

ومهما يكن من أمر ، فقد توجه « أبو يزيد » إلى « المهدية »
ونزل على خمسة عشر ميلا منها ، واستعد لمواجهة الصنهاجيين
والكتاميين ، ثم التقى مع عسكر القائم بالقرب من المهدية وعلى بعد

سنة أميال منها^(٢٠) وأمكنه أن يهزم الكتاميين ، وأن يسير في أثرهم حتى أشرف على المهدية نفسها ، ثم عاد إلى معسكره ، وقسم جنده إلى فرق هاجم بها العاصمة الفاطمية ثانية ووقف على خندقها وقائلك للعبيد عليها ، وهزمهم ، ووصل إلى باب « المهدية » ولم يعد بينه وبينها سوى رمية سهم .

بيد أن الكتاميين على الجانب الآخر من المدينة لم استطاعوا قتل كثير من البربر من أصحاب « أبي يزيد » وفي الوقت نفسه وصلت جموع من « صنهاجة » إلى مكان المعركة ، الشيء الذي قويت به نفوس العساكر الفاطمية ، واشتد بأسها في القتال ، حتى حملت عدوها على التراجع حيث حفر خندقا على عسكره واجتمع إليه الكثير من طرابلس وقابس ، والبربر من نفوسة والزاب وأقصى المغرب^(٢١) .

الجيش الفاطمي يحمل « أبا يزيد » على رفع الحصار :

استمر أصحاب « الثائر » ينهبون ويفسدون ، حتى إذا فنى كل شيء ، ولم يبق ما ينهب ، توقف البربر عن المجيء إليه ، ولم يبق معه سوى أهل « أوراس وبنى كملان » ، مما يدل على أن أصحابه لم يكونوا يقاتلون دفاعا عن مبدأ يعتقدونه بقدر ما كانوا حريصين على المسلب واستنزاف المسال بدون مجهود .

وقد كان تخلي أصحاب الثائر عنه نقطة البداية في نهايته ، بعد أن وصل إلى الذورة في أرباب وتخويف الفاطميين ، يضاف لذلك أن بعض أصحاب الثائر هرب إلى المهدية ، وحاربوا في صف القائم ، وكشفوا عوار « أبي يزيد » .

(٢٠) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ١١٣

(٢١) ابن أبي دينار : المونس ص ٥٧

ولذلك ما كاد يهاجم المهدية حتى تصدى له مائتا فارس من كتامة ،
وحملوا عليه حملة رجل واحد ، فقتلوا وأسروا كثيرا من أصحابه ،
وانفض جنده من حوله ، ولم يبق معه سوى هواره وبنى كملان •

وقد تجمعت عوامل النحس على أبي يزيد ، فقد تركه الباقون
من أصحابه وعادوا الى القيروان وكانوا نحو ثلاثين رجلا هم كل من بقى
من أصحابه ، وخرجت الجنود الفاطمية الى معسكراته تستولى على
المغانم والأطعمة ، فتحسننت حالهم بذلك •

وهكذا نجح الجيش الفاطمي في تخليص الخلافة الفاطمية من
شر مستطير ، ضيق عليها في عاصمتها ، وكاد يقضى عليها ، لكن مهمة
الجيش لم تنته عند ذلك الحد ، وإنما كان عليه أن يقوم بمجبودات
أخرى حتى يخلص البلاد تماما من شر ذلك التأثير عليها •

الجيش الفاطمي يحارب التأثير في أفريقية وتونس :

استطاع «أبو يزيد» بعد هزيمته أن يكون لنفسه أعوانا وجندا
جددا في القيروان ، وكان رجاله من البربر ، يشيعون الفوضى والنهب
ارضاء لرغبة في نفوسهم . ولذلك أرسلهم في نواحي « تونس » وأمرهم
بالقتل والنهب والتخريب ، فارتكبوا من السبى والارهاب ما لا يوصف
كما ارتكبوا جرائم أخلاقية •

وقد تصدى لهم جيش الفاطميين ، ودخل معهم في معارك عدة ،
انتهصر في بعضها وهزم في الأخرى ، ثم جد « أبو يزيد » في جمع
العساكر حتى اكتمل له سبعة وثمانون ألفا من البربر ، حاصره بهم
مدينة « سوسة » حصارا شديدا ، ونصب عليها الدبابات والمنجنقات
وقتل كثيرا من أهلها ، ومع ذلك فقد نجح الجيش الفاطمي في الدفاع
عنها ، ومنع أهلها التأثير منها لشدتهم وبأسهم ، وتغنى بذلك
شاعرهم فقال :

ان الخوارج صدها عن سوسة منا طعن السمر والاقدام
وجلاد أسياف تطاير بينها فى النقع دون الحصنات سهام

ثم توفى « القائم » والمدينة محاصرة فى رمضان سنة ٣٣٤ هـ
وتولى المنصور الخلافة وأعفى موت أبيه خوفا من الناصر وقضى عيد
اللفطر وهو فى جهاد مع غدوه (٢٢) .

الجيش الفاطمى يدخل مرحلة جديدة بتولية المنصور :

يمثل تولى « المنصور » الخلافة مرحلة هامة نحو القضاء الحاسم
على تلك الثورة ، اذ أننا سنصادف عزما أكيدا ، وتصميما قويا على
وضع حد لتلك الحركة مهما كلفه ذلك من ثمن وتضحيات ، ولذلك عمل
مراكب عدة ، شحنها بالمقاتلة ، وبعث بها الى « سوسة » (٢٣) وولى
القيادة عليها « رشيق الكاتب ويعقوب بن اسحاق » ، ثم سار بنفسه
ليشارك فى القتال ، غير أن أصحابه تضرعوا اليه ألا يخطر بنفسه ،
فاستجاب لهم ، وأرسل الى قائديه يأذن لهما فى الحرب ويطلب منهما
الجد فيه ، فدخل هؤلاء مع أصحاب أبى يزيد فى معركة هائلة ،
وأضرمو النار فى حطب كان قد جمعه ، فى دبابته ، فخاف الناصر
وظن أن أعوانه قد هلكوا جميعا ، والا ما تمكن غدوهم من احراق
الحطب وتعذرت الرؤية بسبب الدخان والظلام ، وتمكن جيش
« المنصور » من اعمال السيف فى عدوه ، وحرق خيامه ، وشرده ،
وفى « أبو يزيد » حيث لمستقر به المقام فى ناحية « سبيته » على
مسافة يومين من القيروان .

« المنصور » يقاتل بنفسه مع الجيش ويرسم خطه :

وصله الخليفة الفاطمى أخبار انتصار جيشه ، فانتقل الى مدينة
« سوسة » (٢٣) وأرسل منها يطمئن أهل « القيروان » ، وبعدهم خيرا ،

(٢٢) ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٢٢ .

(٢٣) سوسة : الصحيح انها مدينة صغيرة بافريقية .

ثم رحل الى تلك المدينة ، وكان « أبو يزيد » قد استطاع أن يجمع له أنصارا ، ونجح في اعداد كمين هزم جندا للفاطميين ، فسارع الناس اليه ، وكثر جمعه ثانية ، وقسم رجاله الى ثلاث فرق ، وقصد المنصور — وكان في خندق على رأس فرقة فيها كبار الشجعان من أصحابه — ودار قتال انتصر فيه الخليفة الفاطمي ، ولما عاد « أبو يزيد » الى « المنصور » مرة ثانية ، باشر الخليفة للقتال بنفسه كذلك ، وجعل المظلة على رأسه ، وحارب في خمسمائة وثلاثين ألفا تمكنوا من رده الى خندقه في عشرين فارس فقط .

ومع ذلك فقد ثبت المنصور في مكانه ، وشهر سيفه وحمل على عدوه وقتل كثيرين منهم ، وشاهد الناس من شجاعته ما لم يظنوه ، وزادت مهابته في نفوسهم ، ثم رحل « أبو يزيد » الى المقيروان ، وكون لنفسه جيشا عاد به ثانية ودخل مع الجيش الفاطمي معارك حامية كانت نتیجتها سجالا بين الطرفين .

وجاءت سنة ٣٣٥ هـ والحرب لا تزال مستمرة ، والناس في بؤس شديد وأخيرا نظم الجيش الفاطمي نفسه ، ورسم لنفسه خطة جديدة ، فجعل الخليفة أهل افريقية في الميمنة ، وكثامة في الميسرة ، وهو ومن معه من خاصته وعبيده في القلب ، وبدأ قتال شديد انهزمت فيه ميمنة الفاطميين ، وحمل « أبو زيد » على القلب ، فبادر الخليفة اليه ، وحمل هو ومن معه عليه حملة رجل واحد ، فانهمز أمامهم ، وفر أصحابه وأسلموا أثقالهم ، وقتل المنصور الكثيرين من أعوان « أبي يزيد » أما النائر نفسه فقد أخذ يهيم على وجهه ، وجيوش المنصور تطارده ، فمر بسبيته ، فمرجانة ، فملاق ، فباغاية ، فبلزمة ، فنقاوس فطينة (٢٤) .

(٢٤) الميلى : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٢ ص ٨٨ .

الجيش الفاطمي يصل الى نصر نهائى :

تجمعت أسباب الانتصار للخلافة الفاطمية ، فانضم لجيشها عساكر جديدة من برقة وغيرها ، كما التحقت بقوات الجيش وفود جديدة من صنهاجة وعجيسة . وتنقل الخليفة بين البلاد ، ووزع الهبات والعطايا بوفرة على الجند والأعوان ، كذلك أثنى بعض الرسل من قبل اتباع « أبى يزيد » تعلن ولاءها له ، واقامتها دعوته فشكر المنصور صنيعهم ووصلهم بعشرة آلاف دينار (٢٥) .

وكان لوجود هذه العناصر الجديدة فى جيش الخليفة الفاطمي ، وأسلوبه فى افاضة العطايا ، أثره فى هزيمة عدوه ، فقد صفت قلوب الناس ، وحاربوا معه فى بسالة واقدام حملت عدوه على أن يلتحق بقلعة فى جبل تسمى قلعة « كتامة » ، فقصدت للعساكر الفاطمية تلك القلعة ، واحتشدت فيها ، وعاونها أسطول من خمسة وعشرين مركبا ، ورسمت خطة مكنتها من محاصرة القلعة من جميع جهاتها ، وأشعلت النار فى أرجائها ، وقاتلت هواره وبنو كمالان فى اصرار وحمية .

وأخيرا نجح الجيش الفاطمي فى أسر « أبى يزيد » وجيء به الى المنصور سنة ٣٣٦ هـ فمسجد شكرا لله ، ومات الرجل متأثرا بجراحه ، فأدخله « المنصور » قفصا ، وجعل معه قردين يلعبان ، وسلخ جلده ، وحشاه تبنا ، ثم حمله الى المهدية وصلبه على سور بها حتى نسفته الريح (٣٦) .

وقد بنى الخليفة الفاطمي مدينة فى مكان المعركة الأخيرة سماها المنصورية تفاؤلا بانتصاره (٣٧) .

(٢٥) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ج ٢ ص ٨٩ .

(٢٦) ابن أبى دينار : المونس ص ٥٤ - ٦٠ .

(٢٧) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ١ ص ٢١٢ وقد تحدث

عن هذه الثورة بصورة وافية كل من : ابن الأثير : الكامل : ج ٨ ص ١٥٠

وهكذا تم القضاء نهائيا على تلك الحركة الشائنة بعد أن استمرت مدة طويلة ، تمثل خطرا داهما على الدولة وتستهتف كل جهودها ومواردها .

دلالات الحركات الثورية ضد الفاطميين :

كانت تلك أهم الثورات التي تعرض لها الفاطميون خلال حكمهم في افريقية ، فما مدلول هذه الثورات ، وما المعانى التي تكمن وراءها ، انها تعنى :

١ - أن المذهب الشيعي لم يتمكن من تثبيت أقدامه في البلاد ، وأن الناس ما زالت تميل عنه الى عقائد أخرى ، ولذلك خرجت كل من « تيهرت » و « سجلماسة » على الحكم الفاطمي بعد فتحها بفترة وجيزة ، وولى أهلها على أنفسهم ولاية ينتمون الى أسرة الخوارج التي سبق لها الحكم في كلتا البلديتين ، وقد ظلنا في حالة اضطراب وعصيان الى أن انتهى الحكم الفاطمي من بلاد المغرب .

حقيقة قد خيم الهدوء على كليتيهما فترات ، لكن ذلك كان يفرضه السيف المصلت على الرعوس ، وسرعان ما كان يجاهر أهلها بالعصيان اذا ما واثتهم الفرص لذلك .

وربما كان مرد كراهية الناس لمذهب الشيعة ، أنهم حملوا حملا على اعتناقه ، ويدل على ذلك ما يروي « ابن خلدون » من أن والي الفاطمي على « تيهرت » سنة ٢٩٨ هـ « أمحى في مؤامرتها الإباضية من لاية وأزدلجة ولوايه ومكناسة ومطماطة ، وحملهم على دين الرافضة » (٢٨) .

وما بعدها حوادث ٣٣٣ هـ ، المقریزی : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ١٠٩ وذلك فيما يتصل بعصر « القائم » أما عهد (المتصور) فقد فصل الكلام فيه : ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبید وسيرتهم ص ١٨ وما بعدها . (٢٨) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٢٢ .

ولذا كان « ابن أبى الضياف » يذكر حب آل افريقية جميعا « لعلى بن أبى طالب » ، « جبلة فى طباعهم حتى ان نساءهم لتدعو باسمه عند الولادة » (٢٩) ، فربما كان مرد ذلك لا باعتباره امام الشيعة ورجلها المقدس ، بل باعتبار أنه صاحب النبى ﷺ ، وابن عمه وزوج ابنته ، ولما يتميز به من صفات نادرة وخلق رفيع ، والا فلماذا لم يعمر المذهب الفاطمى فى هذه البلاد طويلا ، ولماذا عادت افريقية تخطب للعباسيين فى بغداد ، وترفض التبعية لمصر الفاطمية منذ منتصف القرن الخامس الهجرى ، وبعد أقل من قرن من مغادرة « المعز » الفاطمى لها ؟

٢ - تؤكد هذه الثورات ما يوصف به البربر من أن طبيعتهم تميل للقتال ، ويشعرون برضى فى النفس عندما يرفعون السلاح ويسفكون الدماء ، ويميلون الى حياة الفوضى والسلب والنهب ، ولعل معيشتهم للصحراوية البدوية ، هى التى جعلتهم يالفون هذا اللون من الحياة ، فقد انضموا « لأبى يزيد » فى ثورته الكبرى ضد الفاطميين ، لأن ذلك أتاح لهم فرصة نهب الخيرات ، فكانوا أعوانا للثائر حين مكنهم من الغصب والسطو على ما فى أيدي الناس ، حتى اذا نصب المعين أمامهم ، ولم يوجد ما يستولى عليه ، بدأ البربر يفرون من حول الثائر ، ويتركونه ينسحب من حصاره للمهدية فى ثلاثين نفر فقط ، بعد أن كان أعوانه ألوافا جاوزت الثمانين .

٣ - يبدو أن الشعب كان يعاني آلاما اقتصادية ، ويعيش فى حالة من البؤس ينتظر المخرج منها ، وكان ايمانهم بفكرة « المهدي المنتظر » يقدم لهم طاقة من الصبر ، عسى أن يأتيهم ذلك المخلص وينتزعهم مما هم فيه ولذلك فرحوا عندما ظهر الخليفة الفاطمى بينهم ، ولكن سرعان ما خاب أملهم فيه ، فقد ظل حالهم كما كان قبل ، وأمكن لعدد من الثائرين بعد ذلك أنه يدعى أنه « المهدي المنتظر »

الحقيقى • وأن خلاص العالم سيكون على يديه ، وكان يستطيع تجميع الناس حوله عن هذا الطريق ، حدث ذلك من كتامة ، عندما نصبت غلاما وجعلته اماما بعد مقتل « الشيعى الحسين » ، كما تكرر ذلك فى عهدى القائم والمنصور •

د - تؤكد هذه الثورات أن « كتامة » قد حظيت بكل المناصب الهامة فى الدولة ، فأساء أفرادها السيرة ، وعاملوا الناس بقسوة ، ولانتشر جنودها فى الأرض ، يعيشون فسادا ويغتصبون الأموال ، وكان طبيعيا أن يقوم الناس بثورات ضدهم نتيجة سوء سيرتهم ، وهذا هو ما دفع أهل « طرابلس » الى الثورة على الدولة ، واليه يرجع قيام أهل « القيروان » بثورتهم ضد استبداد حكامهم ، وتناولهم عليهم ، كما كان السبب نفسه وراء ثورة « الصقليين » وأهل « جرجنت » على الفاطميين ، فقد كان واليهم اما سيىء السيرة ظالما ، واما ضعيفا عاجزا يسمح بارهاب الناس والسيطرة عليهم ، كما حدث « لعطاف » والى « صقلية » الذى استبد « بنو الطبرى » فى أيامه وأرهبوا الناس ، بل انهم وثبوا بالوالى نفسه وقتلوا عددا من رجاله واضطروه للهرب ، مما حمل الروم على انتهاز فرصة ضعف المسلمين وانقسامهم ، وقطعوا مال الهدنة عنهم وسيأتى مزيد بيان لذلك •

هـ - تدل هذه الثورات على قيام البربر فى شكل حزبيات ، تتجمع كل مجموعة منها ضد غيرها ، وتعمل على قهرها وبسط سلطانها عليها ، وكان عدم وفاء الصحراء بحاجتهم يسبب وجود هذه الحالة عندهم فينتazon ويتعادون ثم لا يلبث أن يستقر العداء فى نفوسهم ، ويحملهم على أن تتقف ملوادة منهم فى صف ضد الأخرى ، وهذا ما يفسر وقوف « صنهاجة » فى جانب الفاطميين ، أثناء ثورة أبى يزيد ، لأن زنائة - عدوة صنهاجة - قد اختارت حرب الفاطميين ومناصرة « أبى يزيد » •

٦ — يمكن أن نستنتج من تصدى الجيش الفاطمي لهذه الثورات ، أن ذلك الجيش ، كان يتكون بصفة رئيسية من كتامة ، الى أن حاصر « أبو يزيد » المهدية أيام الخليفة « القائم » ، عندئذ وجدنا الخليفة الفاطمي يرسل الى « صنهاجة » ويطلب منها أن تناصره الى جانب « كتامة » .

ومنذ ذلك الحين ، وكتامة وصنهاجة ، هما الأساسان اللذان قام عليهما بناء الدولة الفاطمية . وكونا أساس جيشها ، والى جوارهما وجدت بعض القبائل التي انتصرت الشيعة فى مرحلة أو فى أخرى ، مثل مكناسة التي توجهت مع الفاطميين الى « تيهريت » وشاركت « كتامة » فى إعادة فتح هذه المدينة ، ومثل « عجيصة » التي قاتلت فى صف العبيديين أثناء ثورة « أبى يزيد » .

٧ — رأينا اختيار الخليفة « القائم » قبيلة صنهاجة ، واستمداده الجنود منها عندما حاصرت جيوش « أبى يزيد » فى المهدية ، ولعل ذلك يثير تساؤلا فحواء لماذا اصطفى « صنهاجة » بالذات وأرسل اليها دون بقية القبائل ؟ .

الواقع أن العداوة كانت قد تمكنت بين صنهاجة وبين زناتة ، بسبب تصدى « زيزى بن مناد الصنهاجى » للزناتيين ، وتخليصه السكان من بطشهم واستبدادهم ، ونشره الأمن فى البلاد .

ومعروف أن « زناتة » ناصرت « أبا يزيد » وكانت عوناً له على الفاطميين ، وقد لاحظ الخليفة « القائم » ذلك ، واختار سيد « صنهاجة » وأرسل اليه واضعاً فى الاعتبار عداوته « لزناتة » المناصرة « لأبى يزيد » .

وقد أخبر الخليفة زعيم الصنهاجيين بما يعيش فيه من جهد وغلاء ، بسبب حصار المهدية ، فبعث اليه « زيزى الصنهاجى » بألف حمل حنظلة ، وأخرج مائتى فارس من صنهاجة ، وخمسمائة من عبيده ،

ولما وصل ذلك الى « المهدي » سر به « القائم » وأرسل الى رئيس « صنهاجة » هدية من « كسسا جلييلة وخيل مسرجة محلاة »^(٣٠) وأضحى « زيزى » من أكبر أعوان « بنى عبيد » الذين استظهروا بهم على عدوهم من « زناتة »^(٣١) وقد خلعت الخلافة الخلع على الأعوان للجدد فى عهد « القائم والمنصور » ، ومنحتهم الهبات السنية ، وأفاضت عليهم إفاضة سلمت بها قلوبهم ، وصفت نياتهم^(٣٢) ، وسوف يستمر هؤلاء الصنهاجيون قوة فى الدولة الفاطمية وسيضا مصلتا على عدوها الى أن ينتقل الفاطميون الى مصر ، ويتركون الحكم لهم ، ليكونوا نوابهم والعاملين على بلاد المغرب باسمهم ، وستستمر « صنهاجة » تحكم بلاد المغرب نيابة عن الفاطميين حتى عام ٤٤٣ هـ ، وفى هذا العام سيجرؤ الوالى من « صنهاجة » على قلع خطبة الفاطميين والدعاء فى البلاد باسم العباسيين .

٨ - تدل هذه الثورات على ضيق بعض القبائل بكتامة ، وعملها على مقاومتهم وانتزاع السلطة من أيديهم ، وفى هذا المجال نذكر نفوسة وهولرة ولماية وزناتة على سبيل المثال .

٩ - لعل من الانصاف أن نقول أن ثورة « كتامة » على « المهدي » عقب قتله للشيعى الحسين ، فيها ما يدل على وفاء هؤلاء الناس لمن عاشرهم ، وتعلقهم بمن يحتذى بهم ، ويأوى اليهم ، ولذلك ساءهم أن ينتهى ذلك الانسان بهذه الصورة المؤلة ، بعد ما جاهد فى سبيل نقل الحكم الى الفاطميين .

ولكن عذر « المهدي » أن الشيعى الحسين كان يتمتع بثقة الناس ، وله شعبيته فيهم ، ولذلك كانت دعوته كفيلة بانهاء الحكم الفاطمى ، وام يجد الخليفة وسيلة تخلصه وتبقى على دولته الا قتل داعيته الكبير حتى يتخلص من تأثير شخصيته للقوية على الناس .

(٣٠) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٤٧ .

(٣١) احمد بن أبى الضياف : اتحاف أهل الزمان ج ١ ص ١٣١ .

(٣٢) ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٢٩ .

١٠ - تدل ثورة « أبى يزيد » خاصة ، على أن صاحبها قد جاوز حد الدين ، على الرغم من خروجه على الفاطميين باسم ذلك الدين . لقد كانت دماء المسلمين تسفك أمامه ، وحرمان الدين يعتدى عليها ، والأموال تنهب وتسرق وتغتصب ، والمدن تخرب وتحرق على ساحليها ، كل ذلك وهو لا يستنكر وما خرج إلا أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر محتسبا على الناس فى أفعالهم ، بل أكثر من هذا عاون جنده على ارهاب الأمنين ، وأمرهم بالقتل والاحراق والتمثيل بنا للرب فى قلوب الناس ، وكأن رعب الرعية واخافتها ، أهون وأولى بالاعتبار مما يأمر به الدين الحنيف ، من حماية للدم ، وتحريم للنفس . ونهى عن سفك دمها بغير حق ، ومن ناحية أخرى ، كان قوام هذه الثورة هو « عداوة الأمة لمذهب الحكومة ، ونفور القبائل من تحت كمامه » (٣٣) فهى اذا ثورة قومية مذهبية فى واقع الأمر (٣٤) .

١١ - اعتمد الفاطميون على أسطول قوى - الى جانب الجيوش البرية القبلية - وقد اشترك ذلك الأسطول فى كل حروب الدولة بصقلية ، ومع الروم ، وضد الخلافة الأندلسية ، وقام بدور هام فى تلك المناطق ، لأن طبيعتها ساحلية تسمح باستخدامه فيها . وسيأتى شرح لذلك .

وقد مر بنا اعتماد الخليفة « المنصور » على الأسطول فى قتاله ضد « أبى يزيد » وفى مراحل مختلفة من تلك الثورة .

والواقع أن الفاطميين اعتنوا بالأسطول منذ فجر دولتهم ، فهى له « المهدى » دار صناعة ، شحنتها بالعمال وأنفق عليها الأموال . ولم يبخل عليها بأى عون ، فقد كان وجوده ضروريا لحماية السواحل

(٣٣) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٨٧ .

(٣٤) انظر : ابن خلدون : المقدمة ص ٦٢٩ ، ٦٣٠ ج ٢ ط القاهرة

١٩٥٨ بتحقيق على عبد الواحد وفى ، حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ . العدوى « الاساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط » ص ١١٤ وما بعدها ، القاهرة ١٩٥٧ م .

الفاطمية ، وللحروب ضد الروم وضد الشعوب الأوربية فى البحر الأبيض المتوسط .

وقد رسم « ابن خلدون » ، صورة وافية لما قام به الأسطول والبحرية فى عصر الدولة الفاطمية فقال :

« كانت أساطيل افريقية والأندلس فى دولة العبيديين والأمويين ، تتعاقب الى بلادهما ... فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب ، وانتهى أسطول الأندلس أيام « عبد الرحمن الناصر » الى مائتى مركب أو نحوها وأسطول افريقية (لأسطول الفاطميين) كذلك مثله أو قريبا منه .

وكان المسلمون لعهد للدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم ، وامتبأوا ظهره للفتح سائر أيامهم وكان « أبو القاسم الشيعى وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية ، بجزيرة «جنوة» فتقلب بالظفر والغنيمة ... والعساكر الاسلامية تعبر البحر فى الأساطيل من صقلية الى للبر الكبير المقابل لها من العدو الشمالية ، فتوقع بملوك الفرنج ، وتثخن فى ممالكهم ، كما وقع فى أيام بنى الحسين مأوك صقلية القائمين بدعوة العبيديين ... » (٣٥) .

ولذا سألنا أنفسنا بعد ذلك عن « التكتيك السذى اتبع فى المعارك » فسنجد أنه كان الكر والفر ، ثم أسلوب الصف ، ثم نظام الكراديس .

ونظام الكر والفر هو أن يحمل المقاتلون بكل قوتهم على العدو فاذا انهزم أمامهم طاردوه انتهت المعركة ، أما اذا أجسبوا بالضعف فانهم

(٣٥) انظر الشيال « تاريخ مصر الاسلامية » ج ١ ص ٣٠٤ القاهرة ١٩٦٧ م .

ينسجون إلى الخلف لتنظيم الصفوف ثم يعيدون الهجوم ثانية ،
وهكذا المرة بعد المرة حتى تنتهى المعركة •

أما نظام الصفوف فهو أن يجتمع الناس صفين أو أكثر يكون فى
الأول حاملو الرماح ثم يليهم حاملو الأسهم والسيوف ، فإذا التقى
الجمعان بدأت الحرب بمناوشات فردية ثم تزحف للصفوف للمقاتلة
بدون كر أو فر •

وأما الكراديس ، فهي طريقة قد أخذها العرب عن الروم ،
وفيهما يقسم الجيش إلى مجموعات كل منها تسمى « كردوساً » ويجب
أن يختار رجال كل « كردوس » من جماعة أو قبيلة واحدة ليتمكن
تعارفهم ، ثم تقسم « الكراديس » إلى وحدات أصغر يجعل قيادتها
للمشجعان ، ويمكن للقائد بعد ذلك أن يجمع كراديسه بعضها إلى بعض
حسب نظام الخميس ويقسمها إلى قلب ومقدمة ومؤخرة وجناحين ،
وذلك ليتمكن القائد من السيطرة على قواته ، وخصوصاً إذا كان
عددها كبيراً (٣٦) •

هذه أشهر أساليب القتال فى العصور الوسطى ، فبأى منها
أخذ الفاطميون ؟ مما يؤسف له أن الباحث ليس لديه ما يستطيع
تقديمه فى هذا الصدد ، لانعدام المادة العلمية الخاصة بهذه الناحية ،
فهى مفقودة كلية من المصادر ، ومع ذلك فيمكن عن طريق تحليل معارك
الجيش الفاطمى ، أن نقول : ان طريقتى الكر والفر والصفوف عرفهما
الفاطميون فى حربهم لعدوهم ، واستخدموا هذا مرة وذاك أخرى
حسب ما يقتضيه الموقف وطبيعة الحال •

هذا ويستظهر الأستاذ « احسان هندى » أن الجيوش الفاطمية
كانت تعبأ بطريقة « الكراديس » ويقدم — بناء على ذلك — تشكيلات

(٣٦) احسان هندى : الحياة العسكرية عند العرب ص ٤٦ طبع
دمشق سنة ١٩٦٤ م •

يقول انها مجرد فرض من منطقية يعوزها الدليل التاريخي ، ويرى أن بداية هذه الشكليات كانت وحدة صغيرة ، هي الصف الذي يحوى ١٦ رجلا ، وأن نهايتها هو للعسكر الأعظم الذي يحوى (١٦٣٨٤ رجلا) ، وبين هذين يوجد « الخردوس » ويحوى ثمانية صفوف أى ١٢٨ رجلا ، ثم الحجفل ويحوى ٢٥٦ رجلا ، والدوكبشسة وتحوى ٥١٢ رجلا والزمرة وتحوى ١٠٢٤ رجلا ، والطائفة وتحوى ٢٠٤٨ رجلا ، والجيش ويحوى ٤٠٩٦ رجلا ، والخميس ويحوى ٥١٢ صفا أى ٨١٩٢ رجلا (١) .

ويغلب على ظننا أن هذا النظام ربما أخذت به الدولة الفاطمية ، لكن بعد أن استقر لها الأمر ، واستتب لها الحكم ، وكثر التابعون والموالون لها ، أما فى البداية فقد استخدمت طريقة الكر والفر ثم قابلت أعداءها وواجهتهم فى صورة صفوف متواحدة متقابلة ، ففقت على عدوها ، وحقت النصر لنفسها .

١٢ — فوق ما مر يعتبر العبيد من أهم ما اعتمد عليه الخلفاء الفاطميون فى جيوشهم وحروبهم ، وقد كانوا يحصلون على هؤلاء البعيث بطريق الشراء من صقلية وبلاد الروم (١٨) ، ويربونهم تربية خاصة ، ويعدونهم اعدادا عسكريا معينة ، فاذا ما اطمأنوا الى تدريبهم والى ولائهم ، ضمواهم الى حاشيتهم وألحقوهم بجيوشهم ، وأسندوا اليهم مناصب للدولة الهامة ، وقد بلغت عدد هؤلاء العبيد اثنى عشر ألف مملوك فى عهد الخليفة المهدي (٣٩) .

وقد مر بنا مشاركتهم فى الدفاع عن المهدية عندما حاصرها « أبو يزيد » ومقاتلتهم للثائر ، واستماتتهم على سور تلك المدينة ، وقد ترددت أسماؤهم فى مناسبات حربية مختلفة ، ووجد من بينهم

(٣٧) محمد كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ١٠ وما بعدها - دمشق / ١٩٢٧ م ، احسان هندى : المرجع السابق ص ١٩٥ م
(٣٨) انظر : دائرة المعارف الاسلامية مادتي (صقلية وصقلية) .
(٣٩) انظر : ابن أبى الضياف : اتحاف أهل الزمان ج ١ ص ١٢٢ .

من بزغ نجمه ، ووصل الى مرتبة القيادة مثل : ميسور الفتى ، وميسور الصقلبي ، و « جوهر » الذي وصل الى مرتبة الوزارة ، وكان موضع ثقة الخليفة « المعز » وحارب باسمه في بلاد المغرب ، ودانت البلاد « للمعز » تحت قيادته الناجحة وبسببها .

تنظيم الجيش :

لما عن كيفية تنظيم الجيش ، فيفهم من الممارك الحربية ، ان الخليفة كان يتوجه الى ولايته بطلب جمع القادمين على الحرب ، كما كان يقوم بنفسه بذلك وعندما يتم اجتماع الناس يجتلب رخصاهم بالمعاملة الحسنة وتوزيع الاموال عليهم ومنحهم العطايا والهبات وامدادهم بالأسلحة والمهمات . ثم يرسلهم بعد ذلك الى محاربة العدو مع فائد يوثق في ولايته .

ولابد أن يكون أفراد الجيش من النوع الحريص على مصلحة الدولة ، العامل على بقائها ، الواقف بجانبها ضد عدوها .

وكانت الجيوش تنظم أثناء المعركة بالطرق العادية ، فيقف العسكر في صورة صفوف متراصة متقابلة ، أو ينقسم الى ميمنة وميسرة وساقة ومقدمة وقلب .

وكانت الجيوش تتخذ الكمائن وتحرص على حصار عدوها في منطقة « ما » ، وتتصب الدبابات والمنجنيقات على أسواره ، وتحرص على مباغتته ، واستمالة ضعاف النفوس من جنده ، ومنع الطعام والزاد عنه ، وتتخذ لها أسطولا يشحن بالمقاتلة والجنود والامدادات ، ويعاون الجيوش البرية في محاولة انتزاع النصر والتغلب على العدو .

(ب) دور الجيش الفاطمي فى توسيع رقعة الدولة :

رسمنا صورة للجيش الفاطمي ، تصوره يجمع الثورات ، ويقضى على الخارجين ويوقف بالمرصاد لكل من أراد بالدولة سوءا ، فهل اقتصر دوره على ذلك أم اعتمد عليه فى شىء آخر خلاف ما مر ؟ •

الحق أن الفاطميين كانوا يهدفون الى السيطرة على العالم للإسلامى كله ، وكانوا يودون أن يكون الحكم لهم من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، وتحقيقا لهذا الهدف أخذوا من قاعدتهم فى بلاد المغرب يتحركون نحو البلاد الأخرى ، وأرسلوا الجيوش توسيع دولتهم ، وتضيف مناطق جديدة إليها ، والصفحات التالية محاولة لوصف سير الجيش واتجاهاته فى سبيل تحقيق ذلك للهدف •

الجيش الفاطمي يفتح « نكور » :

رغبت الخلافة الفاطمية فى أن يكون لها الحكم فى مناطق بلاد المغرب كلها فكتب الخليفة « المهدي » الى الحكام فى هذه المناطق يدعوها الى الدخول فى طاعته ، وأرسل بذلك الى حاكم « نكور » (سعيد بن صالح) ، فرفض الاستجابة للدعوة الفاطمية •

عندئذ أراد الخليفة إخضاعه عسكريا ، فأمر واليه على « تيهرت » (مصالة بن حبوس) بتكوين جيش ، والتوجه لفتح تلك المدينة ، فاستجاب للأمر ، وسار على رأس قوات فاطمية سنة ٣٠٤ هـ ، وقد التقت بجيش لحاكم المدينة • وأثناء احتدام القتال حاول أحد أتباع « سعيد » أن يهجم على القائد الفاطمي ويفتك به ، غير أن النجد الفاطمي تمكن من أسره •

وكان أسير ذلك الرجل هو المفتاح الذى صنع نصر الفاطميين ، وهياً لهم فتح المدينة ، ذلك أنه أرشد الى جانب من المدينة ، كان خاليا من المدافعين ، وقد فاجأت العساكر الفاطمية جيش حاكم « نكور » من ذلك الجانب فخافوا وتفرقوا ، وقتل « سعيد » نفسه واستباح العسكر الفاطمي مدينته ، ونهبها ، واستمر القائد الفاطمي بها ستة أشهر ، ثم استخلف عليها ورجع الى « تيهرت » •

لكن أهل « نكور » ثاروا ضد الوالى الجديد وقتلوه ، واتخذوا
خيلوة من شأنها أن توسع نطاق الحرب ، وتحولها الى حدام بين الأمويين
فى الأندلس وبين الفاطميين ، فقد ارتنسوا لأنفسهم واليا جديدا ،
وأرسلوا يستجدون بالخلافة الأموية ، فأمدتهم ببعض المهمات
وأيدت حركتهم •

وأرادت الخلافة الفاطمية أن تواجه الوضع الجديد ، وتضع حدا
لما يحدث فى هذه المنطقة من بلاد المغرب ، فوجهت « مصالة بن
حبوس » على رأس جيش اليها ، وتمكن من دخول المدينة الثائرة
وضبطها ثم تركها الى فاس سنة ٣٠٨ هـ •

ولما عاودت العصيان مرة ثانية ، جهزت عساكر بقيادة « موسى
ابن أبى العافية » حاصرتها وقتلت أهلها ، وهدمت سورها ، وكان ذلك
سنة ٣١٧ هـ

وفى عهد الخليفة « القائم » تم اعداد جيش لى « المهديّة »
بزعامة « ميسور الفتى » ، أتبع بمدد آخر بزعامة « صندل الفتى » ،
وكانت مهمة الجيش التوجه لفتح بلاد المغرب •

ولما علم صاحب « نكور » بخبر ذلك الجيش ، تحول الى احدى
القللاع ، واعتدى فيها بالقتل على رسل الفاطميين الذين أرسلوا اليه ،
الأمر الذى دفع الجيش الفاطمى الى التحرك نحوه فى قلعة ومقاتلته
حتى تم الانتصار عليه ، وغنم كل ما معه وتوجهت الجيوش الفاطمية
بعد ذلك الى « فاس » وما أن غادرت القوات الفاطمية « نكور » حتى
ثار أهل المدينة بوالىهم الكتامى وقتلوه ، وبعثوا برأسه — هو وبعض
أصحابه — الى الخليفة الأموى فى الأندلس (٤٠) •

(٤٠) عن دور الجيش الفاطمى فى « نكور » انظر :
البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٩٤ وما بعدها ،
ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب ج ١ صفحات : ١٨١ الى -
١٨٧ •

وهكذا لم تسلم هذه المدينة للفاطميين ، واستمرت متمردة على حكمهم إلى أن أخضعها القائد « جوهري » فى حملته على بلاد المغرب سنة ٣٤٧ هـ .

الجيش الفاطمى فى فاس والمغرب الأقصى :

كان الأدارسة قد هاجروا إلى بلاد المغرب الأقصى ، وأقاموا فى دولة هناك سنة ١٧٣ هـ ، وأراد الخليفة الفاطمى أن يسقط دولتهم ويحكم على أنقاضهم باعتباره الممثل الحقيقى لطائفة الشيعة .

وقد أعدت الخلافة الفاطمية جيشا كبيرا جعلت على قيادته « مصالة بن حبوس » وعهدت إليه مهمة فتح « فاس » العاصمة الأدريسية .

فتوجه القائد الفاطمى إلى تلك المدينة ، وحاصر الامام « يحيى ابن ادريس » بها ، ثم عقد معه صلحا على مال يؤديه ، وبائع للامام « المهدي » وأصبح بذلك تابعا للفاطميين ، وكان ذلك سنة ٣٠٥ هـ .

وكان « موسى بن أبى العافية » — ابن عم القائد مصالة — قد شارك الجيش الفاطمى وعاونه فى مهمته بفاس ، ولذلك لما انسحب القائد مصالة من بلاد المغرب ، ولّى موسى عليها مكافأة له ، وجعل « ليحيى الادريسى » الحكم فى مدينة « فاس » خاصة (٤١) .

لكن ذلك التصرف سبب للفاطميين كثيرا من المتاعب ، إذ أنه ازدواج فى السلطة سيؤدى إلى التنافس وإقامة للحروب ، فقد كان « يحيى » يفوق « ابن أبى العافية » بشرفه ونسبه ، ويحول بينه وبين الاستبداد ببلاد المغرب ، ولذلك أخذ يصطنع الحيل حتى أوفر صدر الفاطميين ، وقبض عليه وأهانته ورماه فى سجنه فترة طويلة (٤٢) .

(٤١) السلاوى : تاريخ المغرب الأقصى ج ١ ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٤٢) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس

ج ١ ص ١١٦ .

وقد ثار أهل « فاس » على ولاية الفاطميين ، واحتجوا للمعاملة السيئة التي يلقاها أئمتهم ، وطردوا الولاة الفاطميين وأعادوا حكم الأدارسة مرة ثانية . وكانت هذه الخطوة دافعا للجيش الفاطمي بقيادة « موسى بن أبي العافية » الى التوجه الى « فاس » ، حيث دخلت مع عسكر الأدارسة في معارك حامية نجحت بعدها في السيطرة على بلاد المغرب ، وكسبت مبايعة كثير من القبائل ثم زحفت الى « تلمسان ومليحة وفكور » وغيرها وأتمت فتحها .

وهنا نصادف نقطة تحول خطيرة في علاقة قائد الفاطميين بدولته . فبدلا من أن يشكر « ابن أبي العافية » للخلافة التي هيأت له سبل المجد ، نجده يتنكر لها ، ويقطع الخطبة الفاطمية ، ويدعو للخليفة « الناصر » - خليفة الأمويين في الأندلس - ويخطب باسمه .

وهذا العمل من جانبه سيعرض الخلافة الفاطمية لمواجهة الحاكمين في الأندلس من بني أمية ، وسيوسع نطاق الحرب .

ومع ذلك فقد أعدت الخلافة الفاطمية عشرين ألف فارس ، وجعلت على قيادتهم « حميد بن يسلتين الكتامي » ، وعهدت اليه بمحاربة « ابن أبي العافية » ، فدخل معه في حروب عظيمة كان النصر فيها جليفاً للفاطميين ، وهرب « موسى » الى « تسول » (٤٣) وتحصن فيها .

ولم تنته مهمة الجيش عند هذا الحد ، فقد ثارت البلاد ضد الفاطميين مرة أخرى ، وتم اعداد جند جديد بزعامه « ميسور الفتى » ، حاصر « فاس » ستة أشهر ثم صالحه أهلها على ستة آلاف دينار وأتسبأ أخرى ، وأعادوا الخطبة الفاطمية الى منابرهم ، وتمكن الجيش الفاطمي من انتزاع أكثر ما كان مع « ابن أبي العافية » وأقام

(٤٣) تسول : مدينة على بعد عشرة أميال من فاس كانت معقل « موسى بن أبي العافية » .

وقد اعتمدت في التعريف السابق لأسماء البلدان على كل من :
ياقوت البلدان ، البكر : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب .

الدعوة الشيعية فيه ، أما « موسى » نفسه فقد ظل شريفا ببعض بلاد الصحراء الى أن قتل بملوية سنة ٣٤١ هـ أو ٣٢٨ هـ (٤٤) .

استمرت البلاد بعد ذلك تدين بالولاء للشيعية الى أن تجرأ واليهما على قطع الخطبة الفاطمية ، وموالاة الأمويين بالأندلس أيام « المعز لدين الله » (٤٥) .

وزاد الموقف سوءا أن « زنانة » والبربر فى هذه النواحي ، أعلنت الحرب على الفاطميين ، وغلب الخليفة الأموى على جميع بلاد العدو .

ازاء ذلك صمم الخليفة الفاطمى على تأديب الثائرين فى هذه النواحي فأعد جيشا كبيرا يزيد تعداده عن عشرين ألفا من صنهاجة وكتامة وغيرهما ، وجعل الأمرة عليّة « لجوهر الرومى وزيزى بن بن مناد الصنهاجى » وأمرهما أن يشددا وطأتهما على بلاد المغرب ، وتأديب الثائرين .

وقد توجه ذلك الجيش ، وقام بمهمته خير قيام ، وطهر جميع البلاد المغربية من أعداء الفاطميين .

فقد التقى الجيش الفاطمى بجموع « بنى يفرن » الزناتيين قرب « تيهرت » ، ونجح فى هزيمتهم وقتل أميرهم ، وطارد المهزومين وأحرق مدنهم .

بعد ذلك سار الجيش الى « سجلماسة » وأعادها فاطمية وتخلص من « ابن واسول » الذى كان قد استقل بها .

وبعد أن أمن « جوهر » ظهره بفتح « سجلماسة » والقضاء

(٤٤) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، طبع حجر من ص ٥٤ - ٥٧ ، أحمد ابن أبى العافية (ابن القاضى) : جذوة الاقتباس طبع حجر بخط مغربى من ص ٢٢٧ - ٢٢٩ ، ابن أبى دينار : المونس ص ١٠٠ .
(٤٥) ابن أبى دينار : المونس ص ١٠٠ .

على «زناتة» انتقل الى «فاس» وأدار القتال فيها مدة ، ولما لم تستجب له ، لجأ القائد « زيزى الصنهاجى » الى حيلة جديدة .

فقد انتهاز فرصة أمان أهلها ، وأمر جماعة من شجعان قومه ، فنصبوا « سلالم » وصعدوا الى البلد ، وقتلوا الحراس وفتحوا الأبواب ودقوا المطبول ، سماع جنود « جوهر » دق المطبول فدخلوا المدينة ، وهدموا أسوارها وقتلوا بها خلقا كثيرا (٤٦) .

بعد ذلك سار « جوهر » فى بلاد المغرب الأقصى يفتح المعقل ، ويقتل أبناء المروانيين ، وفرت أمامه « زناتة » وغيرها من القبائل ، واستمرت حملة الجيش الفاطمى ثلاثين شهرا أخضع فيها جميع بلاد المغرب ما عدا « سلام وست » فانهما كانتا فى يد الخليفة الأموى بالأندلس (٤٧) ، ووصل « جوهر » الى البحر المحيط ، وصاد من سمكه وأرسله الى الخليفة « المعز » وكتب له كتابا من عرض البحر (٤٨) .

حتى يتخلص « المعز » من « زناتة » نهائيا ، قرر أن ياجأ الى الوسيلة الجديدة فى القضاء عليها ، فرماها بعدوتها « صنهاجة » فنهض « بلقين بن زيزى » لحربهم ونجح فى اجلائهم عن الزاب ، ثم أجلائهم عن المغرب الأوسط كله سنة ٣٦٣ هـ وفرقهم فى تلول المغرب الأقصى (٤٩) وصحرائه .

وبذلك تمكن الجيش الفاطمى بفضل احكام خططه ، وبراعة قواده ، وشجاعة رجاله ، تمكن من تصفية أعداء الفاطميين فى البلاد ، ونشر دعوتهم حتى شاطئ المحيط الأطلسى .

(٤٦) انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٩ ، نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٣٨ ، تاريخ أبى الفدا مجلد ٢ ص ١٠٧ .
(٤٧) انظر : ابن ظافر : اخبار الدول المنقطعة ص ٩٦ ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٤٨) انظر : ابن أبى دينار : المونس ص ٦١ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٣٠ .

(٤٩) انظر : الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ج ٢ ص ٩٢ .



الفصل الثالث

الجيش الفاطمي – ومحاولات غزو مصر

أهمية مصر للفاطميين :

كان الفاطميون يسعون لبسط سلطانهم على العالم الاسلامى كله ، وكانوا يريدون اقامة خلافة علوية يدخل تحت حكمها جميع الشعوب الاسلاميه .

وضعوا هذا الهدف نصب أعينهم منذ عهد أول خليفة لهم فى المغرب ، ويبدو ذلك واضحا فى كتاب أرسله الخليفة « المهدي » الى اقرامطة جاء فيه :

« أنا أحلف أيها المؤمنون — بكل ما يحلف به ، أن فيما تلقيته — مما أطلعنا الله عليه من غيبه الذى استأثر به ، وآثر بعلمه أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون — أنه لا بد وأن تحل ولاتنا (بلاد) بنى أمية بالشام ودور بنى العباس فى العراق ، ويكون لنا من الخلفاء مثل ما كان لبنى أمية فى العدد » (١) .

وكان من الطبيعى أن يعتمد الخلفاء الفاطميون على جيوشهم فى تحقيق ذلك الهدف ، فكما توجه ذلك الجيش فى اتجاه الغرب يفتح للبلاد ويضمها لهم ، كذلك عنيت الخلافة الفاطمية بغزو البلاد المشرقية ، وتركزت حملاتها العسكرية على مصر خاصة ، ذلك لأن هذه البلاد عظيمة الأهمية من النواحي السياسية والحربية والدينية .

فامتلاك مصر يعنى للسيطرة على القطرين التابعين لها ، وهما الشام والحجاز ، وبحكم الحجاز ، يكتسب الفاطميون مركزا دينيا ممتازا ، لأن هذه البلاد موطن المقدسات الدينية وحاكمها يعتبر الحاكم الفعلى للدولة الاسلاميه ، لما لها من صبغة دينية تضى على القائمين عليها صفة للرسمية والوقار .

(١) انظر : المقرئى : المقفى الكبير ج ٤ : لوحة ٢٢٢ صورة دار الكتب المصرية .

يضاف لذلك أن احتلال مصر وبلاد الشام ييسر للفاطمين — عن طريقهما — الزحف الى مركز الخلافة العباسية فى « بغداد » ويسهل مهمة للقضاء على العباسيين ، ويهيىء اقامة الخلافة الفاطمية على أنقاض ممتلكاتهم •

ثم ان فتح مصر يضمن للفاطمين تأسيس نظام سياسى دينى « فى ثلاثة من المراكز الاسلامية الكبيرة ، وهى الفسطاط والمدينة ودمشق »^(٢) وفوق ذلك فان موقع مصر يجعل منها حاضرة يسهل معها الاتصال بالبلدان الخاضعة للفاطمين ، فمنها يمكن ربط ولايات دولتهم ، وتسهيل مهمة الالتقاء بها ، والاتصال معها بصورة لا يوفرها الحكم من المهدية أو القيروان •

على أن مصر ، وما تمتاز به من ثروات ورفاء بالنسبة لبلاد المغرب ، كان من أهم العوامل التى حفزت الفاطمين الى فتحها •

وفضلا عن كل ما مر ، فان يأس الفاطمين من الاستقرار فى بلاد المغرب وتوالى الثورات عليهم فى مختلف نواحي تلك البلاد ، كان وراء فتحهم لمصر ، واتخاذها حاضرة جديدة لخدمتهم •

لكل ما سبق أعد أول الخلفاء للفاطمين الخطط لغزو هذه البلاد منذ تأسست دولته فى بلاد المغرب ، وتابع الخلفاء من بعده محاولاتهم لتحقيق نفس الهدف — رغم ما كان يشغلهم من مشاكل بافريقية — الى أن نجح الخليفة « المعز لدين الله » فى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ واتخذها مقرا لخلافته سنة ٣٦٢ هـ • وقبل أن يحقق الفاطميون هذا النجاح أرسلوا ثلاث حملات عسكرية — عدا محاولة سلمية — عملت كلها على أن تحل الخلافة الشيعية محل الخلافة العباسية فى البلاد المصرية •

(٢) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١١٣ •

وقبل الحديث عن المحاولات الفاطمية ، نقدم صورة مختصرة لمصر من مختلف نواحيها — منذ أن قصدتها الفاطميون بالغزو سنة ٣٠١ هـ الى أن تم لهم الاستيلاء عليها سنة ٣٥٨ هـ ، فقد يساعدنا ذلك في تحليل الحملات الفاطمية وفي فهم سر فشلها أو نجاحها في مهمتها .

حالة مصر عند مجيء الغزوات الفاطمية :

ظل الولاة العباسيون يحكمون مصر منذ نهاية الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ الى أن استقل الأخشيديون بها استقلالا اسميا سنة ٣٢٣ هـ .

وعندما أسس الفاطميون دولتهم في بلاد المغرب ، ولي الخليفة العباسي «المقتدر» (٢٩٥ هـ — ٣٢٠ هـ) = (٩٠٨ — ٩٣٢ م) على مصر ، أبا منصور تكين بن عبد الله ، وحذره من الخطر الفاطمي القريب منه في بلاد المغرب ، فجهز الوالى جيشا وجهه الى « برقة » وهناك تصدى له جيش فاطمي قدم لفتح هذه المدينة لصالح الفاطميين . وقد استطاع القائد الفاطمي بالخديعة والدهاء أن يوقع الجفوة والخلاف بين رجال الدولة العباسية وأن يظفر بالمدينة .

وكان استيلاء الفاطميين على « برقة » من أقوى الحوافز التي شجعتهم على التوجه لمصر نفسها ، وقد أنجبت الخلافة العباسية واليها « تكين » بجيوش يتزعمها « مؤنس الخادم » التقت بالعساكر الفاطمية ، وأجبرتها على العودة الى بلادها .

وبعد الانتصار عزل « مؤنس الخادم » « تكين » عن ولاية مصر — وكان من حق القادة العباسيين عزل الولاة الموفدين لفجدهم — واستمر القائد يصرف شئون البلاد بصورة مطلقة الى أن أوفدت الخلافة « ذكا الرومي » واليا لمصر سنة ٣٠٢ هـ .

وقد عني الوالى الجديد بالكشف عن العيون الفاطمية واهتم

بتحصين البلاد خوفا من هجمات الفاطميين ، بيد أن الخليفة « المهدي »
أعد جيشا أتبعه بحملة بحرية سنة ٢٠٧ هـ .

وبعد جهد تمكن « زكا » من تكوين جيش وأرضى أفرادهم ، ووزع
الأموال عليهم ، لكنه توفي سنة ٣٠٧ هـ ، فولى « المقتدر » « تكيينا »
على مصر للمرة الثانية وأرسل نجدة من الخلافة للدفاع ضد الفاطميين ،
كما بعثت الخلافة مددا ثانيا وثالثا بزعامة « مؤنس الخادم » و « جنى الخادم »
المعروف بالصفواني ، وكل ذلك ساعد على إيقاع الهزيمة بالفاطميين
وحملهم على العودة إلى بلادهم سنة ٣٠٩ هـ . وقد كانت مصر مضطربة
فى تلك الفترة من تاريخها ، يدل على ذلك انقسام أهلها ، ومكاثبة بعض
وجوه الفسطاط للفاطميين ، ومطالبتهم بالتقدم لفتح مصر ، لعدم
مقدرة جندها على الدفاع عنها ، كما أن كثرة الجنود العباسية فى
مصر كان يكلفها فوق طاقتها ، ويمثل عبئا كبيرا على مالياتها ، وكان أهل
مصر يقياسون الأمرين من عسف الجنود ومن ممارستهم السلب والنهب
فى أرجاء البلاد .

وكما عزل القائد « مؤنس » تكيينا للمرة الأولى ، عزله ثانية
سنة ٣٠٩ هـ ، وأقرت الخلافة ذلك العزل ، وأرسلت إلى البلاد واليا
جديدا هو « هلال بن بدر » .

وفى عهد ذلك الوالى زادت مصر اضطرابا ، وثار عليه بعض
الجنود ، وقامت بينه وبينهم الحروب ، وعم الفساد وانتشر النهب
والسلب فى البلاد كلها ، مما حمل الخليفة « المقتدر » على عزل ذلك
الوالى وتولية « أحمد بن كيغخ » .

وقد تعرض الوالى الجديد لثورة العساكر أيضا ، لأنه أسقط
عددا كبيرا منهم تخفيفا للنفقات ، فثار أولئك عليه وطغوا وأمسدوا
فى البلاد ، وفشل الوالى فى علاج ثورتهم ، كما كانت الخلافة ضعيفة
وعاجزة عن فعل شئ يؤدب الثوار ، فاكثفت بعزل واليها وتعيين
« تكيين » مرة أخرى سنة ٣١٢ هـ .

وقد عمل «تكين» على كبح جماح الجند ، وغير كثيرا من معاونيه ،
ووضع خططا محكمة ثقل شوكة المشايخين ، وقطع شوطا كبيرا في
اعادة الاستقرار الى مصر .

وعندما قتل المقتدر ، وبويع القاهر بالخلافة (٣٢٤ - ٣٢٢ هـ)
أقر « تكينا » على مصر ، فظل واليا عليها الى أن مات سنة ٣٢١ هـ .

وتمثل وفاة « تكين » نهاية للاستقرار الذي شهدته مصر في
أيامه ، فقد عادت الفوضى ، وانتشر الاضطراب ، وثار الجند لتأخر
سرف مرتباتهم ، وتقاتل الزعماء وتنازعوا على ولاية البلاد .

وأردت الخلافة العباسية ارضاء الأطراف المتنازعة ، فعيّنت
« محمد بن تكين » واليا على مصر ، وجعلت « أبا بكر محمد بن علي
الساذرائي الفارسي » مسئولا عن النواحي المالية ، وكانت الخلافة
ترمي من وراء ذلك الى أن تتعدد السلطات الحاكمة في مصر ،
وأن يتركز الحكم فيها في يد واحدة قد تستقل بها وتكرر ما حدث
في العصر الطولوني .

وبرغم ذلك استمرت البلاد في اضطرابها ، واستمر عبث الجنود
بها ، وولت « بغداد » عليها أكثر من وال في فترة قصيرة دون أن
ينجح أحد في حل مشاكلها .

ولما خلع القاهر ، وتولى الخلافة الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ)
ولى مصر « أحمد بن كيغنج » ، بينما كان التصريف الفعلي بيد
الماذرائي ، أخذاً بمبدأ سلفه في توزيع السلطة على أكثر من رجل .

بعد ذلك حدث في « بغداد » ما أثر على مصر ، فقد تولى الوزارة
فيها « الفضل بن جعفر بن الفرات » عدو الماذرائيين ، ومنح سلطات
مطلقة ، عين على مصر بمقتضاها « محمد بن طفح الأخشيدى » فدخل

الفسطاط سنة ٣٢٣ هـ بعد تصفية عسكرية لجميع المعادين له ، وفرض نفسه بجهده الشخصي ، فقد كان لابد من التغلب على العقبات وحمل الخلافة على اقرار الوالى الجديد .

والخلاصة أن حكم مصر فى الفترة السابقة على تولية الأخشيدي ، كان فى أيدي ثلاث من القوات هم : الولاة المعينون من قبل للخلافة ، وقواد الجيش العباسي ، وكان نفوذهم يمتد حتى يشمل عزل الولاة ، أما للناحية المالية فكانت فى يد الأسرة الفارسية « الماذرائيين » ومنها نفذوا الى السيطرة على الفواحي المالية فى البلاد ، وكانوا ذرى نفوذ واسع فيها . ثم استقرت الأحوال فى مصر « لمحمد بن طفج الأخشيدي » وجاءه ابن الفرات يخلع من بغداد تثبيتاً له واعترافاً بمقدرته .

وكانت الولاية فى مصر مقسمة الى قسمين : الحرب والصلاة ، وعليهما ابن طفج ، أما تدبير المال والخراج فقد أشرف عليه الوزير ابن الفرات بنفسه ، ولما غادر الفضل مصر سنة ٣٢٤ هـ اجتمعت الولايتان للأخشيدي ، وصار له من السلطات مثل ما كان لابن طولون .

وكانت علاقة الأخشيدي « بابن رائق » برهانا يدل على مدى الفوضى التى سادت الحكومة المركزية فى بغداد .

فقد اتسع سلطان أمير الأمراء واستولى على الأقاليم المتاخمة لبلاد الشام ، وأخذ يطالب الأخشيدي بمال عن ممتلكاته فى تلك البلاد ، فوافق ابن طفج ، لكن ذلك لم يكف ابن رائق وأصر على الاستيلاء على البلاد الشامية ، حينئذ لم يجد الأخشيدي بدا من الالتجاء الى الخلافة واستئذانها فى محاربة أمير الأمراء . وقد قررت الخلافة أن تتركهما للقتال ، فقد يؤدي ذلك الى ضعفها والتخلص منهما معا ، وبعد حروب تم الصلح بين الطرفين بشروط .

ويهمنا هنا ان الاضطراب كان سائداً في « بغداد » حتى انها كانت تقف موقف المتفرج من المتنازعين ، كما كانت تعنى بتثبيت المنتصرين على مصر بالذات ، لأنها تريد أن تكون البلاد في يد حاكم قوى يمكنه صد العدوان الفاطمي عليها .

ولما توفي الخليفة الراضي ، وتولى الخلافة المتقي بالله (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ) أقر الأخشيدي في ولاية مصر .

ونشب قتال في عهد هذا الخليفة بين الترك والديلم ، كما ساءت للعلاقة بين أمير الأمراء (توزون) وبين الخليفة ، الشيء الذي حمله على الاستنجاد بالأخشيدي في مصر وكتب اليه أنه سائر للقائه ، واجتمعا معا بالركة سنة ٣٣٣ هـ .

ومكافأة للأخشيدي على خضوعه واجلاله ، خلع الخليفة عليه ، ومنحه تقليداً بولاية مصر وحق توريثها أبناءه مدة ثلاثين سنة ، وأذن له أن يولى ابنه « أونوجور » على مصر من بعده .

ولما تولى المستنفي بالله (٣٣٣ هـ - ٣٣٤ هـ) أقر ابن طنج في حكم مصر ، وقام الأخير بالدعوة له على المنابر في أنحاء دولته ، كذلك لم يطرأ تغيير على العلاقة بين الأخشيدي وبين الحكومة المركزية في عهد الخليفة المطيع (٣٣٤ هـ - ٣٦٣ هـ) .

وتعطى العملة المصرية المضروبة في أيام الأشيد ، تطور العلاقة بينه وبين الحكومة المركزية .

فالدنانير المضروبة في عهد الراضي وبعض عصر المتقي (ما بين سنتي ٣٢٣ هـ و ٣٢٩ هـ) تدل على أن الأخشيدي كان يدين بالطاعة المطلقة للعباسيين ، فقد كان اسم الخليفة ينقش وحده على السكة ، أما منذ سنة ٣٢٩ هـ فانا نجد اسم الأخشيدي مع اسم الخليفة مضروباً على العملة المصرية .

توفي « محمد بن طنج » سنة ٣٣٤ هـ فتولى على مصر ابنه « أونوجور » وقد وصل كتاب الخليفة المطيع الى « أونوجور » بتوليته مصر والشام وكل ما كان لأبيه من الولاية .

وفى عهد ذلك الوالى تحولت مقاليد الأمور فى دار الخلافة الى « معز الدولة ابن بويه » فتوجه اليه وسعى عنده وقدم له الهدايا حتى نال موافقة الحكومة المركزية على تولية أخيه من بعده .

وقد تولى « على بن الأخشيد » على مصر والشام وسائر الحرمين بعد وفاة أخيه سنة ٣٤٩ هـ ، بموافقة « كافور » وسائر القواد .

ولقد كان « كافور » - العبد الذى ترقى فى حاشية الأخشيد حتى أصبح مربى ولديه وموضع ثقته - هو المسئول الخقيقى عن الحكم فى البلاد ، وعن ادارتها وضمان خراجها أمام الخلافة فى بغداد ، طوال عهد « لونوجور وعلى » .

وحين توفى والى مصر سنة ٣٥٥ هـ تولى « كافور » عليها اما بتولية من الخلافة أو أن الرجل فرض نفسه عليها فاضطرت الى قبول الأمر الواقع وأقرته ، بالرغم من أنه ليس أخشيديا وليس صاحب حق شرعى فى حكم البلاد .

وبعد وفاة « كافور » سنة ٣٥٧ هـ اجتمع القواد وأولو الأمر وعقدوا لصبى اسمه « أحمد بن على الأخشيدي » ، لكن خالفهم فى ذلك - الحسن بن عبيد الله بن طنج - واستولى على ما كان « لكافور » فى « الرملة » ودعا لنفسه ، ثم قدم منهزما من القرامطة فى الشام ، وتولى تدبير أمور مصر فترة .

أخيرا - وضع دخول « جوهر الصقلى » مصر سنة ٣٥٨ هـ ، حدا للدولة الأخشيديية وقضى عليها وعلى سلطان الخلافة العباسية على البلاد المصرية كلها (٣) .

(٣) عن تفصيل حالة مصر السياسية وصلتها بالخلافة العباسية فى عهد الدولة الأخشيديية وفى فترة الولاة قبلها انظر :
سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين والمراجع المبينة من صفحة ٢٤ الى ص ١٠٢ - القاهرة سنة ١٩٥٠ م .

ومما سبق يتجلى عجز الخلافة العباسية في بغداد ، وضعف الجيش المصرى واضطراب أحوال الأمن في البلاد ، وليس هذا فحسب ، بل ان البلاد تعرضت لكوارث لقتصادية انهكت قواها ونشرت القحط والوباء فيها • فقد وقع غلاء في مصر على عهد أونوجور الأخشيدي سنة ٣٣٨ هـ ، فثارت الرعية ومنعوه من الصلاة في جامع « عمرو بن العاص » •

ثم وقع غلاء آخر سنة ٣٤١ هـ ، وتلفت الغلال والكروم والمزروعات وانخفضت مياه النيل فبسبب ذلك ارتفاعا في الأسعار ، وتكرر ذلك سنة ٣٤٣ هـ فزادت الأسعار ارتفاعا ، وساء الحال في البلاد ، وثار الشعب وكسر منبر الجامع بمصر •

بعد ذلك تعرضت البلاد لغلاء فاحش استمر تسع سنين من سنة ٣٥٢ هـ بسبب نقص النيل سنة بعد أخرى ، وعظم الغلاء بسبب ذلك ، وكثرت الفتن ونهبت الضياع والغلال وهاج الناس وماجوا •

ولما مات « كافور » كانت حالة مصر في منتهى السوء ، وقد زادت فيها الفتن والاضطرابات ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير ، واشتد خوف الناس ، وضاعت أموالهم ، وارتفع السعر بصورة زهيدة ، وانتهت أسواق البلاد ، واستمر سوء الحال الى سنة ٣٦٠ هـ حيث اشتد الوباء ، وتفشى المرض ، وكثر الموت لدرجة عجز الناس معها عن تكفين موتاهم ودفنهم (٤) •

وكانت هذه الحالة السيئة من الذوائف التي جعلت البعض يرسل إلى الخليفة الفاطمي « المعز لدين الله » ويدعوه إلى فتح مصر •

(٤) انظر : المقرئى : اغاثة الامة بكشف الغمة - من ص ١١ الى ص ١٤ - نشر وتحقيق محمد مصطفى زيادة ، وجمال الدين الشيال - القاهرة سنة ١٩٤٠ •

كما كان أول شيء فعله « جوهري » بعد الاستيلاء على البلاد ، هو النظر في الأسعار واتخذ من الإجراءات ما يكفل لاستقرار الأوضاع والقضاء على الجشعين .

أما من الناحية المذهبية فقد كان الشعب في مصر يدين بالمذهب السنّي الذي تعتنقه الخلافة العباسية وان كان الفاطميون قد أفلحوا في نشر دعائهم في أرجاء البلاد وكسبوا كثيرا من الأعداء ، تحولوا إلى المذهب الشيعي ، ودعوا إليه ، وساعدوا المصريين عند فتحهم لمصر .

فلم يغفل الخلفاء الفاطميون جانب التمهيد الفكري بالدعوة لفتح مصر بل ان دعاة الفاطميين لم يتوقفوا عن الترويج لمذهبهم ، ومحاولة كسب عناصر جديدة من بين المصريين ، وقد حقق هؤلاء قدرا كبيرا من النجاح في عهد الخليفة « المعز » ، الشيء الذي جعله يتحدث لرجال دولته بوقادة بلاده عن فتح مصر ، وأكد ذلك الخليفة لهم أن تلك البلاد ستخضع لسلطانه ، حتى انه قال في ثقة : « لتفتحن مصر بالأردية وحتى لو ذهب « جوهري » وحده لفتح مصر من غير قتال » (٥) .

وقد بنى هذا التصور على أساس معلوماته عن مصر ، تلك المعلومات التي بعث بها دعائه ، وكان يشغل وقت فراغه في مكاتبتهم ، وفي الرد على كتب ترد إليه من دعائه في المغرب وفي المشرق (٦) .

وقد كان يحق للخليفة الفاطمي أن يكون على ثقة من فتح مصر ، فقد نجح دعائه في استمالة كثير من الناس والجنود ، بل مال إلى المذهب الفاطمي عدد من كبار المسؤولين والموظفين في الحكومة .

(٥) انظر : اخبار المعز لدين الله لمجهول لوحة / ٣ ، المقرئ : اتعاط الحنفاء ص ١٦٢ ، ابن أبي الضياف : اتعاط اهل الزمان ج ١ ص ١٢٦ .
(٦) انظر : المقرئ : اتعاط الحنفاء ج ١ ص ١٣٧ .

وكان مجيء جيش الفتح الفاطمي بنساء على طلب من هؤلاء ،
ومثل ذلك أحد الأسباب المباشرة التي شجعت الفاطميين على ارسال
رجالهم لمصر ، وثقتهم في فتحها .

أكثر من هذا استقبل « كافر » نفسه بشيء من الرضى والارتياح
مجموعة من الدعاة أرسل بهم الخليفة « المعز لدين الله » يدعونه
لطاعة الشيعة والاعتراف بسلطانهم ، كما وعد عدد كبير من موخلفيه
ورجال بلاطه بتقديم الولاء للخليفة الفاطمي^(٧) ولهذا ليس غريبا أن
يجنئ الخليفة « المعز » ثمرة جهوده وجهود سابقيه ، ويتم فتح مصر
على أيامه .

وبعد ، فتلك صورة مصغرة لحالة مصر عند مجيء الحملات
الفاطمية اليها ، نأخذ بعدها في الحديث عن الغزوات ومحاولات
الفتح نفسها .



الغزوات الفاطمية لفتح مصر

حسلة الجيش الفاطمي الأولى (٣٠١ - ٣٠٢ هـ - ٩١٣ - ٩١٤ هـ) :
شعر الخليفة العباسي « المقتدر » بتعرض مصر للأخطار ، نتيجة
لقيام دولة شيعية في بلاد المغرب ، وعرف أن الفاطميين عازمون على
احتلال هذه البلاد ، لذلك ولي « تكيئا » على البلاد المصرية
سنة ٢٩٧ هـ ، وأخذ يحذره من الفاطميين ويطلب منه الاحتراس
من المغرب .

كان لتحذير الخليفة أثره في نفس الوالى ، فعين على «برقة»
— باعتبارها باب مصر — عاملا حازما ، وبعث معه بجيوش وجموع
كثيرة .

(٧) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٢٥ ،
والذهبي : تاريخ الاسلام ج ٧ ص ١٤١ مخطوط بدار الكتب المصرية .

وقد ترضى ذلك العامل شعب « برقة » وأحسن اليه ، لكن تلك البلاد ما لبثت أن تعرضت للغزو الفاطمى .

وذلك أن والى « توزر » للفاطميين قد بعث اليها بجيش بقيادة « حباسة بن يوسف الكتامى » وقد تمكن من احتلال البلد وهزم حاميتها ، وارتكب فيها أفعالا شنيعة^(٨) .

وساعد الجيش الفاطمى على الانتصار أن البلاد تعرضت لفتنة داخلية أثناء الهجوم عليها ، وعزل ولليها أثناء الحرب وتنافس الولاة عليها ، فمکن ذلك القائد « حباسة » من هزيمتهم وردهم جميعاً مقهورين الى مصر سنة ٣٠٠ هـ^(٩) .

وقد رأت الخلافة الفاطمية أن تستغل احتلالها « لبزقة » وتواصل منها للزحف على البلاد المصرية ، فكلف جيش « حباسة » بهذه المهمة وأرسلت اليه مدداً جديداً وصل به الى أكثر من مائة ألف مقاتل ، عدا أسطول بلغت وحداته مائتى مركب ، اتخذت مسارها فى البحر نحو الإسكندرية ، حيث تمكن الفاتحون من اختلال تلك المدينة بدون مقاومة^(١٠) .

وبعد أن تجمعت القوات الفاطمية عند تلك المدينة ، واصلت زحفها فى بلاد الوجه البحرى ، فنزلت على مرحلة من فسطاط مصر ،

(٩) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٧ وما بعدها ، بيروت سنة ١٩٠٨ م ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ١٤ ، ١٥ ، « لأن بول » المرجع والموضع المشار اليه آنفاً .

(١٠) انظر : الطبرى - تاريخ الطبرى ج ١١ ص ٤٠٩ المطبعة الحسينية بالقاهرة بدون تاريخ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣١ حوادث سنة ٣٠٢ هـ .

ثم رجعت فاحتلت موضعا بين الاسكندرية والفسطاط^(١١) عند بلدة
تسمى مشتول^(١٢) .

وصل الخطر الفاطمي على مصر ذروته ، فأرسل الوالى العباسى
الى الخليفة المقتدر يستحثه ويطلب امداده بالجنود ، ومن ناحية أخرى
أجذ ينادى بالنفير فى الشعب بالفسطاط ، ويجمع الناس ويحمسهم
للقتال ، فاستجابت الرعية له ، وكان خروجاً لم ير مثله فى الاجتماع
والنشاط وحسن التنظيم .

وقد التقت جموع المقاومة المصرية بجيوش « حباسة » واحتدمت
المعركة بين الطرفين ، وسلطت العساكر الفاطمية السيف على رقاب
المصريين فقتلت الكثير منهم واستمر ذلك أربعة أيام .

ثم طرأ عامل جديد ترتب عليه تحول النصر لصالح العباسيين ،
ففى أثناء القتال وصلت نجدة سريعة من « بغداد » ، شاركت فى
القتال ونقلت التفوق للجانب المصرى ، وحملت على الجيش الفاطمى ،
واضطرت « حباسة » ومن معه الى الفرار بالليل^(١٣) والاتجاه نحو
« برقة » حيث مات أكثر الفارين قبل الوصول الى تلك المدينة ،

(١١) انظر : الطبرى : تاريخ الطبرى ج ١١ ص ٤٠٩
(١٢) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٠ ، النويرى :
نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ١٥ . ومشتول السوق : قرية بمركز بلبيس شرقية
أما مشتول القاضى فتتبع مركز الزقازيق وانظر : محمد رمزى القاموس
الجغرافى للبلاد المصرية القسم الثانى الجزء ١ ص ٣٤ القاهرة ١٩٥٨ .
غير انه لا يمكن أن تكون إحدى البلدتين المذكورتين عند الأستاذ
« رمزى » هى المقصودة هنا والمرادة بلدة بنفس الاسم كانت تقع قرب
الجيزة انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٨ وما بعدها وكذلك سرور :
مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ٢٨ .
(١٣) انظر : عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى وهو الجزء
الثانى عشر من طبعة تاريخ الطبرى ص ٢٧ و ٢٨ ، وتاريخ الطبرى
ج ١١ ص ٤٠٩ .

أما من سلم من جند الفاطميين فقد وصل الى بلاد المغرب فى حالة سيئة^(١٤) ، وقد قتل الخليفة الفاطمى قائده حباسة لما وصل الى العاصمة الفاطمية بسبب هزيمته أمام أعدائه^(١٥) .

وقد تضافرت عدة عوامل ساعدت على هزيمة الجيش للفاطمى :

منها تلك النجدة التى أتت من عاصمة الخلافة العباسية ، ورفعت من معنويات المحاربين وزادت من حماسهم فى القتال .

ومن هنا حسن تنظيم الجيش المصرى ، وتفانى الوالى فى تهيئته وأعداده ، واستماتة أفرادهِ فى ميدان المعركة .

ومن هنا اختلاف حدث بين الفاطميين فى بلاد المغرب ، وحصلت أخباره لى مسامع « حباسة » ودفعه الى الانسحاب^(١٦) .

أضف لذلك أن الخلافة العباسية لم تتوان عن مصر ، وإنما أرسلت لها مددا على وجه السرعة ، ثم أخذت تعد جيشا كبيرا نذبت له العساكر الكثيرة ، وجعلت على قيادته « مؤنسا الخادم » وأمدته بالمال والسلاح^(١٧) . وزاد « المقتدر » فكتب الى عمال البلاد الشامية أن تسير مع الجيش العباسى لمحاربة الفاطميين ، ثم خلع على القائد وأرسله الى مصر^(١٨) .

لكن لم يقدر لهذا الجيش أن يلتقى بالجند الفاطمى ، فقد جاءه

-
- (١٤) انظر : المقرئى : الخطوط مجلد ١ ج ٢ ص ٣٠٥ تسعة أجزاء فى ثلاثة مجلدات طبع لبنان سنة ١٩٥٩ م ، الزويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ١٥٢ ، الكندى الولاة والقضاة ص ٢٦٧ وما بعدها .
(١٥) انظر : النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٥ .
(١٦) انظر : الطبرى : تاريخ الطبرى ج ١١ ص ٤٠٩ .
(١٧) انظر : تاريخ الطبرى : ج ١١ ص ٤٠٩ .
(١٨) انظر : عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٢٧ ، ٢٨ .

الخبر بانهمزام هؤلاء وهم فى الطريق ، ولما وصلوا الى مصر وجدوا الجيوش المغربية قد انصرفت منها وعادت الى بلادها (١٩) .

وقد سرت الخلافة العباسية لانتصار جيشها ، يدل على ذلك تصدق الخليفة العباسى بمائة ألف درهم عند سماعه أنباء النصر ، عدا أربعة آلاف دينار وزعها الوزير العباسى « على بن عيسى » شكرا لله عز وجل (٢٠) .

ومع أن الفشل كان نصيب الحملة الفاطمية الأولى ، الا أنه يلاحظ أن الدعوة الفاطمية نجحت فى كسب بعض الأنصار المصريين فى هذه الآونة المبكرة ، وقد وجد من سكان البلاد من يعطف على الفاطميين ويميل لدعوتهم .

بل كان من العوامل المشجعة على ارسال هذه الحملة ، مكائبات اشترك فيها الأقباط وأرسلت الى الخليفة الفاطمى ، يدل على ذلك شعر عاصر هذه الأحداث جاء فيه :

وأقبل جاهلا حتى تخطى وجاز بجهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه من أقباط مصر وغير قبطى
وكل كاتبوه وكاتبونا وكل فى البلاد له موطنى (٢١)

كما يدل على ذلك أيضا أن والى العباسى تقبى سنة ٣٠٢ هـ كل من أتهم بموالاته الفاطميين ومراسلاتهم ، وسجن كثيرا منهم ، وقطع أيدي وأرجل بعضهم (٢٢) بل إن الدعوة الفاطمية وصلت مدى

(١٩) انظر : عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٢٧ و ٢٨ .

(٢٠) انظر : عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٢٨ .

(٢١) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٢ ، والضدير فى

« اقبل » يعود على « حباسة » القائد الفادلى .

(٢٢) انظر : المصدر نفسه ص ٢٧٤ ، المقرئى : المخطوط مجاد

١ ج ٢ ص ٣٠٥ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ١٥ .

أبعد من مصر بكثير في عهد الخليفة الفاطمي الأول ، فقد أرسل اليه نصر بن أحمد أمير خراسان يقول :

« أنا في خمسين ألف مملوك يطيعونني ، وليس على المودى بهم كلفة ولا مؤونة ، فإن أمرني بالمسير سرت اليه ، ووقفت بسيفى ومنطقى بين يديه ، وإن أمرنى أن أدخل أهل الأرض فى طاعته » ، وكتب اليه آخرون غير « نصر » وأرسلوا اليه الأموال ، فرد عليهم أن « الزموا مراكزكم لكل أجل كتاب ... » (٢٣) .

يلاحظ كذلك أنه على الرغم من استعدادات الفاطميين ، وعنايتهم بأعداد الجيش القوى المدعم بأسطول بلغت وحداته مائتى مركب حربية لم يتم لهم فتح مصر ، ذلك ان الدولة العباسية كانت ما تزال تحتفظ بشيء من القوة ، وعرف الخلفاء مدى ما تتعرض له خلافتهم من أخطار اذا سقطت مصر فى يد الفاطميين .

لذلك سارعوا الى نجدة المصريين ، وقدموا خيرة الرجال وأكفأ القواد ولم ييخلوا بالعساكر العديدة المجهزة بالمال والسلاح .

أما مصر فسرعان ما تماسكت ازاء للخطر النازل عليها ، والتف عدد كبير من أهلها حول الوالى العباسى ، ولبوا نداءه فى الدفاع عن البلاد ببسالة وهمة ، وقد أثر على معنويات الشيعة ما انتشر بينهم من نشوب خلاف فى عاصمتهم ، الشيء الذى عجل برحيلهم وجعل هزيمتهم سهلة ميسرة .

يلاحظ أن تلك الحملة قد اتخذت خطا معيناً وسارت فيه ، فاخترقت الصحراء ، واحتلت طرابلس وبرقة ، ثم واصلت زحفها الى الاسكندرية ، حيث تابعت منها سيرها فى بلاد الوجه البحرى حتى وصلت الى الجيزة ، وقابلت العسكر العباسى وانهزمت أمامه .

(٢٣) انظر : المقرئى : المقفى الكبه ج ٤ ، لوحة ٢٢١ .

وواضح أن الاسكندرية كانت مقصد الحملة ، وأن دخولها البلاد كان من جانبها الغربى ، وسوف نرى أن ذلك الطريق ، وقلك الخطوة ، هي نفسها التى سارت عليها الحملات الفاطمية التالية ، كما اتبعتها كذلك بعض الحملات العسكرية التى تعرضت لها مصر فى تاريخها الحديث .

حملة الجيش الفاطمى الثانية (٣٠٧ - ٣٠٩ هـ : ٩١٩ - ٩٢١ م) :

لم تياس الخلافة الفاطمية لفشل جيشها فى فتح مصر ، وانما أخذت تستعد من جديد وترقب الفرصة المواتية لغزو البلاد المصرية . وقد أعدت لهذا الغرض جيشا جديدا قصدت به تطويق البلاد المصرية ومهاجمتها برا وبحرا .

وقد أعدت الخلافة حشودا كبيرة من كتامة ومن عرب افريقية وبربرها (٢٤) وتولى القيادة عليها أبو القاسم القائم ولى العهد .

أما البحرية فكانت عبارة عن أسطول يتكون من مائة مركب حربية منها ثمانون طرادا وعشرون عشارى (٢٥) وكان مقدمه «سليمان الخادم» . وقد سارت الجيوش الفاطمية الى مصر ، وتمكنت مقدمتها من احتلال «لوبيية ومراقية» (٢٦) مما حمل أهل الاسكندرية على الرحيل عنها ، وتركها واليها وخرج فى خمسة آلاف رجل ، فسهل ذلك على العسكر الفاطمى دخول تلك المدينة واحتلالها فى صفر سنة ٣٠٧ هـ .

(٢٤) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٤ .
(٢٥) انظر : العينى : عقد الجمان ج ١٤ ص ٢٢٣ ، النويرى :
نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ١٥ . والشوانى والطرادات من أنواع السفن ،
انظر تفصيل وصفها فى : العدوى : الأساطيل العربية ص ١٥٣ ،
عبد الفتاح عبادة : سفن الأسطول الاسلامى ص ٤ ، ص ٦ القاهرة
سنة ١٩١٣ .

(٢٦) لوبيية مدينة بين الاسكندرية وبرقة اما مراقية فهى اول بلد
يلقاه المتجه من الاسكندرية الى افريقية وانظر تعليق النجوم الزاهرة
ج ٣ ص ١٨٦ .

وقد كان الجيش الفاطمي قويا ترامت أنبأؤه الى أهل الفسطاط فأصابهم الرعب ، وهاجروا الى الشام برا وبحرا ، كما فر بعضهم الى القلزم والحجاز (٢٧) .

وزاد من صعوبة الموقف على الوالى العباسى « ذكا الأعور » أن الجند فى العاصمة ثاروا عليه ، وطالبوه بمرتباتهم وعطاياهم ، وامتنعوا عن الخروج معه الى الجيزة للقاء المهاجمين .

وقد حاول الوالى ترضيتهم ، فدفع لهم مرتباتهم ، وخرج فى طائفة منهم الى « الجيزة » واستعد للحرب ، فبنى حصنا على الحائط الغربى للمدينة ، وحفر خندقا حولها لحماية عسكره ، لكنه مات قبل وصول الجيش الفاطمى اليه (٢٨) .

توالى بعد ذلك مجيء المدد من الخلافة العباسية ، فجاء أمير الشام بعساكره نجدة للمصريين ، كما أرسل الخليفة نجدة قوية ، وولى « تكينا » على مصر . ونزل الوالى الجديد « الجيزة » وحفر خندقا ثانيا حولها (٢٩) وأتم استعداداته للقاء عدوه .

ثم قدمت الجيوش الفاطمية والتقت بجيوش العباسيين وقامت معركة بين الطرفين سنة ٣٠٧ هـ ، قتل فيها أربعة آلاف فاطمى ومثلهم من العباسيين ، ثم تفهقر العباسيون نحو الفسطاط ، ولستطاع الشيعة أن يستولوا على الفيوم وعدة بلاد من الصعيد ، وأن يحصلوا الخراج منها ، وأن يبعدوا جند مصر عن هذه النواحي (٣٠) .

(٢٧) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٩٦ .

(٢٨) انظر : العينى : عقد الجمان ج ١٤ ص ٢٢٢ ، النويرى :

نهاية الأرب ٢٦ ورقة ١٥ .

(٢٩) المصدرين والموضعين السابقين .

(٣٠) المقرئى : الخطط مجلد ١ ج ٢ ص ٣٠٥ ، وعريب بن

سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٤٤ .

فزعت الخلافة العباسية لهذا الزحف الفاطمي ، وأدركت أن مصر قاب قوسين أو أدنى من الضياع ، فأعدت قوة عسكرية جديدة قوامها ثلاثة آلاف جندي ، جعلت عليها « مؤنسا الخادم » جاءت الى البلاد المصرية ، وحفرت خندقا ثالثا في الجيزة (٣١) .

ووجد القائد العباسي الجديد أن خير طريق لاكتساب النصر هو ترضية الجند فأغدى عليهم الأموال ، حتى طابت نفوسهم ، وكثر جمعه ، وارتفعت معنويات أصحابه .

وكان الجيش الفاطمي قد تفرق في نواحي للصعيد والوجه البحرى ، فقرر العباسيون الاستفادة من هذا التفرق ، ووضعوا خطتهم على أساس حرب عدوهم في جبهات متعددة وقسموا أنفسهم الى مجموعات باغتت الفاطميين وأخذتهم على حين غرة .

فذهبت مجموعة مع القائد « جنى الخادم » المعروف بالصفواني (٣٢) وعسكرت في الجيزة لحمايتها ، وزحف « ثمل الفتى » على رأس قوة الى الاسكندرية ، فحارب رجال الشيعة من كتامة في هذه المدينة ، واستولى على أسلحتهم وأمتعتهم ثم عاد الى « للفسطاط » وأرسل القائد العباسي كذلك بعض جنده الى نواحي الفيوم حيث ينزل الفاطميون ، فتمكنوا من قتل عدد من عساكر الجيش الفاطمي وغنموا كل ما كان معهم .

اطمأن « مؤنس الخادم » بعد ذلك الى قوة أصحابه وضعف عددهم ، فسار على رأس الجموع سنة ٣٠٩ للقاء القائد الفاطمي ، وصادفت مقدمة الجيش العباسي بعض رجال الشيعة فهزمتهم وقتلت كثيرا منهم ، وفر الباقيون الى « أبى القاسم » فراعه أمرهم ، وعلم

(٣١) العيى : عقد الجمان ج ١٤ ص ٢٢٣ .

(٣٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهر ج ٣ ص ١٩٦ وهامشها

الثانى : طبعة وزارة الثقافة - القاهرة ١٩٦٣ .

باستعدادات للجيش العباسي ، كما تعرض الجند الفاطمي للأمرأخ والأوبئة ، وفقد أسطولله وحاميته في الاسكندرية ، كما هزمت جنده في غيرها .

كل هذا حمل الأمير الفاطمي الى الفرار من مصر الى افريقية ، حاملا كل ما سسهل حملة من المتاع وأحرق باقيه ، وسار في طريق قليل المياه ، فمات أكثر رجاله عطشا .

وهكذا عاد القائم الى بلاد المغرب سنة ٣٠٩ هـ بعد عامين وثمانية أشهر استغرقتها حملته دون أن تحقق نجاحا ، واستعاد العباسيون سيطرتهم على كل البلاد المصرية (٣٣) .

تلك كانت نهاية الحملة للبرية — فماذا كان مصير الأسطول ؟ وضعت خطة الجيش الفاطمي على أساس أن تتحرك القوات البحرية من قاعدتها ، بعد وصول مقدمة الجيش الى الاسكندرية ، فذلك يساعدها على القيام بواجبها وهي في كامل قوتها . ويخفى دورها عن عيون المصريين والعباسيين ، وقد تم وصول هذه القوات الى الاسكندرية سنة ٣٠٧ هـ ، وعلى قيادتها « سليمان الخادم ويعقوب الكتامي » (٣٤) .

وعلم العباسيون بخبر الأسطول الفاطمي ، فأرسلوا الى عاملهم على « طرسوس » (*) يطلبون انجادهم بالعساكر والمراكب ، فبعث لهم خمسة وعشرين مركبا غنية بالمعدات والنفط وقد وصلت الى « رشيد » ، واشتبكت في معركة بحرية مع الفاطميين واقتتل الطرفان قتالا شديدا .

(٣٣) انظر : عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ص ٤٤ .

(٣٤) انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٩ حوادث سنة ٣٠٦ هـ ،

المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٠٣ .

(*) طرسوس : مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم

ياقوت : معجم البلدان .

كانت العوامل الجوية فى صالح المراكب العباسية ، فقد هبت ريح شديدة ألقت بوحداث الأسطول الفاطمى الى البحر ودمرتها ، واستسلم من فيها ، وأسروا بالأيدي ، وقتل منهم الكثير ، وكان من بين المأسورين أمير الأسطول نفسه ورؤساء المراكب ، وقد نزل للجميع « الفسطاط » .

وأمر والى مصر فأطلق سراح أهل برقة وطرابلس والقيروان وصقلية ، أما أهل كتامة وزويلة فقد قتلوا جميعا ، وقيد قائد الأسطول ورؤساء المراكب وطيف بهم فى الفسطاط ثم قتل بعضهم وسجن الآخرون .

وكانت هزيمة الأسطول هذه واستيلاء العباسيين على شاطئ الاسكندرية ، وحصر القائم وعزله عن بقية جنده ، بالإضافة الى الامدادات المتوالية على مصر ، وانتشار الأمراض والأوبئة فى الجيش الفاطمى ، كل هذا فت فى عضد القائم ، وجعله يجبن عن لقاء الجند المصرى العباسى ، وآثر أمام الحشد والاستعداد الحربى لعدوه ، العودة الى « برقة » ومنها الى بلاد المغرب سنة ٣٠٩ هـ كما قدمنا (٥) .

ولم يكن اللون للعسكرى هو كل شئ فى حملة الجيش الفاطمى الثانية ، وانما وجد بجانبه لون آخر تمثل فى الحروب الكلامية ، وحملات الدعاية بين الفاطميين والعباسيين .

يوضح ذلك المكاتبات والأشعار التى بعث بها « أبو القاسم الشيعى » الى أهل مصر ، يوبخهم ويعيب عليهم نكوصهم عن نصر

(٣٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٨ ، العينى : عقد الجنان

ج ١٤ ص ٢١٧ و ٢١٨ ، النويرى : نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٢٥ ،

تاريخ أبى الفدا مجلد ٢ ص ٧٣ و ٧٤ .

الشيعة مع علمهم بأنهم ينتصرون للحق ، ويتحملون المشاق فى سبيل
اعزاز كلمة الله (٣٦) .

ومع تكريس الفاطميين كل جهودهم — عسكرية ودعائية — الا أن
انفشل كان نصيبهم فى هذه الحملة ، كما كان فى سابقتها ، ومرد
ذلك عدة أمور :

١ — الفجيعة الكبرى التى منوا بها فى أسطولهم ، فقد دمر تماما
بكل سفنه ، وقتل قائده وخيرة رجاله ، وأذل العباسيون من أسر منهم .

وقد أوقع هذه النكبة بالأسطول الفاطمى وحدات عباسية لم
تتجاوز ربع سفنه ، وهذا من شأنه أن يوهن قوى الفاطميين ويؤثر
على معنوياتهم ، خاصة وقد تعرضوا لذلك فى بداية الحملة ، فشلت
حركة بحريتهم فى هذه الفترة المبكرة ، وضاع على الجيش الدور
الذى رسم له للقيام به .

٢ — الامدادات المتوالية والرجال الأقوياء الذين ظلت « بغداد »
توفدهم الى مصر .

فلقد قابلت الخلافة العباسية محاولة الفاطميين احتلال مصر
بكل قوتها ، ووجهت خيرة الرجال وأقوى العساكر للدفاع عنها ،
لأنها كانت تعرف أن ضياع مصر يعنى زلزلة الخلافة العباسية واختلال
مركزها ، ولهذا لم تبخل بقوادها وخيرة أفرادها بحسرة أرهبت
« القائم » الفاطمى وحملته على مغادرة البلاد .

٣ — كانت العوامل الطبيعية والجوية كذلك ضد الفاطميين ،
فقد قابت الريح أسطولهم وساعدت على تحطيمه ، كما أن الأوبئة

(٣٦) انظر امثلة لهذا الاثر عند : عريب بن سعد : حله تاريخ

الطبرى ص ٤٢ وما بعدها .

والمجاعات عرضت الكثير من أفراد الجيش الفاطمي وفرسانه للموت ، وأضاعت فاعليتهم ، وجعلت القائد الفاطمي يفضل الانسحاب حتى لا يتصدى لعدو كامل العدة تاهم السلاح وهو فى حالة لا تمكنه من مواجهته .

٤ - احتلال رجال الأسطول العباسى للاسكندرية ، وقضاؤهم على حامية الفاطميين فيها - بعد تحرك القائم ومسيره نحو العاصمة - جعل قوات الشيعة محصورة بين قوتين عباسيتين ، تلك التى احتلت الاسكندرية وحطمت الأسطول الفاطمى فيها ، تم زحفت فى اتجاه العاصمة ، والقوات الأخرى التى كانت معسكرة فى الجيزة ، وقد ترك هذا الوضع الفاطميين فى حالة سيئة ودفعمهم الى العودة من حيث أتوا .

٥ - لم ينجح الفاطميون فى استئمانه كثير من الناس وتحويلهم للمذهب الشيعى ، فقد كانت ميول أغلبية الناس سنية ، يدل على ذلك الثقافهم حول « مؤنس الخادم » حين قدم نجدة من « بغداد » ، فقد قويت نفوسهم به ، بعد أن ترضاهم ودفن لهم مرثباتهم .

حقيقة تجمع قوم وانفقوا على الخروج على والى مصر العباسى ، عندما جاء القائم الفاطمى الى الفيوم^(٣٧) ، لكن عدد هؤلاء كان محدودا ، ولا يعنى خروجهم على العباسيين أنهم قد تحولوا الى المذهب الشيعى ، وانما يمكن تعليل ولائهم بذلك ، كما يمكن رده لأسباب أخرى .

وعلى كل حال فلم يشكل هؤلاء خطرا ، وأمكن القبض عليهم فى سهواة ودون أن يسببوا لارتباك فى الجيش المصرى العباسى ، ويتضح من العرض السابق أن الجيش الذى تولى الدفاع عن مصر ضد الفاطميين فى هذه الحملة جيش كان يتألف من عناصر ثلاث تصافرت وتعاونت فيما بينها على اللقاء الهزيمة بالجيش الفاطمى ، هذه العناصر هى :

(٣٧) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٧ و
Lone Roolee : the history of egypt. p. 80.

- (١) جيوش الخلافة للعباسية التي قدمت من « بغداد » .
- (٢) الجيش الشامي الذي بعث به أمير الشام بناء على رغبة الخلافة العباسية .
- (٣) المصريون الذين اشتركوا في الدفاع عن بلدهم ، ورضوا عن واليهم بعد أن أراح نفسياتهم ، ودفع لهم رواتبهم المتأخرة .
- على أن ينبغي ألا نغفل دور أسطول « طرسوس » الذي أنجد الخلافة العباسية وألحق هزيمة مرة بأسطول الفاطميين .

حملة الجيش الفاطمي الثالثة (٣٢٣ هـ - ٩٣٤ م) :

شغلت الأحداث في بلاد المغرب الخلافة الفاطمية ، وصرفتها عن فتح مصر بعد فشل حملتها الثانية ، وآثرت أن تصرف النظر عن هذا الهدف إلى حين وأن تركز كل جهدها لتثبيت حكمها والقضاء على الخارجين عليها .

وظل الوضع كذلك حتى كانت سنة ٣٢٣ هـ حيث وجد ظرف حارل الفاطميون استغلاله والاستفادة منه في احتلال الديار المصرية .

ذلك أن مصر كانت في حالة من الفوضى بسبب التنافس والتقاتل على ولايتها ، وقد نجح « محمد بن طنج الأخشيد » في الانتصار على منافسيه ، وصدر مرسوم من الخلافة العباسية بتوليته على مصر ، لكن ذلك لم يرق لبعض الأهالي في البلاد ، وأعلنوا احتجاجهم وخرجوا ناحية الفيوم ، فأرسل اليهم الوالي جيشا تمكن من هزيمتهم .

توجه بقايا المهزومين نحو « برقة » وأرسلوا إلى الخليفة الفاطمي يغرونه بارسال جيش من عنده ليستولوا به على مصر باسم الفاطميين ، وبرروا طلبهم بأنهم يعرفون البلاد ويدرسون المداخل والطرق التي تمكن من السيطرة عليها ، ولقى الطلب استجابة من جانب

الفاطمين ، وقررت الخلافة الفاطمية امداد الفارين بالعساكر ، وأرسلت
الى « كتامة » الذين « ببرقة » تطلب منهم الانضمام اليهم ، وبعثت
من العاصمة بقوات كذلك ، وتجمع كل هؤلاء وساروا الى الاسكندرية .

بلغ ذلك للوالى « محمد بن طنج » فاستعد للقاء الفاطميين ،
وندىب الناس للقتال ، وأخرج العساكر ، ووزعها على مداخل البلاد
فى الاسكندرية وفى بلاد الصعيد .

ثم التقى الجيش العباسى بجيش المغاربة فى المنطقة ما بين
« تروجة وأبلوق »^(٣٨) وقامت بينهما معركة انهزم فيها جيش الفاطميين
وقتل منهم عدد وأسر آخر ، وفر من نجا الى « برقة » وقضى على
كثير من المتمردين .

ثم تتبع الجيش الأخشيدي الفارين وقتل من أدركه ، وعاد بالأسرى
قصيف بهم فى الجيزة وكان فيهم عدد من وجود للفاطميين ومن
مشاهير قوادهم^(٣٩) .

وهكذا كان حظ هذه الحملة الاخفاق كسابقتها ، لأنها صادفت
فى مصر واليا حازما استطاع أن يجمع الناس من حوله ، وأن يكون
جيشا قويا بلغ خمسة عشر ألفا ردت المهاجمين والمتمردين .

وقد صادف اعداد هذه الحملة العام الأول من خلافة القائم
بعد وفاة والده ، وكان عندئذ مشغولا بتأمين الحكم فى بلاد المغرب .

فقد أرسل قائده « ميسورا الفتى » فى نفس الظروف لمحاربة

(٣٨) تروجه محلها الآن كوم تروجة تبعد زاوية صقر مركز
بى المطاير بحيرة ، وانظر تعليق النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٠ وأبلوق
الآن هى كفر سليم مركز كفر الدوار بحيرة انظر محمد رمزى القاموس
الجغرافى القسم الثانى ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٣٩) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

الثائر « ابن أبى العافية » كما بحث بأسطوله لفتح « جنوة »
وبلاد للروم (٤٠) •

لذلك لم يتمكن من اعداد جيش يصل الى المدى الذى وصلت اليه
الجيش السالفة ، عندما كانت تعد للحملة أصلا لفتح مصر ، ومع ذلك
فقد كان استتجاد الثوار بالخليفة فرصة لم يرد لها أن تفلت من بين
يديه وان لم تفده شيئا •

محاولة سلمية :

توطد مركز « ابن طنج » فى مصر والشام بعد هزيمة الفاطميين ،
وأعاد للبلاد الأمن والنظام ، وقضى على كل المعادين والمنافسين له ،
الشيء الذى جعل الخليفة العباسى يكافئه باضافة لقب (أخشيد) —
ويلقب به ملوك فرغانة — الى اسمه ، ودعى له بذلك على المنابر
المصرية والشامية (٤١) •

كل ذلك جعل الخليفة الفاطمى « القائم » يترك أساليب العنف
والقتال ، ويلجأ الى سياسة المسالمة واللين ، فقد يكون ذلك أجدى
وأعود على الخلافة بالفائدة والنفع •

لذلك أرسل كتابا الى « محمد بن طنج الأخشيد » يستجلب مودته ،
ويدعوه لما فيه منفعة ، ونثبث هنا هذا الكتاب ، لأنه يمثل تحولا
فى سياسة الفاطميين نحو مصر ، خلال فترة قوتها أيام محمد الأخشيد :
« قد خاطبتك — أعزك الله — فى كتابى المشتمل على هذه
الرقعة بما لم يجرى فى عقد الدين ، وما جرى به الرسم من سياسة
أنصار يستجلبون ، وضمنت رقعتى ما لم يطلع عليه أحد من كتابى

(٤٠) انظر : ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢١٧ •

(٤١) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٨ ، حسن ابراهيم :

تاريخ الاسلام ج ٣ ص ١٣٧ •

وذوى المكافئة عندي ، وأرجو أن تردك صحة عزيزمك وحسن رأيك الى ما أدعوك اليه ، فقد شهد الله على ميلي اليك ، وايتارى لك ، ورغبتي في مشاطرتك ما احتوته يميني ، واحتوى عليه ملكي ، وليس يتوجه لك العذر في التخلف عن اجابتي ، لأنك قد استغرقت مجهودك في مناصحة قوم لا يردون احسانك ، ولا يشكرون اخلاصك ، يخلفون وعدك ، ويخفرون ذمتك ، لم يعتقد فيهم أحد حسن المكافأة ، ولا جميل المجازاة ، وليس ينبغي لك أن تعدل عن منهج من نصحك وايتار من آثرك الى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك ، وأبنا أعلم أن طول العادة في طاعتهم قد كره اليك للعدول عنهم ، فان لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق ، فاننى أراضى منك بالمودة والأمر والطاعة ، حتى تقيمنى منك مقام رئيس من أهلك تسكن اليه في أمرك ، وتعمل عليه بمثل ذلك ، وإذا تدبرت هذا الأمر علمت أن الذى يحملنى على التخطاى لك وقبول الميسور منك ، انما هو للرغبة فيك ، وأنت حقيق على حسن مجازاتى على ما بذلته ، والله يريك حسن الاختيار فى أمرك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » (٤٢) .

ولوضح من الرسالة أن الأخشيدي قد ارتفعت مكانته حتى خطب وده الخليفة الفاطمى ورجاه أن ينضم الى جانبه ، كما أنها تدل على أن الفاطميين لم يكن يعنيههم الا طاعة الناس لهم ، ولو كان ذلك على حساب الدين . » قد خاطبتك بما لم يجز لى فى عقد الدين » .

ومهما يكن من أمر فقد وقف والى مصر ، موقف المتردد من هذه الرسالة وأجل الاجابة عليها يوما بعد يوم ، الى أن ساءت العلاقة بينه وبين الخلافة العباسية ، بسبب موقفها السلبي من نزاعه مع أمير الأمراء « ابن رائق » عندئذ فكر فى أن يحول مصر فاطمية ، ويخطب

(٤٢) ابن سعيد الأندلسى : المغرب ص ١٧٥ ، ١٧٦ ج ١ طبعة جامعة القاهرة سنة ١٩٥٣ تحقيق زكى محمد حسن وآخرين ، حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١١٩ ، ١٢٠ .

فى البلاد باسم الفاطميين ، فأرسل الى خطيب المسجد ، والى الشخصيات العلوية المهمة وفاوضها فى ذلك (٤٣) .

ومع ذلك فيرجح أن الخطبة الفاطمية والدعاء لهم ، لم يتم ، ذلك لأن أهل السنة كان نفوذهم ما يزال قويا فى البلاد ، ولم يكن الرأى العام فيها قد اتجه الوجهة الشيعية .

وقد انتهت المشكلة بتولى « ابن رائق » على معظم الشام ، وتولى « الأخشيد » « مصر والرملة » ، وعمل كل منهما باسم العباسيين ثم مات ولى الشام فى حرب مع الحمدانيين فزحف الأخشيد الى دمشق وضمها ثانية لأملاكه سنة ٣٣٠ هـ (٤٤) .

حملة الجيش الفاطمى الرابعة والأخيرة على مصر :

توقف ارسال الحملات العسكرية الى مصر ، فى الفترة التى بقيت من حكم القائم (٣٣٤ : ٣٤١ هـ) ، لأن الحوادث فى بلاد المغرب ، كانت قد استنفذت كل مجهودات الدولة ، وأتت على قدراتها المالية .

كذلك عنى الخلفاء الفاطميون باعداد جيوش بعثوا بها الى المغرب الأقصى والأوسط ، لتعيد هذه البلاد الى قبضتهم ، وتنتقم من الخارجين عليهم .

ولم يكد الخليفة « المعز » ينجح فى تحقيق ذلك ، وتدين له البلاد ما بين برقة والمحيط الأطلسى ، حتى أخذ يتوجه بنظره نحو

(٤٣) انظر نصا لمحادثة بين الأخشيد وداع فاطمى حول هذه القضية فى :

ابن سعيد : المغرب ص ١٧٦ و ١٧٧ ، حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٢١ و ١٢٢ .

(٤٤) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥١ الى ص ٢٥٤ .

مصر ، ويعمل للاستيلاء عليها ، وأنشأ يعد للعدة لذلك منذ
سنة ٣٥٥ هـ (٤٥) .

فأمر بحفر الآبار في الطريق من القيروان الى مصر (٤٦) كما أمر
باتخاذ الأماكن على طول ذلك الطريق لراحة للجند .

وكانت أحوال مصر قد اختلت ، واضطربت أوضاعها بشكل
يشجع على غزوها ، فقد توفي والى مصر « كافور » سنة ٣٥٧ هـ ،
وتولى من بعده ، طفل على البلاد ، وعهد بالادارة المالية الى
« أبى الفضل جعفر بن الفرات » فأذى الناس وصادر أموالهم وقبض
على جماعة منهم ، وتعرض لثورة العساكر الأخشيدية والكافورية (٤٧)
وطالبوه برواتبهم فى الوقت الذى لم تصل فيه أموال الخراج
وللضمانات الى الخزانة (٤٨) ، كما وصل فى هذه الأثناء جيش
الأخشيديين منهزما من القرامطة .

وهذا الجو السيئ فى مصر حمل جماعة الى مكاتبه الخليفة
« المعز لدين الله » ، يطلبون منه إيفاد عساكره اليهم ، وتخليصهم
مما هم فيه من فوضى .

كما هرب الى بلاد المغرب « يعقوب بن كلس » وكشف حقيقة
الواضع الداخلى فى مصر ، وشرح نواحي ضعفها ، وهون عليه
أمر احتلالها (٤٩) .

(٤٥) انظر : المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ١٣٨ .
The history of egypt. p. 101.

(٤٦) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤٨ ، ولينبول :
(٤٧) الأخشيدية ممالك الأسرة الأخشيدية وأنصارها ، والكافورية :
أنصار كافور الذين رماهم الى المتاصب العالية فى الدولة - حسن إبراهيم :
تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٢٣ .
(٤٨) أخبار المعز لدين الله لمجهول لوحة رقم ٢ و ٣ مخطوط
مصور بدار الكتب المصرية .

(٤٩) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١ .

بل إن أحد الاخشيين ، شارك فى مكتبة « المعز » حين نصحه
داع فاطمى بذلك ، وأرسل اليه يدعوه لأخذ البلاد .

وقد أكد دعاة الشيعة فى مصر اضطراب الوضع فيها ، وأن الفرصة
قد أصبحت مواتية لارسال جيش اليها وقالوا : ان كافورا كان الحجر
الذى يمكن أن تتحطم عليه محاولات الفاطميين لفتح مصر ، وما دام
قد مات فقد أصبح أمر الفتح سهلا : « اذا زال الحجر الأسود ،
ملك مولانا « المعز » الأرض كلها ، وبيننا وبينكم الحجر للأسود
يعنون كافورا » (٥٠) .

وقد أرسل الخليفة « المعز » بنودا الى دعائه ، وطلب منهم
توزيعها على من يبيع من الجند ، فاذا ما قربت العساكر الفاطمية
نشرها (٥١) .

تخلص من ذلك كله بأن الحالة فى مصر كانت مهيئة والظروف
مناسبة لفتح ذلك البلد الهام ، وقد اتخذ الخليفة « المعز » الخطوات
العملية اللازمة لتحقيق ذلك للمهدف .

فأمر قائده « جوهر » — بعد أن جاء فى عسكر عظيم من كتامة
والبربر من بلاد المغرب — أمره بأن يستعد للتوجه نحو البلاد المصرية ،
فحشد ذلك القائد الكتامين ولزويليين وعامة البربر فى جمع كبير
برز به الى « رقادة » .

وأراد الخليفة الفاطمى أن يترضى كل أولئك الجنود ، ففتح لهم
بيت ماله ، ووزع عليهم جميعا من عشرين الى مائة دينار ، وعم عطاؤه
كل للناس ، وفتح أسواق « القيوان » لبيئاع الجند منها ما هم فى
حاجة اليه .

(٥٠) انظر : سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٧ ص ٣٠
مخطوط بدار الكتب المصرية .
(٥١) انظر : المقرئى : اتعاظ الحنفاء ص ١٤٧ .

وجهاز أكثر من مائة ألف - هم عدة الجند الفاطمي - بالأسلحة والمعدات ، وزود حملتهم بأكثر من ألف ومائتي صندوق من المال ، وزاد « المعز » فأمر « جوهرا » أن يأخذ من بيت المال ما يريد زيادة على ما أعطاه ، وجعل يخلو به كل يوم ويوصيه ويؤكد له أن فتح مصر سيكون على يديه .

وحيث أن فتح مصر ، قد ارتبط بالقائد « جوهرا » ، وتم على يديه تحقيق الأمل الفاطمي ، فإن من المناسب أن نقدم ترجمة لذلك القائد هدفها التعريف به :

هو « جوهرا الصقلي » : ولد في أرض الروم فلقب بالرومي وعاش في صقلية فلقب بالصقلي .

وقد كان السلاف أو الصقالبة - وهم سكان المنطقة ما بين القسطنطينية وأرض البلغار - يدخلون البلاد الإسلامية أرقاء .

واشتهرت صقلية خاصة بكثرة العبيد فيها ، لطبيعة هذه الجزيرة ، ولأنها المركز الأساسي للقمح الذي كانت تحتاجه روما (٥٢) .

وينتمي « جوهرا » قائد الفاطميين إلى طائفة العبيد من هذه الجزيرة ، وقد أحضره إلى القيروان خادم يعرف بصابر ، انتقل منه إلى خادم يعرف بخيران ، ثم انتقل إلى خفيف الخصى ، وقد توسم فيه النجاة فأهداه إلى الخليفة الفاطمي « المنصور » فجعله حارسه الخاص (٥٣) ثم انتقل إلى الخليفة المعز بعد وفاة المنصور ، فأعتقه ذلك الخليفة ، وسرعان ما ترقى في المناصب على أيامه حتى تولى الكتابة له ، ولقب بالكاتب ، واختص بالمعز ، وكان كوزيره الخاص .

(٥٢) انظر : دائرة المعارف الإسلامية مادتي صقالبة وصقلية .

(٥٣) انظر : ميشيل إماري : المكتبة الصقلية ج ١ ص ١٩٧ نقلا

عن القضاعي .

وكنى بأبي الحسن ، ثم تولى قيادة الجيوش وأضحى من أبرز القواد الفاطميين .

وكان أول عمل حربى قام به هو حملته على بلاد المغرب سنة ٣٤٧ هـ ، فقد استطاع أن يفرض هيبة الفاطميين على تلك النواحي وأعاد فتح سجلماسة وثيرت واستولى على فاس وأخضع سبتة وطنجة ، وانتهى فى حملته الى المحيط ، وكانت تلك الحملة بداية مجده الحربى وشهرته كقائد عسكرى .

ثم نجح بعد ذلك فى تحقيق أمل الفاطميين الأكبر حيث تمكن من فتح مصر كما سيأتى ، واستمر يحكم من القاهرة نيابة عن « المعز » حتى سنة ٣٦٢ هـ ، وقد تمكن من هزيمة جيش للقرامطة على أبواب مصر ، وفتح بلاد الشام وحول مصر تدريجيا الى شعائر الشيعة .

ولما حضر الخليفة « المعز » الى مصر استقبله بحفاوة بالغة ، لكن يبدو أن الخليفة رأى سيطرته على كل شىء ، فأثر ابعاده عن مجرى الحوادث حتى لا يؤثر ذلك على سلطانه ، واستمر « جوهر » متوليا عن الأنظار طوال عهد الخليفة المعز ، ثم ظهر على مسرح الحوادث ثانية حين ندبه الخليفة العزيز للقتال « الفتكين » كما سيأتى .

ولما تحالف « القرامطة والفتكين » عليه انسحب الى مصر ، وطلب من « العزيز » الخروج بنفسه ، فكون الخليفة جيشا خرج على رأسه ، وكان « جوهر » على رأس الطليعة فى ذلك الجيش ، وقد استطاع الفاطميون احراز النصر على أعدائهم لكن « جوهر » عاد بعد ذلك الى زوايا للنسيان ثانية ، واستمر فى شبه عزلة الى أن توفى سنة ٣٨١ هجرية (٩٩٢ م) .

وقد كان الرجل سمحا محسنا للناس ، ولذلك لم يبق شاعر
إلا رثاه (٥٤) .

مهما يكن من أمر فقد أذن الخليفة للجيش بالمسير ، وخرج
بنفسه - ومعه كل أولاده وحاشيته - لتوديع « جوهر » ، وأمرهم
بالترجل اكراما له ، وحتى تكون معنويات القائد عالية ، زلذ الخليفة
فى تقديره وتشريفه ، فرجع الى قصره ، وأرسل اليه كل ما يلبسه
سوى سراويله وخاتمه ، وأمر والى « برقة » بالترجل لقائده عند
مروره عليه ، ولم يقبل منه مائة ألف دينار مقابل أن يعفى من ذلك (٥٥) .

أخذ الجيش للفاطمية فى المسير يوم السبت ١٤ ربيع أول
سنة ٣٥٨ هـ ، وأخذ السير فوصل الى البلاد المصرية فى جمادى
الآخرة ، ووصلت أخبار مجيئه الى مصر فازداد لضطراب أهلها ،
وتضاعف رعبهم ، واجتمع أصحاب الرأى يرأسهم الوزير « جعفر بن
الفرات » واستقر رأيهم على مراسلة « جوهر » فى طلب الصلح
على أن تبقى لهم ضياعهم واقطاعاتهم ، واشتروا لأنفسهم شروطا .

ثم سار جماعة من الأعيان - فيهم القاضى والشريف أبو جعفر
مسلم - الى القائد الفاطمى ، فالتقوا به عند « تروجة » بالقرب من
لاسكندرية ، وعرضوا عليه أمان المصريين وشروطهم فأكرمهم ووافق
على طلبهم .

(٥٤) انظر : دائرة المعارف الاسلامية مادة « جوهر » ، خطط
لقريزى مجلد ٢ ج ٢ ص ٢٠١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة
ج ٤ ص ٢٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان - أجزاء - ج ١ ص ٣٢٥
ترجمة ١٤١ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - القاهرة سنة ١٩٤٨ م .
(٥٥) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٥ ، وأخبار
لمعز لدين الله لجهول لوحة / ٤ ، وابن أبى الضياف : اتحاف أهل
الزمان ج ١ ص ١٢٦ ، ولينبول : The history of egypt, p. 55.

بيد أن الأمور لم تسر في العاصمة كما أراد لها القادة أن تسير ،
وأخذ الاخشيدية والكافورية — بعد ذهاب الوفد الى جوهر — يخرجون
ممتلكاتهم ويستعدون لحرب الفاطميين ، وقام في المساجد من يحمس
المصريين ، ويحرضهم على قتال الشيعة ، ويذكر مساوئهم في بلاد
المغرب ، واتهموا الوزير بقلّة المعرفة وأنه شرع في ائتلاف البلاد
وسفك دم أهلها حينما راسل « جوهر » ، وترك هذا الكلام أثرا
عند بعض الناس ، فرجعوا عما سألوه من الأمان •

ولما عاد اليهم الشريف وصحبه ، وقرأوا سجل الأمان عليهم ،
وبينوا لهم استجابة القائد الفاطمي لما طلبوه من الولاية والاقطاع ،
احتدم النقاش بينهم وبين الشريف ، وحاول أن يغريهم بالتسليم
ولكن ذلك لم يجد شيئا ، فقد أصر القوم على القتال ، ونظموا
عساكرهم وحيأوا صفوفهم ، وولوا على أنفسهم « تحرير سويدان »
وقالوا ما بيننا وبين « جوهر » إلا السيف ، ثم ساروا نحو الجيزة
للقاء الفاطميين بعد أن أعدوا للأمر عدته •

وصل جيش الفاطميين الى جموع المدافعين ، وقامت معركة أصر
فيها رجال ، وأخذت خيول •

ثم وضع « جوهر » خطة للحرب والوصول الى القساط ،
ومضى نحو « منية الصيادين » حيث استأمن اليه من بها من الاخشيدية
وأمدوه بعشاريات ، وسار الباقون نحو « منية شلقان »^(٥٦) ليحاربوا
الفاطميين عندها •

(٥٦) انظر : تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٣٢ طبع بيروت سنة
١٩٠٩ م ومنية الصيادين هي الآن ميت النصارى المشتركة في السكن
مع ناحيتي امبابة ووراق الحضر مركز امبابة ، ومنية شلقان هي اليوم
قرية شلقان الواقعة شرقي القناطر الخيرية مركز قليوب انظر تعليق
النجوم الزاهرة في ج ٤ ص ٣١ •

نظر « جوهر » فرأى تجمع أعدائه على الجانب الآخر من النهر ، فقرر أن يعبر إليهم مهما كلفه ذلك من ثمن ، ولذلك ندب أحد قواده — جعفر بن فلاح — وأمره بعبور النهر إلى الاخشيدية قائلاً « لهذا اليوم أرادك للمعز » ، فعبر الرجل في بعض أصحابه ، وخرج إليه الاخشيديون ، ووقع قتال مات فيه كثير من الاخشيديين وأتباعهم . وهرب من بقى منهم نحو مصر ، فدخلوها في الظلام ، وأخذوا ما قدروا عليه ثم ولوا الأدبار .

تجمعت للنساء والعامّة بالعاصمة المصرية بعد معرفتهم بهزيمة الاخشيديين ، وسألوا الشريف أبا جعفر مسلم أن يتوسط لهم عند « جوهر » لاعادة الأمان ، فأجابهم القائد الفاطمي إلى طلبهم ، وبعث رسولا معه علم أبيض طاف به في العاصمة ، وطمأن للناس ومنع السلب والنهب عنهم ، وساعد ذلك على هدوء البلد ، وسكون شعبها ، خاصة حين قرىء عليهم سجل الأمان الذي بعث به « جوهر » إليهم .

وقد أكد ذلك السجل وحدة المسلمين ، ورسم صورة لحال الدولة العباسية في ذلك الوقت ، وحدد الأهداف والمقاصد التي بعثت الفاطميين على فتح البلاد ، ووضح سياستهم ومذهبهم الديني ، واحترامهم عقائد المسلمين ومشاعرهم ، ودعا الناس إلى تقوى الله ، وإلى الخلق القويم ، ونشر العدل في الناس باعتبار ذلك ركيزة أساسية لحكم سليم (٥٧) .

وظل « جوهر » حريصا على مشاعر الناس في مصر ، وتدرج في عملية قلب البلاد إلى بلاد شيعية ، وجعل ذلك على مراحل بدأت

(٥٧) انظر نص سجل الأمان في :

المقريزي : اتعاظ الحنفيا من ص ١٤٨ إلى ١٥٤ ، والحداداري : زبدة الفكرة ج ٦ لوحة ٢٠١ وما بعدها .

بذكر اسم « الخليفة المعز » في الخطبة ، وانتهت باقامة الشعائر الفاطمية في الصلاة والأذان بجامع « ابن طولون » سنة ٣٥٩ هـ ، ثم جامع مصر العتيق (عمرو بن العاص) وبقية الجوامع بعد ذلك (٥٨) .

مهما يكن من أمر ، فقد بدأ الجيش الفاطمي عبور الجسر الى العاصمة المصرية ، مع عساكره بالسلاح والدروع والجواشن ، وقد استغرق دخول الجند سبعة أيام متوالية ، وكان بين أيديهم مال وصل الى أكثر من ألف صندوق (٥٩) .

ثم بعث « جوهر » الى الخليفة « المعز » يبشره بالفتح ، وأزال شعار العباسيين ، ووضع مكانه الشعار الفاطمي الأبيض ، وصك العملة باسم الخليفة الفاطمي (٦٠) .

ولم ينس القائد الفاطمي أن يتتبع أعداء الفاطميين من الأخشيديين والكافورية ، فقتل كثيرا منهم ، وأرسل رؤوسهم الى « المعز » ، وقد اكتمل له من هؤلاء الأعداء خمسة آلاف في نهاية سنة ٣٥٨ هـ ، وسأله الأمان فأمنهم ، وبعث بهم مأسورين الى الخليفة في افريقية .

كان من بين المأسورين « الحسن بن طنج » ، وقد استدرجه الخليفة « المعز » حتى عرف منه كبار أعداء الشيعة ، ومن يضمّر له السوء في البلاد ، وقد ظن الرجل أن « المعز » لا يريد بأحد سوءا . فذكر له جماعة من قواد مصر وأرباب الأموال « كانوا كقارون في اللغني » فكتب « المعز » الى « جوهر » يطلب استئصالهم وأخذ أموالهم فنفذ القائد ارادة خليفته (٦١) .

(٥٨) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٩ .

(٥٩) انظر : العيني : عقد الجمان ج ١٥ ص ٢٤٦ و ٢٤٧ ،

المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٥٨ .

(٦٠) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٩ .

(٦١) انظر : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٢ ص ٣١ .

وبذلك استطاع الفاطميون أن يطهروا البلاد ، ويخلصوها من أعدائهم ، وأن يقضوا على كل المخالفين لهم •

وقد اختط « جوهر » مدينة القاهرة في المكان الذي أناخ فيه عساكره ، وفي الليلة التي عبر فيها الى مصر •

وكان هدفه من لقامتها أن تكون معسكرا يقيم فيه الجنود ، وقد جعل كل جانب من جوانب المدينة الجديدة لأمير من الأمراء ، وحلفه ببناء حارة فيه — حسبما أمره المعز لدين الله — وسميت كل حارة باسم مقدمة أو الطائفة التي نزلت فيها ، فهذه الحارات اذن ستحون بمثابة معسكرات للجيش الفاتح ، وسيأتي حديث عن توزيع الجيش على هذه المعسكرات أو الحارات بعد تمام الفتح • كذلك أدار « جوهر » المدينة بسور من اللبن ، وأسس قصرا للخليفة ينزل فيه عند مجيئه الى مصر (٦٢) •

وقد مر بنا أن حالة الاقتصاد في مصر كانت سيئة ، وكان بها غلاء فاحش عند نزول العسكر الفاطمي ، لذلك أمر القائد « جوهر » بتوزيع الصدقات على الناس ، ونادى قاضي عسكره « من أراد الصدقة فليصل الى دار أبي جعفر » فاجتمع خلق من المحتاجين والفقراء وتوجهوا الى الجامع العتيق ، حيث وزعت عليهم الصدقات والأموال •

كذلك استحث « جوهر » الناس على اخراج ما عندهم من القمح ، كوسيلة لعلاج الأزمة وتخليص الشعب من مجاعته وبؤسه ، ولم يال القائد الفاطمي جهدا في ارضاء الشعب وللتقرب اليه •

ويلاحظ أن الجيش الذي فتق مصر كان من كتامة والبربر ، ولم تمثل فيه قبيلة « صنهاجة » مع أنها كانت للذراع الفاطمي الثاني •

(٦٢) انظر : المقرئى : اتعاط الحنفا ج ١ ص ١٥٨ ، ٦٠ •

ويظهر أن الخليفة الفاطمي « المعز » كان يديرهم لحكم بلاد المغرب بعد رحيله عنها ، فهم الذين في مكتتهم القبض على زمام السلطة في البلاد المغربية ، وهم الذين يستطيعون منافسة « زنانة » مدونة الفاطميين ، ولذلك ترك الصنهاجيون في بلاد المغرب ، وتضمن السبيس الفاطمي كثيرا من الكتامين ليستمروا عوناً للخلافة الفاطمية على مقرها الجديد .

ومكثا نجحت هذه الحملة في إسقاط حكم الخلافة العباسية في مصر ، وحولتها إلى ولاية فاطمية تدين بانولاة للخليفة الشيعي المقيم في بلاد المغرب ، وستبقى مصر على هذه الحال مدة لن تتجاوز أربعة أعوام ، تصبح بعدها خنفا للخلافة الفاطمية ، ومركز الحكم الفاطمي الشيعي ، وذلك عنه ما ينتقل إليها إلى الخليفة الفاطمي ، ويجعل مقر حكمه فيها سنة ٣٦٢ هـ .

ونجاح هذه الحملة في مهمتها ، يدفعنا إلى تلمس أسباب نجاحها ، وعوامل توفيقها ، ونشرع في ذلك منذ الآن :

١ - أول هذه الأسباب هو استقرار الحكم الفاطمي في بلاد المغرب ، فقد دانت كل قبائله وبلاده « للمعز لدين الله » حتى هؤلاء الذين استعصوا على سابقيه (مثل بنى كمالان ، ومليلة) أتوه طائعين ، وأسرعهم بعبوده وليينه ، وحسح لهذا أن يحفه واحد من المؤرخين بأنه سعد سعادة لم ينلها أحد من الفاطميين لا قبله ولا بعده (٦٣) .

وليس من شك في أن هذا الاستقرار جعله يفرغ لفتح مصر ، ويوجه ما تحت يده من إمكانات بشرية ومادية وعسكرية لهذا الفتح على يحنق املا طالما راوده كما راود آباءه من قبل .

(٦٣) انظر : ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٩٩ مخطوط
بدار الكتب المصرية .

٢ - أعد ذلك الخليفة العساكر للجرارة والجيوش الكثيرة التي تجاوز تعدادها المائة ألف ، ووجد من وصفها بأنها كانت مثل جبل عرفات كثرة وضخامة وعظما (٦٤) .

ويكفى تعبيرا عن حجم ذلك الجند أنه دخل مصر أهولجا بعد الفتح ، وفي مدة استمرت أياما سبعة ، وأن شاهد عيان له هو ابن هانيء الأندلسي - شاعر المعز لدين الله - وصفها بأنها سدت ما بين المشرق والمغرب ، وأنها أعادت إلى ذهنه يوم مبعث الناس حين يحشر كل خلق الله أجمعين :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

ولم يرض الخليفة بالكثرة العددية وحدها ، بل حرص كذلك على أن يهيئ لعسكره للراحة التامة على طول الطريق إلى مصر ، فأعد منازل يستريح فيها الجند ، وحفر لها الآبار لتوفير حاجتها من الماء - بسبب موت أكثر الحملة للثانية تأثرا بالعطش - وكل ذلك كي يصل الجيش إلى هدفه محتفظا بقواه ، لم يضمنه طول الطريق ، أو تنال منه جسامه الرحلة ومشقتها .

واهتم الخليفة فوق ذلك بنفسيات الجنود ، وإيمانهم بمهمتهم ، فزود الحملة بمبلغ ضخيم من المال ، بلغ - على أقل تقدير - مائتان وألف صندوق اشتملت على أربعة وعشرين مليوناً من الدينارات (٦٥) وأفاض في الاغداق على رجال الجيش ، وأكثر من هذا فتح خزائنه لقائده « جوهري » وأمره أن يأخذ منها ما يكفيه زيادة على ما أعطاه .

(٦٤) هذا الوصف لأبي جعفر الشريف عندما سألته المؤرخ « ابن زولاق » عن العسكر الذي فتح مصر ، وانظر : المقرئ : اتعاط الحنفا ج ١ ص ١٥٤ .

(٦٥) انظر لينبول : The history of Egypt, p. 101.

والمقرئ : اتعاط الحنفا ج ١ ص ١٣٩ .

ولا ريب فى أن هذا فرغ الجنود لمهنتهم ، وجعلهم لا يدورون
إلا حولها ، ولا يفكرون إلا فيها ، وأنشأ عندهم عزما أكيدا ، ورغبة
صادقة فى فتح مصر ، استجابة لرغبة خليفة لم يبخل عليهم بشئ .

٣ — سبق أن قلنا أن الحكم كان مضطربا وفاسدا فى البلاد
المصرية بعد موت « كافور » فالبلد يموج بتيارات الفتنة ، والجند ثائرون
على الحكومة ، والحكومة عاجزة عن مطالب الجند . والمتقبلون لم
يؤدوا ما عليهم للدولة ، والشعب أنهكه الجوع والمسغبة ، وقضى عليه
العلاء والمجاعات ، وما تبع ذلك من أوبئة وأمراض ، هذه الحالة
للسياسة السيئة ، وهذه الأحوال العسكرية والاقتصادية المنهارة ،
جعلت الشعب يستسلم بسهولة عندما جاءه الجيش الفاطمى .

حقيقة صادف الفاطميون مقاومة يسيرة ، لكنها كانت من بعض
الأخشيديين والكافورية ، فقد عز عليهم أن يضيع نفوذهم السياسى ،
وتنهار سلطتهم ومالهم ، فوقفوا ضد الفاطميين تأمينا لمصالحهم ،
وحتى هؤلاء كانوا أقلية ، وما لبث بعضهم أن استأمن « لجوهر »
وعبر فى القوارب اليه ، وفر بقيتهم مذعورين عند أول لقاء حربى .

أما الشعب المصرى نفسه فلم يبد منه أنه عارض فى التحول
الى الخلافة الشيعية ، لأنه أدرك أن تحويل السلطة من العباسيين الى
الفاطميين ، لن يترتب عليه تغير فى سياسته ، فالمصريون فى كلتا
الحالتين ، سيخضعون لسلطان حاكم ، وليس يضيرهم بعد هذا أن
يكون شيعيا أو سنيا .

على العكس ربما كان انتقالهم الى الفاطميين ، معينا لهم على
التخلص من الأخطار التى تحيط بهم ، والخروج من حالة الشقاء
التي عاشوا فيها — كما وعدهم بذلك « جوهر » فى كتاب أمانه (٦٦) .

(٦٦) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٤٧ .

ولقد ساعدت حالة الشعب هذه على تذليل الصعاب أمام
« جوهري » وجعلت فتح مصر سهلاً ميسراً على يديه .

٤ - رأيتنا في الحملات السابقة كيف تتابعنا الجيوش تلو الأخرى
من « بغداد » مدداً للمقاومة المصرية ، وتمكيناً لها من طرد المغيرين ،
فقد وفدت القوات البرية والأساطيل البحرية إلى مصر ، ترد عسكر
أصحاب إفريقيا وتمنع سقوط مصر في أيديهم .

ومرد ذلك أن الدولة العباسية - وولايتها مصر - كانت ما تزال
تحتفظ بشيء من القوة يجعلها قادرة على التصدي للجيوش المعتدية
وعلى إيقاع الهزيمة بها .

أما الآن فالدولة العباسية تعاني تمزقاً في الداخل وهجوماً
سافراً من الخارج ، ففي الداخل تشغلها الفتنة بين مختار بن معا للدولة
وبين عضد الدولة ابن عمه (٦٧) ويستبد اليويهيون بالحكم فيها ، ولا يتركون
للخليفة الشرعي شيئاً ، بل إن « بنى بويه » الشيعة قد امتد شرهم إلى حياة
الخلفاء نفسها ، ولم يعد للخليفة معهم سوى السلطة الدينية المتمثلة
في ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة ، وحتى ذلك كانت غايته
سياسية وهي احتفاظ هؤلاء بمركزهم أمام الجمهور .

وقد قدم « جيبون » وصفاً لحالة الدولة العباسية في النصف
الأول من القرن الرابع الهجري الذي فتحت فيه مصر جاء فيه :

« لم تكن حالة الضعف التي وصلت إليها الخلافة العباسية راجعة
إلى السياسة فحسب ، بل تعدتها إلى الدين أيضاً ، فقد نشأ من
المذهب الشيعي على مر السنين مذاهب متعددة أهمها للمذاهب
الفاطمية »

وقد ظهر في الأزمنة الحديثة كذلك الاختلافات الدينية في بغداد ،
فقام أنصار « ابن حنبل » وانقضوا على بيوت الأمراء ، وذوى اليسار ،

(٦٧) انظر : ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤٨ .

وكسروا آواني الخمر ، وحطموا الآلات الموسيقية ، وضربوا المغنين ، وأهانوا الفتيان والفتيات وأساءوا بهم الظنون ، ولم يكن من سبيل للقضاء على هذه الفئة إلا بقوة حربية ، ولكن من ذا الذى يمكنه أن يسد جشع طائفة المرتزقة أو يؤيد النظام بالقوة بين أفرادها ؟

هذا الى ما كان من سل الحرس من الأتراك ولأهل افريقية السيف كل فى وجه الآخر ، وأصبح فى يد أمير الأمراء حبس الخليفة وخلعه وقتله ، فكان هذا تعديا على سلطة الخليفة الدينية وما لها من حرمة فى النفوس ، ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به على نفسه الأذى إلا هربه الى معسكر أحد الأمراء ، فكان انقاذه تحولا عما هو فيه من مذلة الى مذلة أخرى ، حتى دفعه اليأس الى دعوة بنى بويه لمعاونته وتخليصه مما هو فيه ، فاذا وقع تحت رحمتهم صار العوبة فى أيديهم (٦٨) .

ولم تكن حالة الدولة العباسية سيئة فى الداخل فحسب ، بل كانت كذلك فى الخارج ، فقد تعرضت لكثير من هجمات الدولة الرومانية البيزنطية ، وضاع منها كثير من ممتلكاتها خاصة فى الشام والعراق (٦٩) .

وقد أعلن الخليفة العباسى نفسه أن أسلحته وخراج دولته قد انتزع من يديه ، وأنه لم يعد قادرا على الدفاع عن بغداد (٧٠) .

(٦٨) انظر

Gibbon : Decline and Fall of the Roman empire , 4 ed Vol . VI, pp : 54 - 56.

وحسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٣٠ و ١٣١ .

(٦٩) انظر : سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٧ ص ٣٠ ،

يحيى بن سعيد : تاريخ يحيى بن سعيد : صفحات ١١٨ و ١٢٠ و ١٢١ و ١٣٩ و ١٤٠ - وكذلك :

وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٢ .

(٧٠) انظر : الرئيس : الخراج ص ٤٩٠ .

وهكذا تعرضت الدولة العباسية لاستبداد البويهيين في الداخل ،
ولغارات رومانية قوية ، شلت حركتها وسلبتها أعز ولاياتها •

فاذا ما أضفنا لذلك استقلال كثير من بلدان الخلافة عنها ،
أو على الأقل تفويض الحكم فيها لأسر تستقل بها ، ولا يربطها بالخلافة
إلا الدعاء في الخطبة ونقش اسم الخليفة على السكة ، لتبين لنا كيف
كان من الصعب على الخلافة العباسية في « بغداد » أن تقوم بحماية
مصر ، أو تتمكن من إرسال جيش يزود عن هذه الولاية •

لقد « أصبحت للأمور فوضى ، وفرغت الخزائن ، ولأخذت تنحصر
رقعة الخلافة وتتجزأ الإمبراطورية التي كانت موحدة » (٧١) •

لقد كان لدى الخلافة ما يشغلها عن مصر وما فيها ، وأصبحت
غير قادرة على حماية حتى عاصمتها ، كما بان ذلك من كلام
الخليفة نفسه •

وليس من شك في أن هذا كان عاملا مهما سهّل وقوع مصر
في يد الخليفة الفاطمي القوي ، بل انه استغل هذا الضعف ،
وتعرض البلاد بسببه للمغربين من الروم والعابثين من القرامطة
وغيرهم ، استغل ذلك لتبرير دخول مصر ، حتى يخلص المشرق من
أعدائه ، ويؤمن الطريق إلى الحجاز تمكينا للناس من أداء مناسك الحج
إلى بيت الله الحرام ، وقد ظهر ذلك في كتاب أمان « جوهر » للمصريين •

هـ - أعان « بنو بويه » الجيش الفاطمي بطريقة غير مباشرة على
فتح مصر ، فقد سيطروا على الحكم في « بغداد » وحالوا بين الخليفة
وبين تصريف شؤون الدولة ، وتسببوا في فساد الحياة الداخلية •

وليس بعيدا أن يكونوا بميولهم الشيعية ، ومجاراة منهم لواقفيهم

(٧١) نفسه •

فى المذهب الدينى ، قد ساعدوا على تثبيت همة « بغداد » وحملوها على أن تقف موقفا سلبيا من جيش الخلافة الفاطمية •

وليس من المغالاة أن نقول أن تشجيع هؤلاء مع تسلطهم على الخليفة العباسى كان من بين العوامل التى يسرت الفتح الفاطمى لمصر •

٦ - كان التمهيد الفكرى للغزو ، وتجنيد الدعاة لنشر المذهب الفاطمى فى مصر ، قبل ارسال الحملة العسكرية اليها ، من أهم الأسباب التى سهلت الفتح الفاطمى ، وهيات الأذهان لقبوله ، وقد مر بنا الحديث عن ذلك •

بقى أن نتحدث عن خط سير الجيش الفاطمى من افريقية الى مصر ، وأن نقارن بينه وبين غيره من الجيوش الفاتحة لهذه البلاد •

اتفح مما سبق أن جيش الفاطميين فى أول مرة قدم فيها الى مصر ، كان يركز جهده للاستيلاء على الاسكندرية أولا ، ثم يتخذ تلك المدينة مركزا يزحف منه على العاصمة ، ويعمل على احتلال بلاد الوجهين البحرى والقبلى •

وكانت الجيزة هى المنطقة الفاصلة بين شطرى البلاد المصرية ، يصل اليها الجيش ثم ينساح منها جنوبا فيحتل بلاد الصعيد ، كما يعبر الجسر عندها فيصل الى العاصمة المصرية ، وتتفرق العساكر بعد ذلك الى بلاد الوجه البحرى ، فتستولى عليها ، ويتم لها احتلال البلاد •

وقد تم للجيش الفاطمى احتلال الاسكندرية بواسطة القوات البرية وبمعاونة الأسطول فى كل الحملات التى جاءوا بها الى القطر المصرى •

ومن الاسكندرية زحفت القوات فى اتجاه العاصمة حتى وصلت الى « الجيزة » ، بل وسارت نحو الفيوم ، واحتلت الأشمونين

والبهنسا^(٧٢) وبعض بلاد الصعيد فى حملة الجيش الثانية (٣٠٧ - ٣٠٩ هـ) ، وجبت الخراج هناك وسيطرت على جزء من البلاد ، لكن هذه الجيوش ما لبثت أن سقطت أمام المقاومة المصرية المعانة بجيوش الخلافة العباسية وآثرت الرجوع الى بلاد المغرب دون أن يقدر لها نجاحا .

أما فى الحملة الأخيرة فقد سلمت الاسكندرية دون أن تسمع عن أية مقاومة لقيها الفاتحون من أهلها ، ومنها سار الجيش الفاطمى الى منية الصيادين فمنية شلقان حيث عبر اليهم جماعة من عسكر مصر فى القوارب ، وأعلنوا التسليم وطلبوا الأمان ، واستمر غيرهم فى الجانب الآخر من النهر مصر على القتال .

ازاء ذلك خلع بعض الجنود الفاطميين ملابسهم الخارجية ، وعبروا الى الشاطئ الآخر من النهر ، وقاتلوا عدوهم واضطروه الى الهرب فى الظلام .

ثم دخل « جوهري » العاصمة ، ومنع جنده من السلب والنهب وسكن الناس فهدأت حالة المدينة ، ورجع الاستقرار اليها ، وفتحت أسواقها ، وعادت الحركة التجارية فيها بصورة عادية^(٧٣) .

وبالاستيلاء على العاصمة أصبحت مصر ولاية فاطمية ، يخطب للخليفة الفاطمى على منابرها ، وينقش اسمه على سكتها ، ويحيى خراجها باسمه .

(٧٢) الأشمونين : مدينة كانت عاصمة الاقليم المسمى باسمها وتقع بين بحر يوسف والنيل ويجوار اطلالها الآن قرية الأشمونين بمركز ملوى محافظة اسيوط ، والبهنسا اقليم محله الآن محافظتنا بنى سويف والمينا ، انظر محمد رمزى القاموس الجغرافى القسم الثانى ج ٣ ص ١٦ ، ج ٤ ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٧٣) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٨ ، حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٤٢ .

وأكد فتحها بهذه السهولة صحة ما توقعه « العز » بشأنها ،
ودل على أنه كانت تأتية حقيقة كتب من المشرق يشغله الرد عنها ،
كما ذكر في اجتماع عقده مع كبار الكتامين ، شرح لهم فيه أمور دولته ،
وكيف أنه كانت تأتية كتب من المشرق تشغله ويهتم بالرد عليها •

وإذا كان « جوهر » — كغيره من الفاتحين الشيعة السابقين —
قد هدف إلى احتلال الاسكندرية أولا ، فقد كان هذا شأن كثير من
الجيوش التي حاولت غزو مصر في عصورنا الحديثة •

وإذا كانت الجيوش الأوروبية قد شهدت شيئا من التنظيم ،
فقد كانت جيوش « جوهر » منظمة تنظيما دقيقا ، بل كان النظام
في وحدات جيشه يدعو إلى الإعجاب (٧٤) •

وقد استطاع القائد الفاطمي أن يكبح جماح عسكره باغداق
الأرزاق عليهم ، وكان العسكر مجهزا بالعتاد والرجال والأموال
الضخمة ، والمؤن الكثيرة حتى لا يتطرق الضعف إلى رجاله •

وهناك فرق بين الحملات الأوروبية وحملة « جوهر » •

حملة « جوهر » جاءت لتخليص المصريين من ظلم العباسيين ومن
استبداد ولائهم ، ولتزيل عنهم خطر القرامطة والروم ، ولتجود عملتهم
وتنتشر العدل فيهم ، كما ذكر قائد الفاطميين في منشوره ، ثم لتقيم
دولة مستقلة تنافس العباسيين ، وتقف في وجه من يريد للسوء
تالمسلمين (٧٥) •

(٧٤) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٤٠ •

(٧٥) انظر : حسن ابراهيم وطفه شرف : المعز لدين الله الفاطمي

ص ٨٤ و ٨٥ •

أما الأوروبيون فقد جاءوا لنهب خيرات البلاد ، وجنى ثمارها ، واحتلال أراضيها ، واذلال شعبها ، جاءوا ليضعوا غشاء كثيفا من الجهل والفقر والمرض فوق أعين المصريين ، فى الوقت الذى ينهبون فيه كنوز البلد ويقضون عليه بالهوان ، ويحكمونه بكل عسف وطغيان واستبداد •

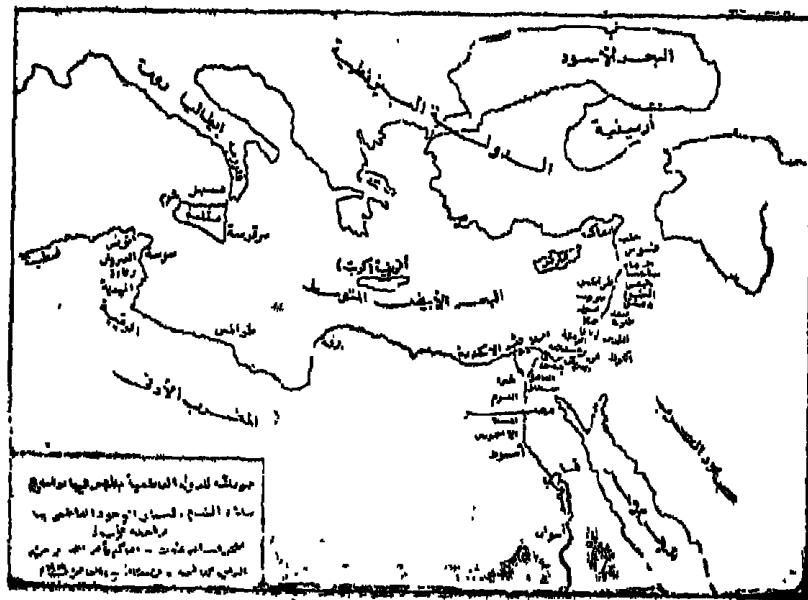
ومن كل ما سبق يتبين أن قادة الفاطميين ، كانت لديهم دراية عسكرية ، وخبرة باستراتيجية البلاد ، ومعرفة بمنافذها ، وبالمناحي التى يعول عليها فى الدخول الى مصر ، وقد وصلت عقليتهم العسكرية وتنظيمهم الحربى ، واعدادهم الخطط الى مستوى أشهر الرجال العسكريين ، وأبرز القادة فى السجل الحربى لعصرنا الحديث •

وواضح أن دخول الفاطميين مصر ، كان من الجانب الغربى للبلاد ، على عكس جيوش الفتح الاسلامى ، فقد أتت عن طريق الشام ، ثم عبرت صحراء سيناء ، وانقضت على المقاومة الرومية فى « عين شمس وبابليون » ، ثم دخلت العاصمة من المدخل الشرقى للبلاد •



الفصل الرابع

الجيش الفاطمي في الشام



الجيش الفاطمي في الشام

تم « لجوهر » فتح مصر ، واستقرت أموره بها ، ففكر في توسيع الرقعة الخاضعة للحكم الفاطمي ، وتوجه بنظره نحو « بغداد » محاولاً تمهيد الطريق للاستيلاء عليها والقضاء على خلافتها .

وكخطوة أولى في سبيل تحقيق ذلك الهدف ، أعد « جعفر بن فلاح » وسيره في جيش كبير لفتح بلاد الشام ، فذهب ذلك القائد إلى « الرملة » سنة ٣٥٩ هـ وتمكن من فتحها عنوة بالسيف ، وقبض على من كان فيها من الاخشسيديين^(١) ثم آمن أهلها ، وقبض الخراج منها .

استقرت أوضاع « جعفر » في الرملة ، فتركها وتوجه منها إلى « طبرية » فسلم له أهلها ، وأقاموا الدعوة الفاطمية بدون قتال .

بعد ذلك واصل جيش الفاطميين زحفه نحو « دمشق » ، ودار قتال بينه وبين حامية تلك المدينة ، ونهب بعض نواحيها ، فاضطر شعبها للتسليم وقطعت فيها الخطبة العباسية ، ودعى للخليفة الفاطمي على المنابر .

غير أن أهلها ما لبثوا أن ثاروا على الحكم الفاطمي ، فتصدى لهم الجيش الفاطمي ، وعاملهم بقسوة وعنف ، وقتل منهم كثيراً ، وأحرق دورهم ، ونهب ما عندهم ، الشيء الذي حملهم على طلب الصلح من القائد الفاطمي فاستجاب لهم ، وطمأنهم ، ثم قبض على رعوس الثورة وبعث بهم إلى مصر ، وبذلك استقرت أحوال « دمشق » ، ونجح الجيش في فتحها وفي تسلم زمام السلطة بها^(٢) ، وقد استعان

(١) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٣٨ .

(٢) بويرس الدواداري : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة . لوحة

٢٠٥ ، مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٦ ، ٢٧ .

« جعفر » بجيش يتكون من العناصر التي وفدت معهم من بلاد
« المغرب » ، والتي سيأتي الحديث عنها في الفصل السادس .

ولقد برز اسم جعفر مرتبطاً بفتحته للبلاد الشامية - ومن المناسب
ان نقدم ترجمة له في هذا الصدد .

جعفر بن فلاح :

هو أبو جعفر بن فلاح المكنى (حسد قواد المعز التميمي) ،
قدم مع جوهر لفتح مصر . وعبر المخاضة عند « منيه شلقان » امام
الجند الفاطمي ، وساهم بنصيب موفور في دخول الجيوش الفاطمية
للبلاد المصرية .

تم بعثه « جوهر » الى بلاد الشام حيث فتح الرملة سنة ٣٥٨ هـ ،
ثم دمشق سنة ٣٥٩ هـ ، وظل بها الى ان دهمه القرامطة وقنذوه
فيها سنة ٣٦٠ هـ .

وقد كان الرجل جليل القدر ، رفيع المكانة ، أهلاً لامتداح الشعراء
وقد قال فيه ابن هانيء الأندلسي :

كانت مساءلة الركبان تخبرني عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذنًى بأحسن مما قد رأى بصرى^(٣)

الجيش الفاطمي يحارب القرامطة

للقرامطة طائفة سياسية ، دعت الى امامة « اسماعيل بن جعفر
الصادق » وعرفت بذلك الاسم نسبة الى أحد دعائها « قرمط »^(٤) .

(٣) انظر : الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٢٠ ص ٣١٠ ، ووفيات
الاعيان : ج ١ ص ٣١٢ و ٣١٣ - ترجمة ١٣٤ .

(٤) انظر : النويري : نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٥٦

وقد نجح هؤلاء فى اقامة دولة لهم فى « البحرين » فى القرن الثالث الهجرى .

وكانت صلات المودة والصداقة ، تربط ما بين دولة القرامطة هؤلاء وبين الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ، فكلتا الدولتين شيعيه تدعو لامامة آل البيت ، وتعترف بأحقيتهم فى الخلافة ، بل ان قراره « للبحرين » كانوا يعتبرون الخليفة الفاطمى فى المغرب ، امامهم ، اليه يرجعون عند اختلافهم ، وبرأيه يعملون فى تولية أمرائهم ، واقامة ولايتهم .

وقامت سياسة الدولتين على أساس من التنسيق ضد الخلافة العباسية ، فكان القرامطة يشغلون العباسيين بحروب فى المشرق حتى يتاح للخلفاء الفاطميين تثبيت حكمهم فى بلاد المغرب وحتى يقتضى لهم فتح مصر أثناء انشغال الخلافة العباسية عنها .

وكان أبرز مثل لاستجابة القرامطة للفاطميين ، هو لطاعة زعماء القرامطة للخليفة الفاطمى حين طلب منهم رد « الحجر الأسود » الى مكانه فى مكة ، بعد أن رفضوا طلب العباسيين ، وأبوا رد ذلك الحجر الى الكعبة ، رغم عرض خمسين ألف دينار ذهباً مقابل ذلك (٥) .

وقد ظلت صلات المسالمة والاحترام المتبادل ، قائمة بين الفاطميين والقرامطة الى أن دب الانقسام بين القرامطة ، وتعارضت سياستهم ازاء الفاطميين ثم فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٨ هـ ، وزحفوا منها الى بلاد الشام .

عندئذ بدأت مصالح الدولتين تزداد تعارضا ، بل وانقلبت الى عداء وصدام مسلح .

(٥) انظر : ابن خادون : العبر ج ٤ ص ١٨٨ الى ٩٠ ، سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب من ص ٣٤ الى ٤٠ الطبعة الرابعة - القاهرة سنة ١٩٦٤ .

ذلك أن القرامطة كانوا قد هاجموا « دمشق » أثناء حكم الدولة للأخشيدية ، قبل الفتح الفاطمي لمصر ، وتم الصلح بينهم وبين الوالى الاخشيدي على أن يدفع اليهم فى كل سنة ثلاثمائة ألف دينار ، ثم صاهروه ورحلوا عن البلد^(٦) .

ولما فتح الجيش الفاطمي الشام ، انقطع المال عن القرامطة ، فأحسهم ذلك وأغاضهم وترقبوا الفرص للانتقام من الفاطميين .

وقد أتاح لهم هذه الفرصة جماعة من الأخشيديين ، فقد سافر هؤلاء الى « الاحساء » — عاصمة القرامطة — واستغاثوا بهم ، وحشوهم على تخليص الشام من حكم الفاطميين .

وصادفت تلك الاستغاثة استجابة من جانب القرمطيين ، فقطع المال يخل باقتصادياتهم ، وتولى الفاطميين مقاليد الحكم بالشام ، ليس فى صالحهم .

لذلك قرروا محاربتهم ، وعاونتهم الدولة العباسية ، فأمدتهم بألف ألف (مليون) درهم ، وألف جوشن وألف سيف وألف رمح ، وألف فرس ، وألف جبة ، وأعلاما سودا عليها اسم الخليفة العباسي « المطيع »^(٧) .

وفى سنة ٣٦٠ هـ قدم القرامطة فى جموعهم الى « دمشق » فتصدت لهم العساكر الفاطمية يقودها « جعفر بن فلاح » وقامت بين الفريقين معركة ، انهزم فيها الجيش الفاطمي ، وقتل قائده نفسه ، واجترأت رأسه ، وعلقت على باب « دمشق »^(٨) .

(٦) انظر : المقرئى : اتعاظ الحفص ص ١٧٣ ، ص ٢٤٨ .

(٧) انظر : سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٧ ص ٢١ ،

ص ٢٢ ، ص ١٠١ ، ص ١٠٢ .

(٨) المرجع السابق ج ٧ ص ١٧ و ١٨ ، المقرئى : اتعاظ

الحنفا ج ١ ص ٢٤٩ .

ويذكر المؤرخون أسبابا عدة لهزيمة ذلك القائد الكبير منها :
أنه كان مريضا حين فاجأه عدوه ، ولم يكن في حالة تمكنه معها
من الاستعداد لذلك العدو^(٩) .

ومنها أنه استهان بعدوه ، ثم لم يشعر إلا وقد كبسه فجأة ،
وهزم جيشه واستولى على سلاحه ومعداته وأمواله^(١٠) .

ومنها أنه خشي إذا هو طلب المعونة من « جوهر » ألا يمدّه
بالعساكر ، ذلك لأنه تخطاه في المكائبات ، ولما فتح « دمشق » بعث
بخبز الفتح إلى الخليفة « المعز » مباشرة دون أن يضع في اعتباره
« جوهر » ، ولهذا أثر البقاء في مكانه وبلا طلب مدد من « جوهر » .
حتى قدم عليه « الحسن بن أحمد القرمطي » وأُنزل به تلك الهزيمة
المريه^(١١) .

وليس بعيدا أن تكون هذه الأسباب مكتملة قد تضافرت كلها ،
وسهلت هزيمة الجيش الفاطمي أمام القرامطة .

ومهما يكن فإن للقرامطة لم تضعفهم هذه الهزيمة ، وعملوا
على تصفية الجيش الفاطمي في بلاد الشام ، ولذلك زحفوا إلى
« الرملة » حيث كان يقيم القائد الفاطمي « سعادة بن حيان » -
وكان الخليفة المعز قد أرسله على رأس أحد عشر ألفا كممدد لجوهر
أرسله بدوره إلى بلاد الشام^(١٢) - وقد انحاز القائد الفاطمي
إلى « يافا » وتحصن بها ، ونشأ الصدام بالقرامطة ، بيد أنهم
لاحقوه هناك وحاصروا البلد حتى أضنوا أهله ، ومات الكثيرون

١٩٤٦

(٩) الدواداري : زبدة الفكرة ج ٦ - لوحة ٢٠٨ ، ضبط ابن الجوزي :
المرآة ج ٧ ص ١٧ و ١٨ .

(١٠) ضبط ابن الجوزي : المرآة ج ٧ ص ٢٢ .

(١١) المقرئ : الخطط مجلد ٢ ج ٢ ص ٢٠٣ .

(١٢) ابن أبيك : كنز الدر ج ٦ مجلد ١ ورقة ٨٩ ، مصور
بمدرسة الكتب .

جوعا ، واستولوا على مسيرة أرسلها « جوهري » على ظهر خمسة عشر مركبا (١٣) .

وأخيرا تركوا على حصار « يافا » بعض الأعراب وتوجهوا الى مصر (١٤) .

علم « جوهري » بانتصار القرامطة في الشام ، كما عرف نيتهم في الزحف الى مصر ، والقضاء على الجيش الفاطمي فيها ، فقرر القائد الفاطمي أن يستعد لحربهم ، وأن يتخذ من الاجراءات ما يكفل له الانتصار عليهم بحفر خندق « السري بن الحكم » وجعل عليه بابا ، كما قام كذلك بحفر خندق آخر وضع عليه بابي الحديد اللذين كانا في ميدان الأخشيدي ، وبنى كذلك منطرة على الخليج عند باب الشعرية يتوصل عليها من القاهرة الى المقيس (١٥) .

وكانت « القاهرة » بين ثلاثة خنادق ، خندق عمرو بن العاص بالقرب من قبر الامام الشافعي ، وخندق غربي المدينة استمر حتى القرن الثالث عشر الهجري ، وخندق أوله عند الجبل الأحمر « اليحامي » ، فبنى « جوهري » خندقا آخر في الجهة البحرية للمدينة ، واصبحت بذلك بين أربعة خنادق (١٦) كذلك وزع القائد الفاطمي السلاح على الرجال ، وأرسل الجواسيس تجمع أخبار الأعداء .

وصل القرامطة الى عين شمس ، فأغلق « جوهري » أبواب العاصمة ، وضبط الدخول والخروج زيادة في الاستعداد ، وأمر

(١٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢١ حوادث سنة ٣٦٠ هـ ،
المقريزي : المعاني الخفا ص ٢٤٩

(١٤) سبط بن الجوزي : المرأة ج ٧ ص ٢٢

(١٥) الداوداري : زبدة الفكرة ج ٦ لوحة ٢٠

(١٦) علي مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٦ طبع بولاق -

القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ المقريزي : الخطط مجاد ٣ ج ١ ص ١٩ وص ٣٨

الأشراف فخرجوا جميعا بمضاربهم ثم التحم القتال بين الفريقين ،
وثكأفات الكتلتان فى البداية ، ثم استطاع الجيش الفاطمى أن ينفترع
النصر ، وأن يجبر عدوه على الانسحاب والعودة من حيث أتى •

وقد اشترك فى الحرب مع « جوهر » خلق كثير من رعية
مصر ، واستعان القرامطة فيها بعدد من الأخشيديّة والكافورية ،
ولذلك قبض « جوهر » على عدد كبير من هؤلاء بعد انتهاء المعركة ،
واستخدم فى القبض عليهم وسيلة تذكروا بمذبحة المماليك أيام
« محمد على » والى مصر العثمانى •

فقد أعد القائد الفاطمى لأعدائه طعاما وحلف إهم على حسن
النية والمصافاة ، ثم قبض عليهم وقيدهم وحبسهم^(١٧) ، والفارق بين
ما حدث أيام « محمد على » وما حدث هنا ، هو أن « جوهر »
قد أسر أعدائه ، أما « محمد على » فقد ذبح ضيوفه •

ومعنى ذلك أن مصر كان فيها حتى وقت تلك المعركة « ٣٦١ هـ »
عدد من الأخشيديّة والكافورية ، استمروا فى عدائهم للفاطميّين ،
وعملوا على اخراجهم من مصر وبهذا الدافع انضموا للقرامطة فى
حربهم للدولة الفاطمية •

كذلك كان هناك أفراد من الشعب المصرى ، اشتركوا مع
« جوهر » فى محاربة الأعداء ، وعملوا على تأمين الواقع الفاطمى
فى مصر • أى أن الشيعة كان لهم أصدقاء من المصريين ، عملوا
لمصلحتهم ، وساعدوهم فى ظرف كهذا الظرف ، فالفاطميّون إذا لم
يיעدوا أهل مصر عن الحرب والجهاد تماما ، بل الجأوا إليهم
واستخدموهم عندما كانوا يضطرون الى ذلك ، فقد كان جيش مصر

(١٧) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٣٨ ، سبط ابن الجوزى :
المرآة ج ٧ ص ٢٣ الدوادارى : زبدة الفكرة ج ٦ لوحة ٢١٤

فى حربهم مع القرامطة — مكونا من أهل مصر الى جانب الأجفاس
المغربية الوافدة مع الجيش من الشمال الافريقى •

تجدد الحرب بين الفاطميين والقرامطة :

لم تثبط الهزيمة همة القرامطة ، ولم تثنيهم عن التفكير فى فتح
مصر ، فقد عادوا الى مقرهم فى « الاحساء » ، ثم رجعوا منها
بعد أن أتموا استعدادهم ، ولما وصلوا الى « الرملة » ، أرسل
اليهم الخليفة « المعز » — وكان قد وصل الى القاهرة واتخذها
عاصمة لحكمه سنة ٣٦٢ هـ — أرسل اليهم كتابا مملوءا بالتهديد
والتوبيخ والوعيد والتحذير^(١٨) ، فلم يعبأ « المحسن القرمطى » بذلك
الكتاب ، وكتب الى الخليفة « المعز » يقول « وصل كتابك الذى
كثير تفصيله وقل تحصيله ونحن سائرون اليك على أثره والسلام » •

وبالفعل سار الجيش القرمطى حتى وصل « عين شمس »
وانشردت عساكره تنهب وتسلب فى نواح مختلفة من البلاد ، ونجح
فى ضم جماعة من الاعراب الى صفه فيهم : « حسان بن الجراح
الطائى » فى جمع كثير^(١٩) •

أما « المعز » فقد أخرج جيشا بقيادة ابنه وولى عهده
« عبد الله بن المعز » مهمته الدفاع عن البلاد ، وحمايتها من خطر
هجوم القرامطة ، ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها خلق كثير^(٢٠) •

نظر الخليفة الفاطمى بعد ذلك فرأى كثرة عدوه ، ووجد أن
اخراج جيوشه لحرب هؤلاء يمثل عبئا غير مضمون النتيجة ، فشاور

(١٨) نص الكتاب فى المقرئى : اتعاط الحنفا ج ١ ص ٢٥١
وما بعدها •

(١٩) المقرئى : اتعاط الحنفا ج ١ ص ٢٤٨ الى ص ٢٥٠ ،
ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ٢٢٩ وص ٢٣٠ حوادث سنة ٣٦٣ هـ •

(٢٠) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٤١ و ١٤٢ ، وملحقه ص ٢٩٦

أهل الرأي في حيلة تفرق الأعداء ، وتوقع الخلف بينهم ، واتفقوا على مراسلة « ابن الجراح » ومحاادثته في المخالفة على القرامطة ، فوافق على ذلك إذا أخذ مائة ألف دينار ، وحلف على الوفاء والانضمام أمام الفاطميين عندما يصله ذلك المبلغ .

وأرسل الخليفة الفاطمي للأعرابي المال في صورة دنائير بعضها صحيح ومعظمها مزيف ، وثم ما اتفق عليه ، فانهزم أثناء المعركة ، وانسحب بانسحابه جميع الأعراب .

ولما رأى « القرمطي » ذلك انتابته الحيرة واستمر يقاتل بعسكره ، غير أن جيش الفاطميين واصل الحملات عليه من كل جانب ، فوالى منهزما ، وظفر الفاطميون بمعسكره ، وأخذوا من فيه أسرى ، وكانوا حوالي ألفا وخمسمائة ضربت أعناقهم جميعا .

بعد ذلك تتبع الجنود الفاطميون أعداءهم من القرامطة ، حتى تركوا بلاد الشام نهائيا واتجهوا إلى الأحساء (٢١) ، وبعد انتهاء المعارك استخلص « المعز » بنى الجراح أمراء الشام من طيء ، واستخلص بهم ما غلب القرامطة عليه من الشام ، فهم إذاً عنصر جديد في الجيش الفاطمي (٢٢) .

وبذلك استطاع الجيش الفاطمي بالحيلة والخديعة أن يقهر عدوه ، وأن يخلص البلاد من شره .

الجيش الفاطمي يحارب ضد « الفتيكين » التركي

كلف بعض القوات الفاطمية بمتابعة « القرامطة » ومطاردتهم ، فنزل هؤلاء « دمشق » ، وأخذوا يعيشون ويفسدون في أنحائها ،

(٢١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٩ وما بعدها ، حوادث سنة ٣٦٣ هـ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣ طبع بيروت سنة ١٩٠٨ م .

(٢٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٩٠ .

وينهبون الطرق والمسالك ، ولم يكن قائدهم يملك المال للاتفاق عليهم^(٢٣) فزاد ذلك من غيهم وعبثهم ، واضطرو أهل « دمشق » ، ازاء الفوضى ، وعدم استقرار الأمور في بلادهم ، الى الاستنجاد بالقائد التركي « الفتكين » فأتى اليهم ، وقطع خطبة الفاطميين في بلدتهم سنة ٣٦٤ هـ .

وكان ذلك القائد مولى « المعز للدولة بن بويه » ، وقد انهزم من « بختياربن معز الدولة » ومن « عضد الدولة » في فتنة الأتراك بالعراق ، فخرج في مجموعة من العساكر وسار حتى وصل الى « دمشق » مستجيبا لنجدة أهلها ، وخطب فيها للعباسيين وقطع الخطبة الفاطمية سنة ٣٦٤ هـ ، وكون لنفسه جيشا من أهل البلاد فتح به كثيرا من البلاد الساحلية بالشام وعظم أمره^(٢٣) .

كان الخليفة « المعز » قد مات ، وتولى الخلافة الفاطمية ابنه « العزيز » وأراد التلطف في معاملة ذلك الرجل والحسنى معه ، فرد ردا غليظا يدل على استهانة بالفاطميين في مصر .

ولم يجد « العزيز » بدا من اعداد جيش يقضى على تلك الحركة ويعيد الشام للفاطميين ، فجهز القائد « جوهر » في عسكر سار به الى بلاد الشام .

وأخذا بسياسة المسالمة ، واستمرارا في العمل بمبدأ اللين ، زودت الخلافة الفاطمية « جوهر » بأمان وكتاب بالعفو عن « الفتكين » ان هو سلم بدون قتال ، لكن ذلك لم يفد شئيا ، فقد خرج « الفتكين » ، في أصحابه وجموعه من العرب ، وقامت حرب بينه وبين جوهر استمرت شهرين وقتل فيها من الفريقين خلق كثير ، وأظهر التركي فيها شجاعة حملت عدوه على مهابته .

(٢٣) انظر : ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣٦ ، ص ٢٣٧ حوادث سنة ٣٦٤ هـ .

بعد ذلك كاتب الدمشقيون « الحسن بن أحمد القرمطى » ،
وطلبوا منه الانضمام اليهم فى حرب الفاطميين لتسهيل هزيمتهم اذا
ما تجمع أعداؤهم عليهم •

عرف « جوهر » ذلك ، وتأكد لديه أنه متى حصر بين عدوين
أمكن هزيمته بسهولة ، فانسحب الى « الرملة » فى خمسين ألفا من
أصحابه ، لكن الأعداء طاردوه ، واضطروه للقتال على نهر يسمى
« الطواحين » بينه وبين الرملة ثلاثة فراسخ^(٢٤) ، ولم تكن هناك
وسيلة أمام « جوهر » ، ليشرب جنده ، سوى ذلك النهر ، وقد قطعه
عدوه عنه ، فنال ضرر كبير من جراء ذلك ، وقرر الرحيل الى
« عسقلان » وتحصن فيها •

لم يترك القرامطة والأتراك والاعراب « جوهر » يهنا فى
« عسقلان » وانما حاصروه فيها حتى اضطر رجاله لأكل الميتة
والدواب ، ومع ذلك فقد كان يخرج بين الآونة والأخرى للقتال
والناوشة •

وفى الوقت نفسه لم يترك فرصة تمر دون أن يستميل
« الفتكين » ويعدده الوعد الحسن حتى نجح أخيرا فى أن يعقد اتفاقا
معه ، يخرج الفاطميين بمقتضاه من « عسقلان » بشرط أن يعطى على
باب المدينة سيف الفتكين ورمح القرمطى ويمشى الجند الفاطمى
من تحتها^(٢٥) •

وبهذه الحيلة ، وبحسن السياسة نجح « جوهر » فى التخلص
من ذلك الحصار المميت ، ووصل الى مصر ، واجتمع بالخليفة فيها •

(٢٤) انظر : الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٢٠ ص ١٤٣ ، سبط
ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٧ ص ١٣٧
(٢٥) الدوادارى : زبدة الفكرة ج ٦ لوحة ٢٢٧ ، المقرئى :
الخط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤١٤

وباعتباره عاش حوادث الشام بنفسه ، وشاهد العدو عن قرب ، اقترح على الخليفة أن يخرج بنفسه لمحاربة هؤلاء الأعداء .

عندئذ فتح « العزيز » بيوت المال ، وأعد العساكر ، وأمر بتهيئة الجيوش المظفرة ، وتعبئتها على مراتبها ، وترتيبها على مواكبها ، وتقدم الى قوادها ، ألا يمشوا الا صفاء ، ولا يسيروا الا زحفا ، وعرفهم أنه سيسير بنفسه فبدأ من عزائمهم ، وسكون افتدائهم ، وثبات أقدامهم ، ما كانت به دلائل النصر واضحة ، وشواهد الفتح لائحة ... » (٢٦) .

وأخذ الخليفة معه ما يلزم من ذخائر ، كما أخذ توابعه آباءه ، ليستमित هو ومن معه فى القتال دونها ، وسار حتى وصل الى « الرملة » ونزل بظاهرها .

وعلم بذلك التركى والقرمطى ، فحشدا وأعدا جموعها من الأعراب وغيرهم وتوجها للقاء الجيش الفاطمى (٢٧) ، ثم التقى الفريقان بعد ذلك فى موقعة حربية وأبدى « الفتكين » شجاعة انتزعت اعجاب الخليفة الفاطمى ، ما بين ضرب بالسيف واطعن بالرمح .

وقد شارك « العزيز » فى القتال بنفسه ، وعرض الأمان على التركى مرات ، لكنه يستجب له ثم حمل على ميسرة الفاطميين فهزمها .

حينئذ أعد القائد الفاطمى خطته لهزيمة عدوه ، ماهر المينة بالحملة ، وحمل هو من القلب ، وكبسوا على عدوهم حتى تمكنوا من الانتصار عليه ، وقتلوا منه عددا كبيرا .

(٢٦) من كتاب العزيز بالله الى عاماه بمصر يبشره بالنصر على الفتكين والقرمطى سنة ٣٦٧ هـ وانظر : القلشندي : صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٣٣ الى ٤٣٩ طبعة وزارة الثقافة ، القاهرة سنة ١٩٦٣
(٢٧) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣٨ حوادث سنة ٣٦٤ هـ .

ومثلت تلك المعركة نهاية أعداء الفاطميين من القرامطة والأتراك •

أما القرمطي فقد أرسلت إليه النجائب بالكتب تنهى إليه عفو « العزيز » عنه ، وتطلب منه أن يطيأ بساط الخلافة ، وقد أدركه الرسل في « طبرية » وتم الاتفاق معه على أن يحمل إليه مبلغ كبير من المال سنويا ويعود الى بلاده (٢٨) •

أما « الفتكين » فقد انتهى به الحال نهاية لم تخطر على بال ، ذلك أن الخليفة « العزيز » قد عفاه ، وصحبه معه الى « القاهرة » وأنزله دارا عظيمة ونقل اليه الأموال والتمحف ، بل ولاه حجابته وبابه ، كذلك أكرم أصحابه ورفع منازلهم وأسنى أرزاقهم ، وأسكنهم في البصارتين اللتين عرفتنا بحارتى « الديلم والأتراك » ، وضمهم لعسكره •

وكان نزول « الفتكين » وصحبه ممثلا لأول العناصر المشرقية التي وفدت الى « القاهرة » وانضمت للأجناس المغربية في الجيش • ومثلت تطورا جديدا في وحدات الجيش الفاطمي •

وقد استمر « الفتكين » نفسه على المكانة في دولة « العزيز » الى أن دس عليه « يعقوب بن كلس » من سمه لحسد وعداوة بينهما (٢٩) •

وهكذا انتهت هذه المحنة بعد أن هزت الخلافة للفاطمية ، وعرضتها للأخطار ، وحملت الخليفة على الخروج بنفسه لقيادة الجيوش •

(٢٨) انظر الدواداري : زبدة الفكرة ج ٦ لائحة ٢٢٨ ،
ابن الجوزي : المرآة ج ٧ ص ١٣٥
(٢٩) عن حركة الفتكين ضد الدولة الفاطمية ودور الجيش
الفاطمي في القضاء عليها انظر سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان
ج ٧ ص ١٣٠ الى ص ١٣٥

وكان الفضل فى القضاء عليها للجيش الفاطمى ، وحسن تنظيمه ،
والثغافه حول قيادته ، واستماتته فى الدفاع عن خلافته •

وبالاضافه الى ما سبق ، فان الجيش الفاطمى استطاع أن يقضى
على كثير من حركات التمرد والعصيان فى بلاد الشام (٣٠) •

وأهم ما ميز الجيوش التى خرجت لذلك الهدف ، أنها كانت
تعمل تحت قيادات معظمها من الأتراك والمشاركة ، مما يدل على أن
هؤلاء كان قد ارتفع قدرهم حتى ولاهم الخليفة العزيز القيادة ،
وكانت لهم الصدارة فى الدولة ، وتراجع المغاربة عن مكافئهم وتزحزحوا
عن منزلتهم •

الجيش الفاطمى يحارب أباركسوة

هذا الرجل من نسل « هشام بن عبد الملك بن مروان » الخليفة
الأموى ، وكان عمه « هشام » يتولى الخلافة الأموية فى الأندلس ،
وقد استبد بالحكم فى أيامه حاجبه وزوجته ، وتنبعا من يصلح
للخلافة من الأمويين وقتلاه •

وكان ذلك حاملا « لأبى ركة » على الهرب من الأندلس ، والتنقل
بين مصر والحجاز واليمن وبلاد الشام ، وخالف الصوفية ، وحمل
« ركة » فى أسفاره على طريقهم ، وأخذ يظهر ألمه لضياع
الاسلام وامتعاضه لأصحاب الشريعة ، وكما أخذ يظهر الزهد
والنفسك والاصلاح (٣١) •

(٣٠) لهذه الحروب ومواجهة الجيش الفاطمى لها انظر مثلا :
ابن أبيك : كنز الدرر ج ٦ مجلد ٢ من ورقة ١٢٧ الى ١٣٧ ،
ومن ١٤٠ الى ١٤٧ مخطوط بدار الكتب ، الدوادارى : زبدة الفكرة
ج ٦ لوحة ٢٦٧ ومن ٢٧٦ الى ٢٧٩
(٣١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٧٤ حوادث سنة ٣٩٧ هـ ،
الدوادارى : زبدة الفكرة ج ٦ لوحة ٢٩٣

وقد نجح « أبو ركوة » فى أن يضم اليه بنى قره والبربر
وبعض البرقيين ، وساعده على ذلك سوء سياسة الخليفة « الحاكم »
فى هؤلاء •

وأقام الرجل لنفسه حصنا فى جبل « برقة » ، وكان ذلك بداية
لمتاعب ستتحمّلها الدولة والجيش الفاطمى ، والمسئول عنها أساسا
سوء سياسة « الحاكم » لرعيته ، واستبداده فى حكمه ، وقد
كان ذلك الدافع وراء انضمام « بنى قره » الى ذلك الرجل •

وكان على قيادة « بنى قره » رجلان هما : « الخروب والماضى » •

وقد استجاب « الخروب » لطالبات الثائر ، وأعلن استعداده
لمعاونته ، وقد استدعى قومه — وكانوا سبعمائة — فاستحلفهم له ،
وأخذ العهود والأيمان ، وأعلن لهم الرجل أنه « الامام » وخطبهم
ووعدهم ، وضم « الحاكم » وأسلابه من الفاطميين ونسبهم الى
القرمطة والكفر •

بعد ذلك سار فى جموعه ، وقصد الوالى الفاطمى فى
« برقة » ودخل معه معركة هزمه فيها ، وحمله على الفرار الى
الاسكندرية واستولى على ذخائره وأمواله •

انزعج للخليفة « الحاكم » لما حدث لواليه ، وقرر التخلّى عن
سياسة الشدة والعنف ، وكف عن القتل وعامل الناس بالحسنى ، ورغب
من التخلّص من هؤلاء الثائرين على حكمه ، فجهز جيشا فى خمسة آلاف
فارس جعل عليه « ينال للطويل » — أحد قادة الأتراك — وأمدّه بالزاد
والعطايا ومنحه مائة ألف دينار •

وقد أخطأ الخليفة الحاكم باختياره « ينال » لقيادة ذلك
الجيش ، وباختيار معظم جنده من « كتامة » فقد كانت « كتامة »

(٣٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٧٤ حوادث سنة ٣٩٧ هـ ،
الجوادرى : زبدة الفكرة ج ٦ لوحة ٢٩٣

مستوحشة منه ، لأنه هو الذى تولى قتل رؤسائها بأمر « الحاكم » ، ولم يكن متوقعا أن تخلص تحت قيادته .

وأيا ما كان الأمر ، فقد سار القائد الفاطمى الى الاسكندرية ، وتقدم منها الى مكان يعرف (بذات الحمام) ، وبينه وبين برقة مفاوز شاقة قليلة الماء يحتاج المسالك فيها الى الطعام والماء .

وقد استعد الثائر للقاء الفاطميين ، ولم يعرف أن الجيش الفاطمى سيعبر المفازة اليه ، خرج من « برقة » فى ألفى فارس فطم الآبار وغور الماء^(٣٣) ، وعرض العسكر الفاطمى بذلك لمأساة .

ورغم ذلك فقد التقى الجيشان ، وقتل الفاطميون عددا أول الأمر غير أن أمرا حدث ، فت فى عضد الفاطميين ومكن عدوهم من الانتصار .

فلقد استأمن الى « أبى ركوه » جماعة الكتامين اغاظة لقائدهم وللخليفة « الحاكم » ، وحمل جيش الثائرين على العسكر الفاطمى فهزموه ، وأسروا القائد نفسه وقطعوه اربا ، وامتلأت أيديهم من المغنم والأموال ، فأخذوا المائة ألف دينار التى كانت مع « ينال » ومائتى ألف أخرى كانت مع بعض اليهود^(٣٣) وقويت نفوسهم ، وترددت سراياهم تنهب وتسلب .

علم الخليفة « الحاكم » بما حدث لعسكره فتألم ، وزاد من ألسه أن الجنود والشعب فى مصر فرحوا وسروا بما جرى ، وكان ذلك دافعا للخليفة أن يتقرب الى الناس ، ويعدل فى سياسته ، ففتح بابه للناس ، وشرح لهم جرائم من قتلهم ، وكيف كانوا أصحاب جنایات خفيت على الجمهور ، وسكن الشعب وطمأن أفرادہ ، ونهج معهم نهجا « ديمقراطيا » ، فاستشارهم فيما يجب فعله .

وبناء على رغبتهم استدعى من الحمدانية والديلم والقبائل ستة

(٣٣) الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٢٠ ص ١٧٨ .

عشر ألفا ما بين فارس وراجل ومنحهم الأموال والمعدات وخلع عليهم ، وخرج بنفسه لوداعهم وظل معهم حتى عبروا الى «الجيزة» •
وقد اختار الخليفة لقيادة ذلك الجيش « الفضل بن عبد الله » ،
ومنحه خمسمائة ألف دينار ، وسلاحا وثيابا •

سار العسكر الفاطمي لمحاربة عدوه بعد ذلك ، ولجأ الى خطوة
قد تغنيه عن الحرب والقتال ، وتفرق جند الثائر من حوله ، فقبض
أرسل الفاطميون الى جنود « أبي ركوه » محاولين استمالتهم اليهم
وابعادهم عن صاحبهم •

وقد نجح القائد الفاطمي أن يضم الى جانبه « الماضي » —
أحد قواد بني قرة — واتفق معه على أن يكون عوناً له ، فيتجسس
على « بني قرة » لحساب الفاطميين ، وسيدبر قائد الفاطميين شئونه
حسب ما يأتيه من معلومات عن هذا الطريق •

ولما ضاقت الميرة على العسكر الفاطمي اضطر للقاء « أبي
ركوه » بعد مراوغة استمرت شهرا •

غير أنه رأى كثرة جند عدوه فانسحب وعاد الى معسكره •

ورأسل « بنو قرة » الجنود الفاطميين من العرب ، وذكرهم
أفعال « الحاكم » معهم ، واستقر الرأي بينهم على أن ينهزموا عند
لقاء الجيش ، بشرط أن يكون الشام من نصيبهم ، وأن تكون مصر
« لأبي ركوه » ، لكن ما أسروه وصل الى القائد الفاطمي بواسطة
« الماضي »

وفي الليلة التي اتفق فيها العرب وبنو قرة على الهجوم
والانهزام ، جمع « الفضل » رؤساء العرب على مائدته ، وطاولهم
الحديث ، ثم تركهم في خيمته وأوصى بالحذر منهم •

وكان ذلك التصرف بداية الطريق الى النصر النهائي ، والتخلص
من هؤلاء الأعداء •

ذلك أن « أبا ركة » أرسل جيشه فالتقت به جموع من
العساكر الفاطمية ، ومنع رؤساء العرب من الخروج ، وفى نفس
الوقت أرسل الى أصحابهم فخرجوا وقاتلوا قتالا شديدا - ولم
يكن لديهم علم باتفاق الرؤساء .

ثم ركب « الفضل » وصحب معه رؤساء العرب واضطروهم
للقاتل ، بعد أن فاتهم تنفيذ ما اتفقوا عليه .

أنت بعد ذلك الأمداد الى عسكر الثائر ، ورأى القائد الفاطمى
كثرة عدوه فرد جنده والتزم خطة دفاعية^(٣٤) .

أرادت الخلافة الفاطمية أن تعضد وحدات جيشها ، فأرسلت
اليه مددا قوامه أربعة آلاف من الديلم والأتراك ، لكن ذلك المدد كاد
يسبب نكبة للجيش الفاطمى كله .

ذلك أن « أبا كورة » علم بخبر هؤلاء الجنود ، فسارع الى
المسير اليهم فى ألفين للقائهم فى الطريق ، وضبط المسالك حتى
لا يسمع « الفضل » وتمكن من أن يهجم على ذلك المدد عند « الجيزة »
وأن يقتل منه ألفا .

بيد أن ذلك لم يحل دون زحف الجيش ثم التقاؤهما عند مكان
فيه غياض وأشجار .

وقد « دبر أبو ركة » خطته على أساس أن يقيم كمنا
بين الأشجار ، ويطلب الفرسان بمطاردة العدو واستدراجه جهة
هؤلاء الكمنا ، فاذا ما قرب منهم خرجوا عليه وقضوا على الفاطميين
بسهولة .

لما « الفضل » فقد وضع خطته على أساس أن يكون الحمداية
والشامية فى الميمنة ، والعساكر المصرية فى المسيرة ، وأن يبقى
هو فى القلب .

(٣٤) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٧٤ وما بعدها ، الدوادارى :
زبدة الفكرة ج ٦ لوحة ٢٩٣ ، ٢٩٤

وبدأت المعركة فحمل « بنو قرّة » ثم انسحبوا. ليسستدرجوا
عدوهم ، ويطبقوا عليه طبقا لخطتهم ، لكن الجيش الفاطمي أمكنه أن
يهزم الفرسان المهاجمين •

وكانت تلك نقطة هامة ترقب عليها انعكاس الوضع ، فقد انهزم
الكناء من البرجالة لما رأوا انهزام الفرسان ، وحمل القائد الفاطمي
عليهم ، وأعمل السيوف فيهم فقتل عددا كبيرا^(٣٥) وأخذ رؤوس ستة
آلاف بعث بهم الى القاهرة ، عدا من أسر^(٣٦) •

أما « أبو ركوة » فقد انسحب مع بنى قرّة الى ديارهم ، ثم
هرب الى بلاد النوبة ، حيث لحقت به العساكر الفاطمية وتمكنت
من أسره •

وقد شهر به الخليفة « الحاكم » فى القاهرة ثم ضرب عنقه
وصلب جسده^(٣٧) •

وبذلك تمكن الجيش الفاطمي من أن يجعل النصر النهائي
لصالحه ، وقد لعب « الماضى » - « زعيم بنى قرّة » - دورا
هاما فى تحقيق ذلك النصر •

فلولا ذلك الرجل لقضى على العسكر الفاطمي ، بسبب المؤامرة
التي أعدت بالاتفاق مع العرب فى جيش « الفضل » •

(٣٥) انظر : ابن تغرى بردى : المنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١٦

(٣٦) ملحق اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٣٠٤

(٣٧) عن حركة « أبى ركوة » ودور الجيش الفاطمي فى احماها
انظر : سبط ابن الجوزى : مرآة زمان ج ٨ من ص ١٤ الى ص ٢٤ ،
ابن تغرى بردى المنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١٥ وما بعدها •

وقد كان القائد الفاطمي حكيما حين حبس رؤساء الاعراب ،
واستخدم أتباعهم دون أن يشعروا بشيء ، وقد استطاع أخيرا أن
ينتهز فرصة هزيمة الفريسان أمامه ، فقفى على الكمناء ، وفرقهم
ولم يعطهم فرصة للتجمع ، واستحق بذلك النصر عن جدارة •

وسياتى فى الفصل السابع حديث عن كيفية تعبئة للفاطمين
لجيشهم بعد فتحهم مصر •

* * *



الغاطميون في صقلية
وغرب البحر الأبيض المتوسط

الفصل الخامس

الجيش الفاطمي وصقلية والروم

أهمية صقلية للفاطمين

تقع جزيرة صقلية فى قلب البحر الأبيض المتوسط ، فى الجهة المقابلة لأفريقية. ، ويرجع اهتمام المسلمين بفتح هذه الجزيرة الى أيام الخليفة الثالث « عثمان بن عفان » ، فقد أذن « معاوية بن أبى سفيان » - واليه على بلاد الشام - يفتح صقلية ، فتوجهت الجيوش الاسلامية اليها ، ومنذ ذلك الحين تعتبر هذه البلاد ميدانا للصراع بين الروم والمسلمين ، الى أن تم فتحها نهائيا أيام زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب - والى العباسيين على بلاد المغرب - وكان ذلك سنة ٢١٢ هـ (١) .

وعندما انتزع الفاطميون الحكم من الأغالبة ، وأسسوا لهم دولة فى بلاد المغرب ، حرصوا على نشر نفوذهم فى جزيرة صقلية لأسباب سياسية واقتصادية .

فمن الناحية السياسية كانت الخلافة الفاطمية ترمى الى اتخاذ هذه الجزيرة ، قاعدة لأسطولها فى البحر الأبيض المتوسط ، فتؤمن بذلك نفسها ضد غارات الروم على السواحل الأفريقية وبلاد المغرب من ناحية ، وتحقق بذلك أهداف فتح مصر وبلاد الشرق من ناحية أخرى (٢) .

ومن الناحية الاقتصادية ، كانت تلك الجزيرة تمثل ثروة اقتصادية هائلة ، فهى غنية بالفواكه والحبوب والمعادن وأنواع الحيوانات : ففيها الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق ، والشب والخل والزاج والحديد والرصاص والفوشادر والكبريت وزيت النقط .

(١) انظر : ميشيل امارى : المكتبة الصقلية ، مواضع متفرقة مثلا من ١١٤ ، ٢٠٠ ، ٢٢١ - ودائرة المعارف الاسلامية : مادة صقلية : وبركلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٩٧ .
(٢) انظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٩٩ .

وبها الفواكه على اختلاف أنواعها لا تنقطع عنها صيفا ولا شتاء
حيث يكثر بها التفاح والبندق والجوز والقسطل •

كذلك يوجد بها الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم وغيرها ،
وليس بها حية ولا سبع ولا سواها من الحيوانات المؤذية^(٣) .

لكل ما مر اهتم الفاطميون بهذه الجزيرة ، ووجهوا جهودهم
لفتحها وكان لجيشهم دور بارز فى غزو هذه الجزيرة ، ثم فى اتخاذها
قاعدة ينطلق منها للزحف على غيرها من المناطق ، مما سنتكفل ببيانته
الصفحات التالية •

الجيش الفاطمى فى صقلية

قام جيش الفاطميين بدور هام فى الحروب بصقلية وبلاد
الروم ، ونجح فى توطيد أركان الحكم الفاطمى فى هذه النواحي،
وقضى على كل المعارضين والمناوئين للدولة الفاطمية فيها •

كذلك اتخذ هذه البلاد منطلقا لفتح كثير من بلدان «أوربا» ،
وضمها الى أملاك الدولة الفاطمية ، واخضاعها للفاطميين •
وفى الصفحات التالية نحاول بيان دور الجيش الفاطمى ، وما
قام به من أعمال حربية فى هذا المصدد •

الجيش الفاطمى يواجه ثورات صقلية

إذا كانت البلاد الافريقية ، قد شهدت قيام ثورات فيها بسبب
استبداد ولادة الفاطميين عليها ، فإن سوء سيرة الفاطميين «بصقلية»
قد أثار الناس ضد الحكم الفاطمى كذلك •

(٣) انظر : ميشيل امارى : المكتبة الصقلية - مواضع متفرقة مثلا
ج ١ ص ١١٦ ، ص ١١٧ ، ص ١٤٢ - وكذلك حسن ابراهيم فى المواضع
السابقة • وانظر كذلك العدوى : الأساطيل العربية ١١٥

فقد أعلن أهل « صقلية » العصيان على الحكم الفاطمي سنة ٣٠٠ هـ ، وخلعوا الوالي الفاطمي عليها بسبب استبداده وسوء حكمه .

ولأنه العناصر العربية من الخضوع البربري — وكان الوالي الفاطمي بربريا — ولو على أنفسهم وال عربي تصرف تصرفا خطيرا ، فقد قطع الخطبة الفاطمية ، ودعا للخلافة العباسية .

وانتهز الخليفة العباسي « المقتدر » الفرصة ، فشجع ذلك الوالي ، وأمدّه بالخلع ، وزاد للوالي من غيظ الفاطميين حين أحرق لهم أسطولا في مرسى « لمطة »^(٤) وقضى على جميع وحداته وقتل قائده وأسر من رجاله نحو ستمائة .

وتمكن ذلك الوالي — فوق ذلك — من هزيمة جيش للخليفة الشيعي ، وغنم جميع ما كان معه ، ووصل بذلك إلى ذروة العناد ضد الفاطميين .

غير أن الأمور لم تسر في صالحه بعد ذلك ، لأن الصقليين لم يختاروه ليحارب الفاطميين ، ويعمل ضدهم ، وإنما ليصلح فيهم ما أفسده سلفه ، ويرضى نزعة في نفوسهم ، ولذلك قرر أهل الجزيرة خلعه وتكروا له ، وأرسلوا إلى الخليفة « المهدي » يطلبون توجيه عامل عليهم ، وقبضوا على الوالي الشائر وأرسلوه إلى الخليفة الفاطمي فقتله .

ومع ذلك ظن أهل « صقلية » أنهم أسدوا إلى الخلافة الفاطمية يدا كبرى وأن الخلافة في حالة من الضعف تمكنهم من فرض ما يريدون ، ولذلك قدموا شروطا أحققت الخليفة عليهم ، وكانت بمثابة نقطة تحول جعلت السلطة الفاطمية تؤثر إخضاعهم بالقوة والعنف .

(٤) لمطة : أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب من البر الأعظم ويقال للأرض والقبيلة : معا لمطة (ياقوت : معجم البلدان) .

ولذلك أخرج الخليفة « المهدي » الجيوش والأساطيل بقيادة « أبي سعيد المعروف بالضيف » ، فحاصر القائد الجزيرة شهورا ، وقتل عددا كبيرا من أهلها ، وجالت « كتامة » في أرياض الجزيرة وأهانت النساء والذرية .*

ثم بدأت الأمور تتحول في صالح الفاطميين ، فقد سلم للقائد: الفاطمي أهل « جرجنت » وغيرهم ، وانضموا الى صفوفهم في الحرب ، وتحصن الجند الفاطمي ، وأحاط نفسه بسور الى البحر وتحول المرسى اليه .*

كل هذا شجع العسكر الفاطمي على مهاجمة أهل « صقلية » فهزمهم ، وحتى تعزز الخلافة موقفهم أرسلت اليهم مراكب ورجالا كثيرين .*

ولما رأى أهل « صقلية » ذلك ، أيقنوا أنه لا طاقة لهم أمام ذلك الجيش ، وطلبوا الأمان ، فأجابهم القائد الفاطمي اليه ، وهدم سور مدينتهم ، واستولى على معداتهم وأسلحتهم ، وعاد الجيش ظافرا الى افريقية بعد أن تولى على البلاد « سالم بن رائد » وتركت معه حامية من الجند الكتامين ، إيمانا من الخلافة بأن الحكم لن يستقر بهذه الجزيرة الا اذا بقى مع الوالى جيش يعاونه ويقضى على الثائرين والمعاندين^(٥) .*

مرة أخرى تتعرض البلاد لثورة عارمة بسبب سوء سيرة الولاية . في رعيتهم ، ويتولى الجيش مواجهة العاصين كما تولى ذلك من قبل .*

فقد ثار أهل « جرجنت » على عامل الفاطميين عليهم ، لاستبداده فيهم ، واهانتهم لهم ، وأراد « سالم بن راشد » والى صقلية ، أن ينتقم

(٥) انظر :

ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥ و ٢٦ حوادث سنة ٣٠٠ ،
ابن عذاري : البيان المخرب : مواضع متفرقة من ص ١٦٩ الى ١٧٧

لنائبه على تلك المدينة ، فأخرج جيشا مشتركا من أهل صقلية وإفريقية لمحاربة الثورة ، غير أنهم تمكنوا من هزيمته ، الشيء الذي حمل « الوالى » على الخروج بنفسه ومحاربة الثائرين ، واشتد القتال بينهم حتى انهزم أهل « جرجنت » .

غير أن تلك الهزيمة كانت نقطة حاسمة جعلت أهل « صقلية » يتذمرون جميعا لقسوة حكامهم ، وأفلت الزمام من يد الوالى ، فقرر الاستنجد بالخلافة ، وأرسل يستمددا الجنود ، فأمدده الخليفة بجيش كبير استعمل عليه القائد « خليل بن اسحاق » ، فقابله الناس طائعين ويكى أمامه أهل « صقلية وجرجنت » ، وشكوا اليه ظلم واليهم ، واهنته لكل أفراد الشعب بما فيهم النساء والأطفال .

بيد أن شيئا حدث ، سبب تحول الصقليين من موقف المسالمة الى اعلان الحرب ضد الجيوش الفاطمية ، فقد ساء الوالى أن تعرف الخلافة حملة للشعب على الثورة فاتصل بالرجال ، وأوهمهم أن جيش « خليل » جاء لينتقم منهم ، جزاء من قتلوا من الجنود الفاطميين ، ونجح فى حملهم على معاودة الخلاف والاستعداد للحرب ، كما خالف على الفاطميين جميع القلاع واستعدوا للقتال .

وزادوا على ذلك فطلبوا من ملك القسطنطينية الامبراطور قسطنطين السابع « الأرجوانى » ٩١٢ — ٩٥٩ م معاونتهم وامدادهم بالمال والرجال ، وأرادوا بذلك أن يجعلوها حربا بين البيزنطيين والفاطميين .

وقد أصرت الخلافة الفاطمية على مواجهة الموقف فى حزم وقوة ، فأرسلت الى « خليل » القائد عددا كبيرا من العساكر ، ورسم القائد الفاطمى خطته على أساس محاصرة القلاع وحملها على السقوط ، فتهاوت الواحدة تلو الأخرى ، ولما أنزل القائد أهل « جرجنت » من قلعتهم ، أهانهم وانتقم منهم ، فحمل ذلك باقى القلاع على الطاعة خوفا من تعرضهم لنفس المصير .

وبذلك استطاع للجيش أن يعيد هذه البلاد فاطمية مرة أخرى ،
وأن يحول بين الروم وبين النزول فيها^(٦) .

وكما كان استبداد الولاة سببا في التمرد الشعبي ، كان ضعفهم
كذلك داعيا الى غطسة الأقوياء من أبناء الشعب ، وإساءتهم للناس ،
وكان ذلك يدفع الى الثورة ويكلف الخلافة الفاطمية اعداد الجيوش
وارسال الرجال للقضاء على هذه الثورات .

فقد تولى على صقلية والى يعرف « بعطاف » ، وكان ضعيفا
عاجزا لدرجة أن الروم في أيامه ، تجرؤوا على منع مال الهدنة عن
المسلمين ، واستبد بالبلاد جماعة يعرفون « ببني الطبرى » ،
تجمعت حولهم حاشية ، وأهانوا أفراد الشعب وقتلوا عددا من رجال
الوالى نفسه ، واضطروه الى الاحتماء فى حصن المدينة .

وأراد الخليفة الفاطمى أن يضع حدا لاستبداد تلك الجماعة ،
فجهز جيشا أمر عليه « الحسن بن على » وأمره بالمسير الى « صقلية » ،
فجهز القائد مراكب ، وتوجه الى الجزيرة ، واستطاع بالحيلة أن يدخل
المدينة ، وأن يقبض على الطبريين فيها ويصادر أموالهم ، واشتدت
شوكة الفاطميين وكثر جمعهم حتى ان الروم هابتهم ودفعوا مال الهدنة
لثلاث سنين .

ومع ذلك أراد الروم أن يأخذوا المسلمين على غرة ، فأرسلوا
الى الجزيرة أسطولا وجيشا كبيرا يقوده واحد من البطارقة ،
لكن الخلافة الفاطمية كانت حذرة منتبهة ، فما أن علمت بالخبر حتى
جهز الخليفة أسطولا به سبعة آلاف فارس وثلاث آلاف وخمسمائة
راجل وأرسلت بهم الى « صقلية » .

وكان والى الفاطميين « بصقلية » قد اجتمع لديه جند كثير ،
فسار بكل هؤلاء واستعد بريا وبحريا ، ثم كانت عدة مواقع آخرها

(٦) انظر : ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١١٨ حوادث سنة
٣٢٥ هـ = ٩٣٦ م

لقاء المسلمين بالروم يوم عرفة سنة ٣٤٠ هـ ، وقد اشتد فيه القتال ، واستولى المسلمون على سلاح عدوهم ومعداته •

وأخيرا عقد المسلمون مع الروم هدنة بناء على طلبهم ، وبنوا مسجدا كبيرا فى مدينة « ريو »^(٧) ، وشرطوا على الروم ألا يمنعوا المسلمين من بنائه وعمارته ، وألا يدخله نصرانى ، وأن من دخله من أسرى المسلمين فهو آمن ، وأنهم ان أخرجوا حجرا منه هدمت كل كنائسهم بصقلية وافريقية ، وقد وافق الروم على كل هذه الشروط ووفوا بها ذلة وصغارا^(٨) •

وهكذا نجح الجيش الفاطمى بفضل استعداد رجاله ، وبراعة قواده ، واحكام خطته ، وبمعاونة الأسطول الفاطمى ، فأفلح فى قهر عدوه ، وحمله على التسليم له بهذه الصورة •

ومن ذلك يتضح كيف عاشت « صقلية » الفاطمية فى ثورات تكاد تكون متصلة وكان المحرك الأول لهذه الثورات هو ظلم الولاة واستبدادهم بالناس ، واهانتهم لأفراد الشعب ، وكان يمكن ألا تقوم ثورة واحدة ، لو عدل الولاة فى حكمهم ، ولم يثيروا رعيتهم بالسيطرة الظالمة والاهانة •

وتتحمل الخلافة نصيبا من المسئولية فى هذه الحركات الثورية ، فقد كان مفروضا عليها أن تتعرف رغبات الشعب وتعمل على تحقيقها طالما كانت شرعية وعادلة وكان عليها أن تسمع له وتناقشه ما دام يطالب بحق مشروع ، لكننا فى كل مرة وجدناها تمد الولاة بجندهما

(٧) أنظر : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٦٩ الى ص ١٧١ حوادث سنة ٣٣٦ هـ •

(٨) « ريو » مدينة فى البر الشمالى الشرقى ، لاجلر الأبيض المتوسط ، أى فى نفس البر الذى نتج عنه التسطنتينية • راجع ياقوت : معجم البلدان •

وأساطيلها ، وتحارب البلاد فى قسوة حتى تسترد الطاعة عليها ،
ثم تسلمها لوال جديد يسئ المسيرة ، ويكرر معاملة سلفه ، ويتعرض
للثورة عليه •

وكل هذا لا يمنع من اتهام أهل « صقلية » أنفسهم بالتقصير ،
وبتجنب الطريق الطبيعى لأظهار الشكوى ، لقد كان الواجب يحتم أن
يرفعوا أمرهم مع ولاتهم الى الخليفة ليفصل فيه ، فاذا ما أحسوا
تقصيرا أو اهمالا بعد ذلك ، حق لهم الثورة بالحاكمين والمخالفة عليهم •

فتبعة هذه الثورات اذا تبعة مزدوجة ، يقع بعضها على الشعب
وبعضها على الولاة ، كما تتحمل الخلافة نفسها شطرا منها •

* * *

نشاط الجيش الفاطمي من صقلية

اتخذ جيش الفاطميين « صقلية » قاعدة تحرك منها لغزو بعض بلدان « أوروبا » ، ووجه منها نشاطه العسكري ضد الدولة الرومية البيزنطية .

ويلاحظ أن « الأسطول » سيقوم بنصيب وافر في العمليات للحربية بهذه البلاد ، ذلك لأن طبيعتها الساحلية كانت تدعو لاستخدامه ، بل إن الاعتماد عليه كان شبيها أساسيا لصنع النصر وكسب المعارك .

وقد أخرج الخليفة الفاطمي جيشا من أفريقية ، وانضم إليه جيش آخر كونه والي صقلية « سالم بن راشد » ، وتوجه الجيشان بقيادة ذلك الوالى ففتحا « غديران وأبرجة » وغنما منهما المغانم الكثيرة ، ثم قصد الجيش الصقلي أرض « قلورية »^(١) وحاصر « طارنت » حتى تم فتحها بالسيف ، بعدها ضيق على هل « أدرننت » لكنه لم يتمكن من فتحها بسبب مرض اضطر الجنود للعودة^(٢) .

وقد تعرضت البلاد الرومية لكثير من الحملات المعززة بالأسطول الفاطمي . فقد خرج « مسعود الفتى » في عشرين شينيا لغزو بلاد الروم فافتتح مدينة « أغانى » كذلك تولى « جعفر بن عبيد الحاجب » على لأسطول فاطمي كبير ، وقصد بلاد الروم ، وسبى من جنودها .

(١) قلورية : جزيرة كانت تقع شرقي صقلية ذات مدن وبلاد واسعة ، وهى الآن جوى ايطاليا واسمها Calabria راجع معجم البلدان لياقوت ، وحسن ابراهيم - تاريخ الدولة الفاطمية ص ١١٠ أما أدرننت فهى مدينة بايطاليا otrante (تاريخ الدولة الفاطمية - الموضع السابق) ، وأما طارنت فهى مدينة تكون مع « انكبردة » ما يعرف اليوم بـ كالبره calabre انظر : شكيب ارسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٥٣ ، وكانت مدينة بصقلية ابام الدولة الفاطمية (ياقوت : معجم البلدان) أما القيران فهى حصن بصقلية بعد قصر ياننة ، والحسب كذلك - راجع : تاريخ ابن خلدون ٤ ص ٢٠٠ .

(٢) انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٥٤ حوادث سنة ٣١٣ هـ .

أما « أبو جعفر بن عبيد الحاجب » فقد خرج من صقلية للغزو في بلاد الروم ، واستطاع أن يفتح أماكن كثيرة منها مدينة « وارى » ، وقد قتل فيها ستة آلاف وأسر عشرة آلاف ثم عاد الى « صقلية » ومنها الى « المهديّة » .

وقد أخرجت الخلافة الفاطمية « صابرا الفتى » على رأس حملات ثلاث لنفس الهدف ، وكان معه في المرة الأولى أربعة وأربعون مركبا أصاب بها المخاض ونال من عدوه ، وفي الحملة الثانية خرج من « صقلية » فافتتح موضعا يعرف بالقيران وقلعة الحسب واستولى على ما فيها ، ثم فتح مدينتي « سليرونيل » صلحا وعاد الى قاعدته ، وفي الغزوة الثالثة التقى « بالرغوس » وأمكنه أنه يهزمه في البحر بالرغم من تفوقه في العدد ، وخضعت مدينة « ترمولة » في هذه الحملة للفاطميين ، وأخذ من عساكرهم سبيا كبيرا ثم عاد الى « المهديّة » (٣) .

وكانت الخلافة الفاطمية ترغب في أن تكون مهابة دائما بهذه النواحي ، ولذلك أعدت جيشا ، وأخرجت أسطولا من دار الصناعة بالمهديّة ، وتولى القيادة « يعقوب بن إسحاق » ، واستطاع أن يفتح « جنوة » وأن يمر « بسردينية وقرقسيا » ، ويحرق فيهما المراكب الكثيرة ، وغزا نفس الأسطول « كورسكا » وأعلى صيت المسلمين في البحر ، وفرض هيبتهم على هذه السواحل ، وأصبح البحر الأبيض المتوسط بحق بحيرة اسلامية (٤) .

(٣) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ صفحات : ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٣٦ ، ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٠٨ حوادث سنة ٣٢٣ هـ ، الذهبي : تاريخ الاسلام ج ١٨ ص ١٥٤ ، حسن عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ٨١ ويقول : « جنوة » اعظم مرسى تجارى بالجهة الشمالية من ايطاليا ، وكورسكا وسردينية ، جزيرتان عظيمتان بقرب البحر المتوسط ، الاولى تابعة « لفرنسا » والثانية تابعة « لاطاليا » . وقد حكمها المسلمون فترة طويلة ، وانظر المرجع والموضع السابق الاشارة اليهما .

ويظهر أن ملك الروم ظن الضعف بالخلافة الفاطمية أيام الخليفة « المنصور » بسبب الصعوبات الداخلية ، والثورات فى البلاد ، ولذلك عقد العزم على التحرك الى « صقلية » ، لكن الخليفة لم يمهله طويلا ، فما كاد يسع بعزم الملك الرومى حتى جهز أسطولاً حربياً كبيراً بقيادة « رشيق » وبعث به الى بلاد الروم ، فأتى له أن يفتح كثيراً من بلدانها ويغنم منها مغانم كثيرة ، ونجح بذلك فى شل حركة ملك الروم ورده خائباً مدحوراً (٥) .

فتح طبرمين (٦)

تعتبر تلك القلعة من أمنع القلاع الرومية ، ومن أصعب الحصون وأشدّها على المسلمين ، وقد عزم الخليفة الفاطمى « المعز لدين الله » على بذل كل ما فى وسعه لضم هذه القلعة لممتلكاته مهما كلفه ذلك من ثمن .

وقد أعد لذلك الغرض جيشاً قوياً تولى عليه أمير « صقلية » « أحمد بن الحسن بن على بن أبى الحسن » ، وتوجه ذلك الجيش من صقلية الى تلك القلعة ، وحاصرها من جميع جوانبها فامتنع أهلها فيها ، واستقر المسلمون يحاصرونها زمناً دون أن يظفروا من وراء ذلك بطلائع ، ثم اهتموا الى فكرة كانت نقطة تحول غيرت مجرى الحوادث لصالحهم ، فقد تعمدوا قطع الماء الذى يدخل الى القلعة وحولوه الى مكان آخر ، عندئذ أسقط فى يد أهلها وأرسلوا يطلبون الأمان ، فرفض المسلمون تأمينهم ، فطلبوا أن تصبح أموالهم فيئاً ، وأن يكونوا هم رفيقاً ولا تسفك دماؤهم فأجابهم الجيش الاسلامى لذلك وأخرجهم من البلد ، وسيطر عليها بعد حصار دام ثمانية أشهر .

(٥) ابن أبى دبنار : المؤنس ص ٥٩ ، ابن أبى الضياف : اتحاف اهل الزمان ج ١ ص ١٢٣ ، حسن عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ٨١

(٦) طبرين : قلعة حصينة بصقلية تقع بالقرب من جبل النار المطل على البر : ياقوت معجم البلدان .

وقد وصل سبى هذه القلعة الى « المعز » بعد فتحها ، وكانت
جملته ألفا وسبعمائة ونيفا وسبعين^(٧) ، كما أسر المسلمون الأسطول
الرومى كذلك^(٨) ، ثم أسكن الخليفة البلد نفرا من المسلمين ، وسميت
« المغربية » نسبة للى « المعز لدين الله الفاطمى »^(٩) .

فتح ومطة^(١٠)

رغب الخليفة الفاطمى فى فتح هذا البلد ، فجهز لذلك جيشا
جعل على قيادته « الحسن بن عمار » ، وقد حاصر ذلك الجيش المدينة ،
وضيق على أهلها من الروم ، ولما شعر هؤلاء بحرج موقفهم ،
وأنهم لا قبل لهم بالجيش الاسلامى ، اتصلوا بملك « القسطنطينية »
الامبراطور بارسال الثانى (٩٦٣ - ١٠٢٥ م) . وطلبوا انجادهم
بالعساكر ، فجهز لهم جيشا يزيد على أربعين ألف مقاتل ، وبعث
به اليهم .

وكان الوضع الجديد يحتم على المسلمين الاستعداد له ، فأرسل
أمير « صقلية » الى الخليفة « المعز » يطلب سرعة امداده بالعساكر ،
فجمع الخليفة مقاتلة البر والبحر ، وأعد الأسطول وزاد فى وحداته ،
وحشد كل ما يمكن من الرجال ، وفرق فيهم الأموال ، وبعث ببعضهم
الى والى « صقلية » ، وأرسل الآخرين الى المحاصرين « لمطة »
حيث شاركوهم حصارها .

ثم وصل الروم الى « صقلية » فى جموعهم الحاشدة ، فاضطر
مقدم الجيش الاسلامى الى أن يبرز بعساكره للقاء الروم المهاجمين ،

(٧) أنظر : تاريخ أبى الفدا مجلد ٢ ص ١٠٢

(٨) أنظر : ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٠

(٩) أنظر : أبو الفدا : تاريخ أبى الفدا مجلد ٢ ص ١١٠ ،

ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٥ حوادث سنة ٣٥١ هـ .

(١٠) رمطة : قلعة ومدينة بصقلية بعيدة عن البحر ، بينها وبين

مسينى تسعة أميال - راجع : ياقوت معجم البلدان ، وحسين إبراهيم :

تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٠ . وابن خلدون / التاريخ ج ٤ ص ٤٧

وأبقى طائفة من رجاله على « رمطة » يمنعون الخروج منها ، وبلغ الأمر ذروته على العسكر الإسلامي ، وأحاط الروم بهم ، وأراد أهل « رمطة » اتيان المسلمين من وراء ظهورهم ، بيد أن الجند الإسلامي كان حذرا ، ومنتبها لهم ، فلم يمكنهم من تحقيق ما أرادوا .

بعد ذلك تقدم الروم للقتال فخورين بكثرتهم وبما معهم من آلات حربية ، وهجموا على المسلمين في قوة ، وألحقوهم بالقيام ، لكن أمير المسلمين أخذ يحبس جفده وارتفعت الأصوات تحرض المسلمين على القتال ، فألهم ذلك حميتهم وجعلهم يختارون ما عند الله ، ويؤثرون الموت على الحياة ، وفعل بطارقة الروم مثل ذلك ، وأخذوا يشجعون لأعوانهم .

حمى وطيس المعركة بعد ذلك ، وحمل مقدم الروم على المسلمين ، فرمى بعض الجند المسلم فرسه وأرداه قتيلا ، واشتد القتال حول ذلك القائد وتمكن المسلمون من قتله هو وجماعة من بطارقتة .

وكان قتل ذلك القائد بداية الهزيمة الرومية ، والانتصار الإسلامي ، فقد ضعفت معنويات الجنود بعد مقتله ، وأكثر المسلمون القتل فيهم ، بل إن بعضهم أخذ يقتل بعضا ، بسبب ما نالهم من ضعف وخوف وجزع ، وتردوا في حفرة امتلأت بهم ، وقتل منهم في هذه المعركة ما يزيد على عشرة آلاف نفس^(١١) وغنم المسلمون من السلاح وصنوف الخيل والأموال ما لا يحصى .

أما أهل « رمطة » فإن نفوسهم قد ضعفت بهزيمة حمايتهم ، وقتلت الأقوات عندهم ، وخرج الناس ، ولم يبق في المدينة إلا المقاتلة فقط ، وقد زحف المسلمون اليهم ، ومقاتلوهم يوما وليلة ، ثم تقدموا بالسلالم ، وملكوا البلد عنوة ، وقتلوا من فيها وأسروا الأطفال والنساء وغنموا منها أشياء كثيرة ، ثم أخذ المسلمون في إصلاح ما أفسدته الحروب بتلك المدينة ، واهتموا بتعميرها^(١٢) .

(١١) تاريخ أبي الفد مجلد ٢ ص ١٠٢

(١٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ صفحات ١٩٥ و ١٩٩ و ٢٠٠

حوادث سنة ٣٥٣ هـ ، ٩٦٤ م

واقعة المجاز (١٣)

تجمع من سلم من الروم فى القتال السابق ، وانضم اليهم من أمكنه الفرار الى « صقلية » ، وركبوا جميعا المراكب وحاولوا الهرب بعيدا عن المسلمين .

لكن الجيش الفاطمى خشى أن ينجح هؤلاء فى تجميع قومهم ، ويمثلون بذلك خطرا على الخلافة الفاطمية ، ولذلك ركب والى « صقلية » ومعه العساكر فى المراكب ، وزحفوا الى عدوهم فى الماء ، وقامت بين الطرفين معركة اشند القتال فيها دون أن يظفر أحد .

ثم صمم المسلمون على وضع حد لهذه المعركة ، فألقى جماعة منهم بأنفسهم فى الماء ، وخرقوا مراكب الروم ، وأغرقوا الكثير منها ، وأكثروا القتل فى عدوهم ، فانهمز أمامهم ، وكان خرق سفنهم نقطة فاصلة لهزيمتهم وانتصار المسلمين عليهم .

بعد ذلك سارت السرايا الاسلامية فى المدن الرومية ، وغنمت ما فيها ، فبذل أهلها الأمان للمسلمين وهاذنوهم .

وعرفت الواقعة البحرية التى دارت بين الجيش الاسلامى وبين فلول الروم المنهزمين بواقعة « المجاز » (١٤) .

الأسطول الفاطمى يفتزو الأندلس

أعد الخليفة الأموى « عبد الرحمن الناصر » مركبا تجاريا كبيرا ، وشحنه بالبضائع وأرسله الى المشرق ليبيع ويستعاض عن بضائعه بأخرى مشرقية .

(١٣) لا نصرف سبب تسمية هذه الواقعة بهذا الاسم ، كما لا نعلم أحدا فى القديم أو الحديث قدم سببا لهذه التسمية .
(١٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٩ و ٢٠٠ حوادث سنة ٣٥٣ هـ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ج ١١ ص ٢٥٣ و ٢٥٤ . طبع القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ وكذلك العدوى : الأساطيل العربية ص ١١٨

وصادف المركب الأندلسى فى عرض البحر ، سفينة فيها رسول
من والى « صقلية » بعث به الى الخليفة « المعز » بمكاتبات ، فاعترض
الأندلسيون طريق سفينة الوالى الفاطمى واستولوا على ما فيها .
ولما علم الخليفة ذلك اعتبر هذا العمل اهانة وجهت اليه ،
وقرر الانتقام ، وأعد لذلك أسطولاً جعل عليه « الحسن بن على »
والى « صقلية » .

وقد توجه ذلك الأسطول الى « الأندلس » فوصل الى
« المرية »^(١٥) وأحرق جميع ما كان فى مبناها من المراكب الأندلسية ،
وقتل من وجد فى البر عندها ، ونهب ما أمكنه ثم عاد الى المهدية .
وفوق ذلك استولى الفاطميون على المراكب المعتدية أثناء عودتها
من الاسكندرية^(١٦) .

وبذلك تمكن العسكر الفاطمى من غزو الدولة الأموية فى
عقر دارها ، وفرضوا سيطرتهم عليها ، وحملوهم على مهابتهم .
ومما سبق يتضح نجاح الجيش الفاطمى فى نشر سلطان تلك
الدولة على كثير من البلدان ، كما تمكن — بمعاونة الأسطول — من
جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة اسلامية ، وانقرع هيبة الروم
والأمويين ، وفرض احترام الخلافة الفاطمية على كثير من الشواطىء
الأوربية .

وقد كانت كناية وصنهاجة — بالإضافة الى العبيد وبعض القبائل
الأخرى — أساس الجيش الفاطمى فى هجومه ، كما كانوا عتاده فى
الدفاع عن البلاد وحمائتها من أعدائها ، وقد قدمت كلتا القبيلتين عوناً
كثيراً الى الفاطميين .

(١٥) المرية : القاعدة الرئيسة للأسطول الأندلسى . راجع :
العدوى . الأساطيل العربية ص ١١٧
(١٦) ابن حماد : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٤٠ وكذلك
العدوى الأساطيل العربية ص ١١٦ ، ١١٧

الجيش الفاطمي يحارب الروم البيزنطيين في أنطاكية

أتم « جعفر بن فلاح » القائد الفاطمي فتح بلاد الشام كما مر ، ثم رغب في أن ييسر رقعة الخلافة الفاطمية ، فأرسل الى قائده الأعلى « جوهر » يستأذنه في التوجه الى « أنطاكية » فجاءه الإذن بذلك ، واعد عشرين ألفا من الجنود أرسل بهم الى تلك المدينة ، تمكنوا من محاصرتها مدة ، وعلم الروم بذلك ، فأرسلوا مددا لها حمل الفاطميين على ترك حصارها والعودة منها الى « دمشق » .

لكن لما إذا انسحب الجيش الفاطمي . ؟ لأن المدد الرومي كان كبيرا فلم يستطع العسكر الفاطمي مواجهته ، وهل يعد عشرون ألفا من الجنود عددا قليلا لا يقوى على مواجهة العدو الرومي . ؟

الأرجح هو أن الأخبار قد تواترت عن مجيء القرامطة ، وكثر الحديث عن توجههم نحو « دمشق » كما كثر الارجاف بمقدمهم وبإحديث عن مقاتلتهم للفاطميين ، وأخرجهم لهم من بلاد الشام ، لذلك عاد الجيش الفاطمي من « أنطاكية » ليكرس كل جهوده للمقاتلة في جبهة واحدة ، ولينقذ البلاد من سيطرة القرامطة عليها ، واستطاع الحكم الفاطمي منها (١٧) .

بين الجيش الفاطمي والدولة الرومانية البيزنطية

اتصل بالخليفة الفاطمي العزيز رجل يدعى « علي بن الحسن المغربي » - من كبار الموظفين « بحلب » - ونجح في إقناعه بالعمل على فتح هذا البلد ، وتخليصه من الصليبيين ، وأشار عليه بتكوين جيش لهذا الغرض يتولى قيادته واحد من الأتراك حتى يستجيب له بنو جنسه من ممالك صاحب « حلب » .

(١٧) انظر : تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٣٨ و ١٣٩ ، الدواداري زبدة الفكرة ج ٦ لوحة ٢٠٨

وقد أعد الخليفة الفاطمي ذلك الجيش ، وجعل عليه « منجوتكين » وزوده بما يحتاج اليه ، وخرج بنفسه لتشجيع الجنود وتوديعهم •

وسار الجيش حتى وصل إلى « دمشق » ، ومنها توجه إلى « حلب » في ثلاثين ألفا ، وكان بتلك المدينة أبو الفضائل بن سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان ، ولؤلؤ الحمداني فأغلقا أبواب المدينة ، ودفعا ما وسعهما الجهد ، ثم حدث أمر وسع نطاق الحرب ، وجعل الدولة الرومية تتدخل فيها •

ذلك أن « الحمدانيين » قد كاتبوا ملك الروم الامبراطور باسل الثاني (١٦٣ - ١٠٢٥ م) يستجدونه ، ويطلبون معونته لقتال الفاطميين ، وتقربا اليه بما كان بينه وبين أسلافهم من المودة والمعاهدة •

إزاء ذلك ، قرر الملك الرومي الاستجابة لنداء هؤلاء القوم ، وكلف نائبه على « انطاكية » أن يتجهز بعساكره ، ويسير إلى « حلب » ويخلصها من الفاطميين •

سار ذلك النائب في خمسين ألفا ، ونزل ما بين أنطاكية وحلب ، ولما علم القائد الفاطمي بذلك ، وضع خطته على أساس أن ينسحب من « حلب » ويتوجه لمقاتلة الروم قبل أن يصلوا إليها حتى لا يقع بين عدوين •

وتم تقابل الجمعين فعلا ، ولم يفصل بينهما إلا النهر المقلوب « العاصي » وأخذ الفريقان يتراشقان بالنشاب ، ولم يتييسر عبور النهر لأيهما نظرا لكثرة المياه •

ومع ذلك فقد حمل أحد الطاعنين في السن الجيش الفاطمي على العبور ، فقد أخذ ذلك الرجل في اجتياز النهر بين رمي العدو له بالنشاب حتى أصبح على الأرض من البر الآخر ، إزاء ذلك وجد عسكر « منجوتكين » نفسه مضطرا إلى الرمي بأنفسهم في الماء ، فرسانا ورجالة ، حتى أصبحوا مع الروم في أرض واحدة ، ودخلوا

معه في معركة كانت نتيجتها انتصار المسلمين ، وولى الروم ، وأفلت كبيرهم في عدد كبير الى « أنطاكية » وغنم المسلمون من الأموال والمقتات شيئا كثيرا .

وجد الحمدانيون أنه لا طاقة لهم بالجيش الفاطمي ، كما وجدوا أن الحيلة قد تكون أجدي في حملهم على الرحيل من « حلب » .

فاتصلوا برجال « منجوتكين » وبذلوا لهم ما يرضيهم ، وسألوهم المشورة عليه بالعودة الى « دمشق » والرجوع في العلم القادم .

ولما عرض ذلك على القائد الفاطمي ، صادف هوى في نفسه ، فقد مل الحرب واشتاق الى « دمشق » ، ولذلك كتب الى الخليفة يدعى نفاد « الميرة » وأن العسكر لا طاقة لهم على المقام ، ويستأذن في الرحيل .

وغادر « حلب » قبل أن يصله رد الخليفة ، الشيء الذي أحنق « العزيز » عليه ، وأحدث رد فعل عنيف في حكومته .

وعلى كل حال فقد عاد « منجوتكين » الى حلب في العام التالي ، وبني الدور والحمامات والأسواق بظاهر تلك المدينة ، وصمم على فتحها ، وقاتل أهلها واشتد عليهم حتى عدت الأقوات عندهم ، فقرّر ملكها الاستنجاد بالروم مرة ثانية ، وقال للكهنة « متى أخذت حلب » أخذت « أنطاكية » ، ومتى أخذت « أنطاكية » أخذت قسطنطينية » .

ولما تأكد لدى الملك الرومي الامبراطور باسل الثاني (٩٦٣ - ١٠٢٥ م) ، تعرض بلاده للخطر ، خرج بنفسه على رأس مائة ألف من العساكر ، وأغذ في سيره حتى قطع المسافة ما بين حلب والقسطنطينية في ١٧ يوما والقوافل تقطعها في شهرين (١٨) .

وجاءت الجواسيس الفاطمية لتنتهي الى « القائد منجوتكين » عظم ما قدم به الجيش الرومي ، وكثرة عدده ووفرة استعدادده ، فأحرق

(١٨) ابن ايبك : كنز الدرر ج ٦ مجلد ٢ ورقة ١٤٨ و ١٤٩

ما لديه من خزائن وأموال وولى منهزما بدون قتال حتى وصل الى
« دمشق » .

أما ملك الروم فقد وصل الى « حلب » واستولى عليها وعلى
جميع حصونها ، ثم نزل على « حمص » وافتتحها عنوة بالسيف ، وسبى
أكثر من عشرة آلاف من أهلها ، ثم قصد « طرابلس » ، وكانت تلك
المدينة هي القلعة التي توقف عندها الزحف الرومى ، فقد حاصرها
الروم أربعين يوما ، لكنها امتنعت عليهم فرحلوا عائدين الى بلادهم ،
ومع ذلك فقد كان المغاربة من أصحاب « منجوتكين » أصعب على
الناس من الروم ، بسبب نهبهم وفسادهم فى البلاد (١٩) .

علمت الخلافة الفاطمية فى مصر ، بما صنعه ملك الروم فى بلاد
الشام ، فعظم ذلك على الخليفة « العزيز » ، ونادى فى الناس
بالنفير ، وفتح خزائنه وأنفق على جنده بسخاء ، وأظهر العزم على
غزو بلاد الروم ، وطلب الخليفة من وزيره اعداد أسطول يشارك فى
القتال ، فتم ذلك فى دار الصناعة ، وجمع له الآلات والأسلحة والعدد
وتقرر أن يسير ذلك الأسطول ، غير أن كارثة وقعت له فأحرقت ،
وصنع بديل له شحن بالرجال وأخرج الى البحر ، لكن ريحا هبت
عليه فكسرتة هو الآخر (٢٠) .

ومهما يكن من أمر فقد سار « العزيز » فى جيوش هائلة ،
ومعه ثوابيت آبائه ، وتوجه الى بلاد الشام لينتقل منها الى بلاد
السروم .

وغير أن مرض « القولنج » أصابه عند « بانياس » (٢١) وتزايد
عليه حتى أودى بحياته سنة ٣٨٦ هـ .

(١٩) المرجع والموضع السابق .

(٢٠) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، كذلك العدوى

الاساطيل العربية ص ١٢٦ وما بعدها .

(٢١) بانياس : الموجود بنابوس قرية أعمال مركز الزقازيق
شرقية ، وانظر محمد رمزى القاموس الجغرافى القسم الثانى
ج ١ ص ٨٤

وبذلك توقف زحف الجيش الفاطمي المتوجه لحرب الدولة الرومية (٢٢) .

وبسبب استنجد عرب الشام بالروم ، اصطدمت الخلافة الفاطمية بالدولة الرومانية على عهد الخليفة « الحاكم » .

فقد تغلب على « صور » أيام ذلك الخليفة رجل يعرف « بعلاقة » واستنجد بملك الروم ، وسأله معونته ، فأرسلت الخلافة الفاطمية جيوشا قضت على تلك الحركة ، واستولت على مركب من أسطول الروم فيه مائتا نفس قتلوا عن آخرهم (٢٣) .

مالت العلاقات الفاطمية - الرومية بعد ذلك الى المسالمة ، وتم عقد هدنة بين الطرفين ، ظل كلاهما محترما لها الى سنة ٣٣٢ هـ حيث تجدد الصدام بينهما على عهد الخليفة الفاطمي « المستنصر » .

وهكذا تلونت العلاقات الفاطمية - الرومية ، ولم تثبت على حالة واحدة ، فهي أحيانا علاقات مسالمة ومهادنة ، اذا كان الفاطميون في حالة القوة تمكنهم من ارهاب الروم ، وتفرض سيطرتهم على هؤلاء .

فاذا ما شعر الروم بضعف في بلاد الدولة الفاطمية أو اختلال في أحوالهم ، أو اضطراب في دولتهم ، سارعوا بمحاربتهم والاستجابة للمستجدين بهم .

وكما كانت « صقلية » ميدانا لهذه الحروب ، كانت بلاد الشام ميدانا آخر لها ، وقد أمكن الجيش الفاطمي في كل مرة أن يقهر عدوه ، وأن يحمل الرومان على هيبة الخلافة الفاطمية .



(٢٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٦ وما بعدها ،
سبط ابن الجوزى : المرآة ج ٧ من ص ٢٣٣ الى ٢٣٧
(٢٣) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٧١ و ١٨٢

الفصل السادس

عناصر الجيش الفاطمي ومعسكراته

عناصر الجيش الفاطمي :

انتهى بنا البحث في الفصول السابقة الى أن قبيلة « كتامة » — التي أقامت في منطقة القبائل الصغرى بالمغرب الأوسط — كانت العنصر الأساسي المكون للجيش الفاطمي في مرحلة قيام الدولة بافريقية ، وهناك قبائل أخرى شاركت « كتامة » في نصرة الفاطميين ، وعاونتهم في حركاتهم العسكرية ، لكن اعتماد الفاطميين على هؤلاء لم يكن دائما ، وانما كان يأتي في بعض الظروف والمناسبات .

فمثلا قاتلت « عجيسة » في جانب الفاطميين أثناء ثورة « أبي يزيد » كما اشتركت « مكناسة » في اخماد ثورة « سبلماسة » ضد الدولة الفاطمية وساهم العبيد في الحروب مع الخلافة الفاطمية كذلك^(١) .

وهناك عنصر آخر برز — كنصير للفاطميين — أثناء محاربة الخليفة « المنصور » للثائر « أبي يزيد » ، ذلك العنصر يتمثل في قبيلة « صنهاجة » التي احتلت منطقة القبائل الكبرى في بلاد المغرب ، وأصبحت منذ استعانة « المنصور » بها ركنا أساسيا ، عليه يعتمد الفاطميون في تصديهم لأعدائهم ، وفي توسيع حدود دولتهم^(٢) .

وقد تكونت الجيوش الفاطمية التي وفدت لفتح مصر ، واستقرت بها بعد الفتح ، تكونت من المغاربة ومن عرب افريقية وبربرها . فكان فيها زويلة ، ومن الروم ، ومن كتامة ، ومن البرقية ، ومن المصامدة ، كما كان فيها جماعة يسمون « بالحمزيين » نسبة الى قرية يقال لها « حمزة » في افريقية^(٣) .

(١) انظر ما سبق ص : ٥٦ ، ٧٤ من هذا البحث .

(٢) انظر ما سبق ص : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ من هذا البحث .

(٣) انظر المقرئزي : الخطط : المجلد ٢ ج ٣ من ص : ٤٠٥ الى

ص : ٤٢٦ في مواضع متفرقة ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ من

ص : ٣٥٣ الى ص : ٣٥٩ في مواضع متفرقة .

وقد كانت قبيلة « كثامة » هي أسنان العساكر الكثيرة ،
التي وفدت مع « جوهري » لفتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ، وكانت أصل الجيش
الفاطمي ، كما كانت كذلك في عهد « المهدي » (٢٩٧ : ٣٢٢ هـ) والقائم
(٣٢٢ : ٣٣٤ هـ) والمنصور (٣٣٤ : ٣٤١ هـ) « ببلاد المغرب » (٤) .

ولم يقف الأمر عند حد من قد موامع « جوهري » ، بل أن
الخليفة « المعز » (٣٤١ : ٣٦٥ هـ) عندما جاء الى مصر سنة ٣٦٢ هـ ،
صحبه حشد من العساكر ينتمي الى كثامة وزويله من البربر ،
بالإضافة الى الروم والصقالبة (٥) .

ومن ناحية العدد « فلم تكن جيوشه تعد ، ولا للبا أوتيه
حد ، بل قيل انه لم يطل الأرض من بعد جيش الاسكندر بن فيليس
المقدوني ، أكثر عددا من جيوش « المعز » » (٦) .

ولما مات الخليفة « المعز » سنة ٣٦٥ هـ ، وتولى بعده ابنه
« العزيز » (٣٦٥ : ٣٨٦ هـ) اتخذ خطوة مثلت تطورا هاما وخطيرا
في العناصر المكونة للجيش الفاطمي . ذلك أنه أدخل الديلمية والأتراك
في صفوف جيشه ، وجعلهم خاصة وبطانته ، وذلك بعد انتصاره
على « الفتكين التركي » فقد قدم بذلك القائد - ومعه رجاله - الى

(٤) المقرئى : المرجع السابق والجزء السابق ص : ٤١٧

(٥) مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ص ١٧٠ ،
ص ١٧١ ، القاهرة سنة ١٩٤٨ م والصقالبة هم العبيد من الأسبان
من لفظة « اسكلابو » الإسبانية ، والعرب يطلقون نفس الكلمة على
« السلاف » من شعوب أوروبا الشرقية والجنوبية (فيليب حتى - تاريخ
العرب مطول ج ٢ ص ٣٠٣) .

وكان النحاسون يحملونهم للاتجار فى جميع أنحاء العالم ، وهم من
طوائف العسكر الفاطميين ، وباسمهم شارع فيما بين حارة زويلة وخان
أبى طاقية .

انظر : التعليق بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٨٧

(٦) المقرئى : الخطط مجلد ١ ج ٢ ص ١٦٨ ، مجلد ٢ ج ٣

القاهرة ، واكمه واختفى به ، وأنزله هو ومن معه من ديالمسة وأتراك
فى العاصمة المصرية ، وبالغ فى الاحتفاء بهم^(٧) .

وأصبحت العساكر الفاطمية على عهد ذلك الخليفة ما بين ديالمسة
وأتراك ، ومغاربة ومصامدة .

يقول المقرئى :

كانت « كتامة » هى أصل الدولة مدة خلافة المهدي عبيد الله ،
وخلافة ابنه القائم بأمر الله ، وخلافة المنصور بنصر الله اسماعيل
بن القاسم ، وخلافة معد المعز لدين الله بن المنصور ، وبهم أخذ ديار
مصر ، لما سيرهم اليها مع القائد « جوهري » فى سنة ثمان وخمسين
وثلاثمائة ، وهم أيضا كانوا أكابر من قدم معه من المغرب سنة اثنين
وسنتين وثلاثمائة ، فلما كان فى أيام ولده العزيز بالله « نزار » اصطنع
للديلم والأتراك ، وجعلهم خاصته ٠٠٠٠ » .

ويقول الشيبلى :

« ان العزيز بالله (٣٦٥ : ٣٨٦ هـ) أول من استعان من الفاطميين
بالعصرين التركى والسودانى ، فأصبح فى جيش مصر فرقتان من
هذين العنصرين بعد أن كان اعتماد الفاطميين على المغاربة ٠٠٠٠٠٠ وقد
كانه هذه العناصر مصدر قوة فى أول الأمر لما امتاز به الترك
والسودان من الشجاعة والاقدام ، غير أنها لم تلبث أن أصبحت سببا
من أسباب ضعف الدولة وانحلالها ، عندما دب النزاع وقامت لأسباب
المنافسة والنضال بينهما »^(٨) .

ومن الطبيعى أن يؤدى اختلاف الأجناس وتعدد الأصول فى فرق
الجيش الى التنافس والتنافس فيما بينها ، وذلك ما حدث فى
العهد الباكر لذلك التعدد .

(٧) انظر الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤١٧ - ٤١٨

(٨) انظر : تاريخ مصر الاسلامية ج ١ ص : ٢٣٦

فقد جنح « العزيز » الى جانب « المشاركة » ، وأحسّد بذلك « المغاربة » وسبب ذلك تنافسا بين الطائفتين : طائفة المشاركة من جانب ، والمغاربة من جانب آخر ، ووضع الخليفة بذلك بذرة تركية حقّد وتنافس ، سيكون مشغلة للدولة فيما بعد ، وعبئا جسيما م يكلفها الكثير ، ويستنفذ جهدها ، بل سوف يودى بها فى النهاية .

وهناك شىء جدير بالملاحظة حدث فى عهد ذلك الخليفة « العزيز » فقد أعاد لوزير « ابن كلس » جميع سلطانه بعد أن غضب عليه وسجنه ، ثم زاد ووهبه خمسمائة غلام من الناشئة وألفا من المغاربة ، وشكل هؤلاء فرقة خاصة حملت اسم « الوزيرية » نسبة للوزير « ابن كلس » وكان له السلطان المطلق عليها .

ومعنى ذلك أن الخليفة الفاطمى ساعد وزيره على تكوين فرقة ، يتولى امرتها ، وله عليها كل السلطان ، بل وتتسبب اليه وتستمد اسمها منه ، وستكون هذه السابقة ظاهرة يتكرر حدوثها فى عهد تلك الدولة ، فتنشأ الفرق الخاصة التى تحمل اسم الخلفاء أو الوزراء وستكون مهمة هذه الفرق أشبه بمهمة الحرس الخاص لرئيس الدولة أو رئيس الوزراء أو الوزير فى عصرنا الحديث .

هذا عن عصر « العزيز » .

ولما جاء عصر « الحاكم » (٣٨٦ : ٤١١ هـ) كانت العناصر فى صفوف جيشه تتنوع — بالإضافة الى « الكتامين » الى ترك وديالمة م ومصامدة ، وصقالبة وعبيد سود وغير ذلك^(٩) .

وهنا نشهد وجود طائفة جديدة يدخلها الخليفة « الحاكم » فى صفوف جيشه لأول مرة ، وسيكون لها شأن ، وستسبب تصدعا فى الجبهة الداخلية فى العهود القادمة ، تلك هى طائفة عبيد الشراء ، فقد اشترى « الحاكم » مجموعة ضمها الى عسكره م جاء فى الخطط :

(٩) انظر : ابن اياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٥٧ طبع بولاق سنة ١٣١١ هـ .

وقام من بعده — من بعد العزيز — أبو على المنصور الملقب بالحاكم بأمر الله ، فقدم ابن عمار الكتامي وولاه الوساطة ، وهي فى معنى رتبة الوزارة ، فأستبد بأمور الدولة وقدم كتامة وأعطاهم وحث من الغلمان والأتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز ، فاجتمعوا لى « برجوان » وكان صقليا وقد تآقت نفسه الى الولاية ، فأغرى المصطنعة بابن عمار حتى ترك المنصب واعتزل عن الأمر ، وتقلد برجوان الوساطة ، فاستخدم الغلمان المصطنعين فى القصر وزاد فى عطايهم وقواهم ، ثم قتل « الحاكم » ابن عمار وكثيرا من رجال دولة أبيه وجده فضعفت كتامة وقويت الغلمان (١٠) .

ويقول « ماجد » :

« وكانت عناصر من مختلف الأجناس ، تدخل من جملة العسكر الفاطمى كما هو الحال فى جميع جيوش الدول الإسلامية ، فنجد السود من عبيد الثراء على الأخص من السودان الذين ازداد عددهم فى عهد الحاكم ، وتضاعفوا فى عهد المستنصر ٠٠٠٠٠ يكونون فرقة هائلة فى الجيش الفاطمى » (١١) .

لكن عدد هؤلاء العبيد زاد فيما بعد — فى عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ : ٤٨٧ هـ) — حتى بلغ خمسين ألفا ، فقد كانت والددة ذلك الخليفة أمة ، تكره أن يسود الترك فى الدولة ، فأكثر من شراء العبيد وحرصت ابنها على ذلك (١٢) .

وفى الأيام الأخيرة للدولة الفاطمية وصل عدد جيشها أربعين ألف فارس ، وستة وثلاثين ألف رجل ، وعشرة شوان بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل .

(١٠) أنظر : مجلد ٢ ج ٣ ص ٤١٨

(١١) أنظر : نظم الفاطميون ورسومهم فى مصر ج ١ ص ١٩٩ وما بعدها القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

(١٢) أنظر : ابن اياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٤٦

وكانت أجناسه ما بين عبيد سود الى أمراء مصريين الى عرب
وأرمن وغير هؤلاء^(١٣) .

أى أن المصريين اشتركوا فى جيش هذه الدولة ، وكونوا عنصرا
فيه ، فى الحقبة الأخيرة من عمرها .

ولابد للخليفة — وهو ليس الا بشرا — أن يميل لطائفة على
حساب الأخرى ، وأن يقرب جماعة ويدنيها منه ، بمقدار ما يباعد
بينه وبين جماعة ثانية ، ثم يدفع الثمن فى النهاية ، ضعفا فى دولته ،
وانهيارا لأركانها الى أن يتم تداعيها وسقوطها .
وهذا ما حدث فى عهد الدولة الفاطمية .

فقد قرب الخليفة « المعز » (٣٤١ — ٣٦٥ هـ) الكتامين ، وجعلهم
خاصته ومستشاريه ، لأنهم أقاموا دولة الفاطميين ، ونصروا خلفاءهم
فاستمروا لذلك أساس الدولة الفاطمية .

ثم جاء عصر « العزيز » (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) فانحطت درجة
المغاربة وكتامة^(١٤) وارتفع سهم الأتراك والديلم والمشاركة عامة ،
وقربهم الخليفة ، وأمر وزيره « ابن كلس » فأسقط المغاربة ، وولى
المشاركة مكانهم منذ سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) .

وقد أحست « كتامة » بما آل اليه أمرها من تدهور ، وانحدار
منزلتها فاشتترطت على « الحاكم » (٣٨٦ — ٤١١ هـ) عندما تولى
الخلافة ، أن يعيد لها اعتبارها ، وأن يكون لها المشورة والتقدير ،
ويرجع لها كل شئ كسابق عهدها . وقد أجابها الخليفة لطلبها ، وولى

(١٣) انظر : المقرئى : الخطط مجلد ١ ج ٢ ص ١٦٩

(١٤) انظر : على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٩ ، ١٠ ،
طبع بولاق بالقاهرة سنة ١٣٠٦ هـ .

« ابن عمار » — زعيم تلك القبيلة — الوساطة ، فارتفع شأن الكتامين ، لكنهم عادوا الى التدهور مرة ثانية ، عندما تولى الوزارة « برجوان الصقلي » فبتحريض « الحاكم » له ، ولكراهته الشخصية للمغاربة ، قتل كثيرا منهم ، واستمرت « كرامة » متدهورة المكانة ، ضعيفة المنزلة ، الى أن انتهى عصر « الحاكم » (١٥) .

وسوف يستمر « المشاركة » في التلاشي فيما بعد ، وسيرتفع بعدهم العبيد ، وسيسيطرون على كل شيء في الدولة ، وستفوم المنازعات والحروب بينهم وبين الأتراك وستكثر الفتن والاضطرابات . تماما كما حدث لدولة العباسيين ، عندما استكثر الخليفة « المعتصم » العباسي من طائفة العبيد الأجانب ، وأدخلهم في جيشه الشيء الذي سيترتب عليه شل حركة الدولة ، واستنفاد كل قواها ، وترك خزينتها خرابا باقيا .

وكما قامت الحرب بين الطوائف بسبب الحقد والتنافس كانت تنشب عندما يزداد في أرزاق طائفة ومرتباتها ، وينتقص من أخرى ، ولقد حدثت المنازعات لهذا السبب بين الترك والمغاربة ، كما قامت بين الترك والعبيد (١٦) .

وهناك مناسبة معينة — هو مناسبة الاحتفال بفتح الخليج — حضرها شاهد عيان ، هو الداعية « ناصر خسرو » ، وقد أمدنا بمعلومات عن فرق الجيش وعددها ، وما كان ينفق عليها زمن الفاطميين .

ووصف ذلك الرجل لفرق الجيش ، وإن كان على عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) وفي فترة متسأخرة عن الفترة التي نتعرض لها — إلا أنه يمكن أن يلقي ضوءا على عناصر الجيش الفاطمي ، وأصل كل عنصر ، وعدد أفراده .

(١٥) انظر : على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ١٠ .

(١٦) انظر : مشرق : نظم الحكم في مصر في عهد الفاطميين

ص ١٧٢ .

يقول :

« ان فرق الجيش كانت تسهم في هذا الاحتفال (يقصد الاحتفال بفتح الخليج فرقة فرقة ، وفوجا فوجا ، ولكل منها اسم وكنية تخصها •

فرقة الكتامين وهم من القيروان أتوا في خدمة « المعز لدين الله » ، وقيل أنهم كانوا عشرين ألف فارس •

وفرقة تسمى الباطليين ، وهم من رجال المغرب ، دخلوا مصر قبل مجيء الخليفة إليها (لعله يعني أنهم دخلوها أيام حكم جوهر القائد لها) وقيل أنهم خمسة عشر ألف فارس •

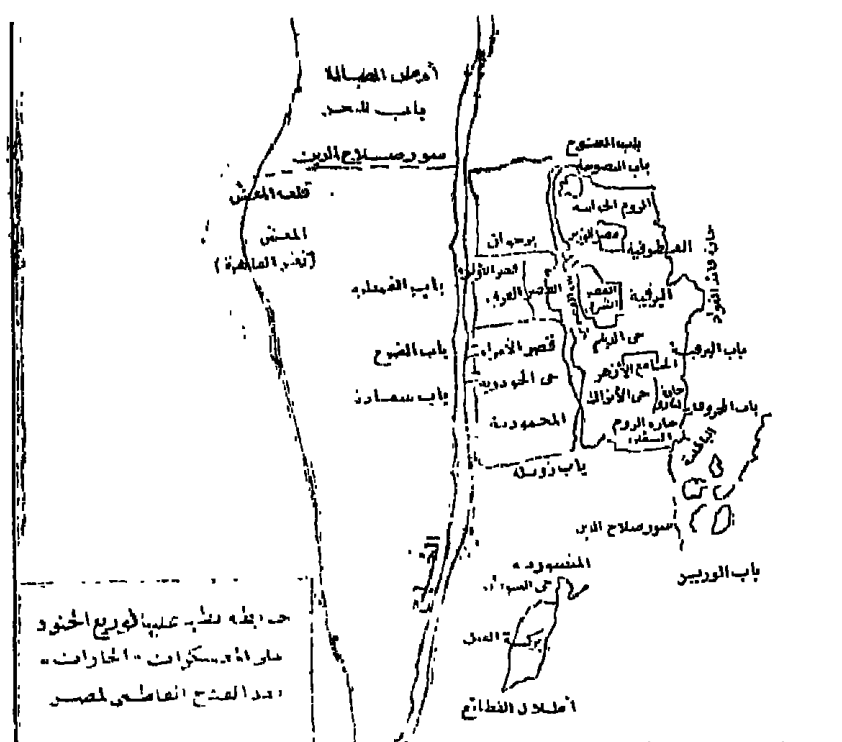
وفرقة تسمى المصامدة ، وهم سود قدموا من بلاد المصامدة ، قيل أنهم عشرون ألف رجل (١٧) •

وفرقة تسمى المشارقة ما بين ترك وعجم ، أخذوا هذا الاسم لأن أصلهم ليس عربيا ولو أن معظمهم ولد في مصر ، وقيل اشتق اسمهم من الأصل فهم من المشرق للجهة المقابلة للمغرب ، ولهذا سموا بالمشارقة قيل أنهم عشرة آلاف رجل ضخام الجثث •

وفرقة تسمى عبيد الشراء ، وهم عبيد مشترون قيل أنهم ثلاثون ألف رجل ، وفرقة تسمى البدو ، وهم من أهل الحجاز ، وكانوا يجيدون حمل الرماح قيل أنهم خمسون ألفا من الفرسان •

وفرقة تسمى الأستاذين ، كلهم خدم بيض وسود ، اشترىوا للخدمة وهم ثلاثون ألف فارس •

(١٧) تقع بلاد المصامدة في جنوب افريقية ، وتمتد حتى المحيط الأطلسي • انظر : مادة « المصامدة » في دائرة المعارف الإسلامية •



وفرقه تسمى « السرائين » وهم مشاة جاءوا من كل ولاية ،
ولهم قائد يتولى رعايتهم ، وكل منهم يستعمل سلاح ولايته وعددهم
عشرة آلاف رجل .

وفرقه تسمى « الزنوج » يحاربون بالسيف وحده ، قيل انهم
ثلاثون ألف رجل — ولعل الفرقتين الأخيرتين كانتا من العبيد ، ذلك أن
غير « ناصر خسرو » لم يذكرهما — .

ونفقة هذا الجيش كله كانت من مال السلطان ، ولكل جندي
مرتب شهري على قدر درجته ، ولا يجبر على دفع دينار منها
أحد الرعايا أو العمال ، وانما عليهم أن يسلموا لخزينة السلطان
أموال ولايتهم في كل ستة ، وتصرف أرزاق الجند من الخزينة في
وقتها المحدد ، بحيث لا يرهق وال واحد من الرعية بمطالب الجند^(١٨) .

هذا ويرتبط الحديث عن عناصر الجيش ، بالحديث عن
معسكرات تلك العناصر ، والفككات التي أقامت فيها ، ونأخذ الآن
في بيان ذلك .

« القاهرة » معسكرا للجيش الفاطمي :

استقرت الجيوش الفاطمية الوافدة لفتح مصر ، وفكر القائد
« جوهر » — أول ما فكر — في تأسيس حاضرة جديدة للبلاد ، تكون
مقرا للحكومة ، وموطنا لدواوين الدولة ، ومعسكرا لجيوشها .

ولم يكن فعل القائد الفاطمي بدعا في هذا الصدد ، فقد كانت
تلك قاعدة أو شيئا مألوفاً منذ أتم « عمرو بن العاص » فتح مصر
أيام الخليفة الثاني « عمر بن الخطاب » وأنشأ بها مدينة « الفسطاط » .

(١٨) انظر: ناصر خسرو: الرحلة ص ٥٢ وما بعدها ، القاهرة
سنة ١٩٤٥ م .

وجاء من بعده « صالح بن على العباسى » الذى تولى على مصر سنة ١٣٣ هـ ، فاشترك مع « أبى عون » فى تأسيس مدينة « العسكر » ، واقام من بعدهما « أحمد بن طولون » الذى تولى مصر سنة ٢٦٦ هـ مدينة « القطائع » .

ثم جاء « جوهر الصقلى » ووضع أساس مدينته الكبرى « القاهرة » فى ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وكان هدفه الأول من بناء تلك المدينة ، أن تكون معسكرا للجنود ، وحصنا لقواته الحربية (١٩) .

وقد نزل « جوهر » بجنوده بحرى « الفسطاط » فى المنطقة التى فيها الآن الجامع الأزهر وبيت القاضى وخان الخليلى وبين القصرين وما جاور ذلك من الأماكن بين الجبل والخليج (٢٠) ، ووضع أساس « القاهرة » فى تلك المنطقة ، وأحاط هذه المدينة الجديدة وقصر الخليفة — الذى وضع أساسه فى نفس الليلة — بسور وسمى المنطقة المسورة « بالمنصورية » نسبة الى « المنصور » الخليفة الفاطمى الثالث ، الى أن قدم « المعز لدين الله » سنة ٣٦٢ هـ فغير اسمها الى « القاهرة » (٢١) .

وكانت المدينة الجديدة تسمى كذلك وقت انشائها بالمعقل والحصن والعلابية ، وكانت مساحتها بما فيها من ميادين وحارات ومباني ٣٤٠ فداناً (٢٢) .

وكان هدف « جوهر » من اختطاط هذه المدينة ، أن تكون — كما قلنا — حصنا للفسطاط من جهتها البحرية ، يحميها من أعدائها

-
- (١٩) انظر : المقرئى : الخطط مجلد ٢ ج ١ ص ١٧٥ .
(٢٠) انظر : على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٤ .
طبعة وزارة الثقافة المصورة عن طبعة دار الكتب — القاهرة سنة ١٩٦٠ .
(٢١) انظر : ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤١ .
(٢٢) انظر : على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٦ ، الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ج ١ ص ٢٢٠ ، القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

وخصومها القرامطة الذين كانت بأيديهم البلاد الشسامية وغيرها ، فقد كانت مدينة عسكرية ادارية أى مقرا للإدارة والجيش ، وليست موضعا معدا لسكنى الشعب فيه ، ومن هنا ظلت فترة طويلة لا تضم بين أسوارها سوى قصور الخلفاء ودواوين الحكومة ، وخزائن الأموال والأسلحة ، ومساكن الأمراء ، ومن اليهم ممن كان فى الجيش الفاطمى ، وان نمت بعد جيل واحد وتداخلت مع الفسطاط وأصبحتا مدينة واحدة من أعظم مدن العصور الوسطى (٢٣) .

بعد أن قدمنا هذه الفكرة عن « القاهرة » نفسها ، والهدف من انشائها (٢٤) آن لنا أن نعرف بكل معسكر من معسكراتها على حدة ، محاولين تحديد موقعه ، والفرقة التى أنشأته ، وقائدها ، وجهدها فى خدمة الدولة .

وقد شهدت القاهرة انشاء ثكنات أو حارات للجنود فى فترات متعددة وفى عهود كل من للخلفاء الفاطميين ، وسنتحدث عن كل حارة من هذه الحارات كل على حدة .

حارات القاهرة والفرق التى تسكنها

لا يقصد « بالحارة » الطريق المعد لمرور الناس فيه كما نعرف الآن ، وانما يقصد بها مجموعة المساكن التى يقيم بها قوم معينون ، تقاربت منازلهم وتداينت محلاتهم ، فهى ترادف ما نريده اليوم بالحي أو القسم من مدينة « ما » ، وتكون كل منها غنية بالمساجد والمدارس

(٢٣) انظر : عثان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٢٠ ، ص ٢٢ ، القاهرة سنة ١٩٣١ م .

وعلى مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٦ .

(٢٤) لمعلومات أكثر تفصيلا عن القاهرة ، وسبب تسميتها بذلك الاسم ، وتاريخ نشأتها ، ارجع الى : الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ج ١ ص ٢١٥ وما بعدها .

والأسواق • وفيها « البزازين والبطارين » والخزازين وغيرهم ،
والولاة لا يحكمون عليها ولا يحكم فيها إلا الأئمة ونوابهم » (٢٥) •

وكل حارة أو خطة من هذه الخطط كانت عبارة عن معسكر
للطائفة التي تنزل فيها ، ومن مجموعها تكونت معسكرات الجيش
الفاطمي •

ذلك أن الدولة كانت تعتبر أفراد القبائل النازلة بتلك الحارات
جنودها ، عليهم تعتمد في صد الأعداء وفي محاربة الخصوم ،
وفي الفتوحات العسكرية ، وعلى هؤلاء الأجناد السمع والطاعة لكل
ما يصدر عن الدولة من أوامر ، وما ينشأ عنها من مراسيم •

وحيثما نزل « جوهر » في المنطقة التي أخذت اسم « القاهرة »
فيما بعد وأناخ فيها عساكره ، اختطت كل قبيلة من القبائل المكونة
لجيشه حارة عرفت بها ، وأقامت فيها ، ونسبت إليها •

حارة زويلة :

هي إحدى حارات « القاهرة » الكبرى ، وقد أخذت هذا الاسم ،
لأن القائد « جوهر الصقلي » لما اختط المدينة الجديدة ، أنزل أهل
زويلة بهذا المكان فسمى باسمهم ، وهذه الحارة من أكبر معسكرات
القاهرة ، وموضعها اليوم المنطقة التي تحد من الشمال بشارع الخرنفش
ومن الغرب بشارع زويلة ودرب الكتاب ، ومن الجنوب بشارع
الصقالبة ، ومن الشرق بحارة اليهود ، وحارة خميس ويتخللها عدة
شوارع وحارات (٢٦) •

(٢٥) انظر : المقرئ : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٣٤ ، وتعليق
على النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٢ •
(٢٦) انظر تعليق النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٧ ، وعلى مبارك :
الخطط التوفيقية ج ٢ ص ٥٦١ ج ٣ ص ٥٠ ، القلقشندي : صبح الأعشى
ج ٣ ص ٣٤٩ •

وقد أنسن هؤلاء البابين المعروفين ببابى زويلة ، وقد زالا وبني « بدر الجمالى » وزير المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) مكانهما باب زويلة الكبير ، الذى لا يزال حتى اليوم ، والذى يطلق عليه « بوابة المتولى » لأن متولى حبسة القاهرة كان يجلس فى مداخله (٢٧) .

وهناك شارع اسمه « باب زويلة » يبدأ ببوابة المتولى ، وينتهى بشارع « تحت الربع » ، وقد أطلق عليه ذلك الاسم ، لأن باب زويلة فى أوله ، وكان ذلك الباب عند بناء « جوهر » « للقاهرة » بين متلاصقين ، دخل الخليفة « المعز » مصر من أحدهما فتيا من الناس به ، وهجروا الآخر وتشاءوا منه ، وقد انمحق تماما ، بينما بقى من الباب الذى دخل منه الخليفة عقد ويعرف بباب « القوس » (٢٨) .

حارة الباطلية :

تأسست هذه الحارة أيام الخليفة « المعز لدين الله » (٣٤١ — ٣٦٥ هـ) ، وتنسب الى طائفة يقال لها الباطلية .

ونسبب تسميتها بهذا الاسم هو أن الخليفة « المعز » لما حضر الى « القاهرة » وقسم العطاء فى الناس ، جاء هؤلاء يطلبون عطاء ، فقليل لهم : فرغ ما كان حاضرا فقالوا رحننا نحن فى الباطل فسموا الباطلية وسكنوا هذه الحارة فعرفت بهم (٢٩) .

(٢٧) انظر : شرح لمعة من أخبار المعز لمجهول لوحة ٦ ، ٧ مصور بدار الكتب وجامعة القاهرة ، وكذلك المقرئى : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٠٥ .

(٢٨) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٤٩ ، وعلى مبارك : الخطط التوفيقية ج ٣ ص ٥٠ .

(٢٩) انظر : شرح لمعة من أخبار المعز لدين الله لمجهول لوحة ٧ ، ومختصر تاريخ مصر لمجهول خلف ورقة ٤٦ ، والمقرئى : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤١٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٣ .

ويمكن الاسترشاد بحارة الباطلية فى قسم الدرب الأحمر —
جنوب شرقى الجامع الأزهر — لمعرفة موقع تلك الحارة (٣٠) •

حارة الروم :

اختلفت هذه الحارة الروم الذين وصلوا صحبة القائد « جوهري »
عند بنائه القاهرة فنسبت اليهم (٣١) •

وكان للروم حارتان : حارة الروم البرانية ، وحارة الروم الجوانية
بالقرب من باب النصر ، وقد استقلت الألسنة التعبير بالبرانية
والجوانية ، فاختصروا التسمية الى حارة الروم وحارة الجوانية ،
ويقول الوراقون وأصحاب الأقلام ، حارة الروم السفلى وحارة الروم
العليا المعروفة بالجوانية (٣١) •

هذا ويذكر « المقرئى » نقلا عن « المسبحى » أن طائفة
الجوانية كانت ضمن الطوائف التى شملها أمان الحاكم سنة ٣٩٠ هـ (٣٢)
ومعنى ذلك أنها كانت من طوائف العسكر المكونة للجيش الفاطمى •
واذا صح هذا فإنه يعنى أن هذه الفرقة من الجيش لم تسكن
تلك الحارة ، وإنما أقام بها الروم •

وقد أمر الخليفة « الحاكم » بهدم هذه الحارة فهدمت سنة
٣٩٩ هـ ، ثم أعيد بناؤها ، ولا تزال توجد — حتى اليوم — حارتان
تحملان نفس الاسم ، أحدهما فى قسم الدرب الأحمر وتسمى حارة
الروم ، والأخرى حارة الجوانية ، بشارع الجمالية بالقرب من باب
النصر (٣٣) •

-
- (٣٠) انظر : تعليق بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤١ •
(٣١) انظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٣ ، ابن تغرى
بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٢ •
(٣٢) انظر : المقرئى : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٢١ •
(٣٣) انظر : تعليق بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٢ •

حارة كتامة :

معروف عن قبيلة « كتامة » ، انها القبيلة التى ناصرت الفاطميين ، وأقامت دولتهم فى بلاد المغرب •

وقد قدم بعض الكتاميين مع القائد « جوهر » ضمن الجيش الذى جاء لفتح مصر ، كما جاء آخرون بصحبة الخليفة « المعز » عندما انتقل من بلاد المغرب الى القاهرة ، وقرر اتخاذها حاضرة لدولته سنة ٣٦٧ هـ •

وقد أقام الكتاميون الذين قدموا مع « جوهر والمعز » منازلهم فى موضع هذه الحارة ، فاستمدت اسمها منهم ، وكانت تجاور حارة الباطلية وتقع بينها وبين البرقية^(٣٤) •

وموقع هذه الحارة الآن يتمثل فى المنطقة التى يتوسطها حارة الأزهرى وعظفة الدوادارى ، وما يتفرع عنها من الدروب والعطف جنوب شرقى الجامع الأزهر^(٣٥) •

حارة البرقيسة :

تنسب هذه الحارة الى احدى طوائف العسكر الفاطمى التى وفدت الى مصر مع الخليفة « المعز لدين الله » وطائفة البرقية هذه ، جماعة كبيرة من أهل « برقة » صحبوا ذلك الخليفة عند مجيئه الى مصر^(٣٥) ، وموضع هذه الحارة اليوم فى المنطقة التى يخرقها شارع الدراسة^(٣٦) •

(٣٤) انظر : على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٩ •

(٣٥) انظر : القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٥٤ ، المقرئى :

للخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤١٨ •

(٣٦) تعليق بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٧ •

وينبغي الإشارة الى أن طائفة البرقية هذه ، غير الطائفة التي حملت نفس الاسم أواخر الدولة الفاطمية ، فى أيام الوزير « الصالح طلائع بن رزيك » .

حارة الحمزيين :

من بين العسكر الذى جاء مع الجيش الفاتح ، قوة كانت تسمى بالحمزيين لأن أفرادها ينسبون الى قرية يقال لها « حمزة » من البلاد الافريقية ، ويغلب على الظن أن أهل تلك القرية ، نزلوا فى تلك الحارة وأقاموا بها فنسبت اليهم ، شأنهم فى ذلك شأن من أطلقت أسماءهم على المواضع التى نزلوا فيها^(٣٧) .

حارة المصامدة :

المصامدة طائفة من العساكر ، قدموا من المغرب مع الخليفة « المعز لدين الله »^(٣٨) وقد خطت هذه الحارة وخصصت لسكنائهم فنسبت اليهم .

وهناك جماعة من المصامدة ، شكلوا جزءا هاما فى الجيش الفاطمى الفاتح لمصر ، وهؤلاء عرفوا « ببني سوس » ، اتخذوا موطننا لهم فى حارة أعطوها اسمهم ، وأقاموا بها منذ الفتح الفاطمى لمصر^(٣٩) .

خط قصر ابن عمار :

هذا الخط جزء من حارات كتامة ، وقد أخذ ذلك الاسم نسبة الى واحد من أبرز القواد الكتامين الذين لعبوا دورا هاما فى سياسة الدولة الفاطمية ، وفى صنع مجرى الحوادث فيها على عهد أكثر من خليفة من خلفائها ، ويحسن هنا أن نوجز ترجمة له :

(٣٧) انظر : المقرئى : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٢٦ .

(٣٨) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٩ .

(٣٩) انظر : المقرئى : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٢٦ .

ابن عمار :

هو أبو محمد الحسين بن عمار واحد من كبار شيوخ كتامة ، كان ذا شأن كبير على عهد الخليفة العزيز بالله ، ولما تولى الحاكم سنة ٣٨٦ هـ الخلافة ، تجمع الكتاميون وخرجوا فى سببه مظاهرات مطالبين بأن يكون « ابن عمار » هو الواسطة بين الخليفة والرعية ، فأجيبوا مطالبهم ، وخلع عليه للوساطة ، ولقب بأمين الدولة ، وكان بذلك أول من تلقب فى دولة الفاطميين ، وارتفع شأن ذلك الرجل ، واتخذ جميع مظاهر التشريف والتكريم التى اهتمت بها تلك الدولة وأولتها كل عناية وتقدير . وكان « ابن عمار » يميل فى سياسته الى بنى جلدته من كتامة ، فقربهم وأنفق عليهم الأموال ، وقطع أكثر ما كان يعطى للأتراك وغيرهم .

وأستمر الرجل على المكانة ، مهيمنا على كل شئون الدولة ، الى أن حدثت فتنة بين المغاربة والأتراك ، حينئذ لزم داره ، واعتزل الناس بأمر من الخلافة .

وفى سنة ٣٩٠ هـ كمن له جماعة من الأتراك ، وقتلوه واحتزوا رأسه ورفعوها الى الخليفة الحاكم (٤٠) .

وهكذا بدأت أول نتيجة سيئة من النتائج التى تنشأ عن تعدد أجناس عسكر الدولة ، تظهر فى عهد ذلك الرجل ، ويكون هو ضحية الاختلاف والتنافس والحسد ، الذى يسببه تنوع أجناس فرق الجيش فى دولة من الدول .

وقد كان الخليفة الحاكم (٣٨٧ — ٤١١ هـ) وراء المؤامرة التى راح ضحيتها « ابن عمار » ، ومعنى هذا أنه قد جنح الى جانب

(٤٠) عن ترجمة ابن عمار مفصلة انظر :

المقريزى : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٥٤ وما بعدها ، الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٦ ، ٢٧ ، تحقيق عبد الله مخلص طبع القاهرة سنة ١٩٢٤ م .

الأتراك والمشاركة ضد الكتامين ، ولهذا ليس عجيبا أن يعود نجم الكتامين الى الأفول مرة ثانية بعد أن لمح في أول عهد ذلك الخليفة •

حارة المحمودية :

طائفة من طوائف العسكر الفاطمي بمصر ، لم يعرف عنها أكثر من أنها قدمت الى مصر أيام الخليفة الفاطمي « العزيز بالله » (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) ، وانخرطت في سلك جيشه ، وأقامت في الحارة المشار إليها ، ومنحتها اسمها ، وتشغل اليوم المنطقة التي يتوسطها شارع النبوية بقسم الدرب الأحمر^(٤١) •

الحارة الوزيرية :

تعتبر هذه الحارة معسكرا لطائفة من طوائف العسكر الفاطمي يقال لها « الوزيرية » ، وهي إحدى الحارات الكبرى في عهد الدولة الفاطمية •

وكانت تقع في المنطقة التي تحددها اليوم سكة المحمدية ، وشارع الوزير صاحب شمالا ، وشارع درب سعادة غربا ، وتحد من الجنوب بالجزء الغربي من سكة النبوية ، والجزء الشمالي من حارة الجودرية ويحدها شرقا شارع بيبرس^(٤٢) •

وقد مر بنا أن طائفة « الوزيرية » حملت ذلك الاسم ، نسبة الى الوزير « يعقوب بن يوسف بن كلثوم » ، الذي شكل هذه الفرقة

(٤١) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٣ ، وكذلك : المقرئ : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٠٦ ، وتعليق بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٨ •
(٤٢) انظر : تعليق بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥١ ، وعلى مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ١١ •

لتكون بمثابة حرس خاص له^(٤٣) ، ونريد الآن أن نعرف بذلك الوزير ، ونوجز دوره في خدمة الدولة الفاطمية .

ابن كلس :

هو أبو الفرج يعقوب بن كلس ، كان يهوديا حضر الى مصر زمن كافور الأخشيدى الذى تولى فى مصر سنة ٣٥٥ هـ ، واخلص فى خدمته ، حتى أعجب به « كافور » ، وتمنى لو كان مسلما ليولييه وزارته ، فأشهر الرجل اسلامه ، وتولى وزارة مصر فترة ثم خرج من البلاد المصرية فارا الى بلاد المغرب سنة ٣٥٧ هـ .

وهناك التقى بالخليفة الفاطمى « المعز » (٣٤١ - ٣٦٥ هـ) ، وخدم فى حضرته ، وكشف له عيوب مصر ومناحي ضعفها ، ثم استمر يلازم الخليفة الفاطمى فى بلاد المغرب حتى جاء الى القاهرة سنة ٣٦٧ هـ ، فصحبه اليها ، وتقلد له الخراج وجميع وجوه الأموال وغيرها بالاشتراك مع عسلاج بن الحسن وقد حققا نجاحا فى مهمتهما^(٤٤) .

ولما مات المعز ، وتولى العزيز الخلافة فى ربيع أول سنة ٣٦٥ هـ ، فوض « ليعقوب » كل أموره ، ثم عاد واعتقله سنة ٣٧٣ هـ ، لأنه اتهمه بوضع السم للقائد « الفتيكين التركى » ، بيد أن الجانب المالى بصفة خاصة ، ساء بسبب غياب ذلك الرجل عن التدبير ، فأخرجه « العزيز » من معتقله سنة ٣٧٤ هـ ، وأعاد له كل سلطاته .

وقد كرمته الخلافة أكثر من ذلك ، فوهبته خمسمائة غلام من الناشئة وألفا من المغاربة ، وجعلت له مطلق السلطان عليهم ، فكان هؤلاء ثواة طائفة الوزيرية .

وقد ارتفعت منزلة ذلك الرجل ، وساس بنجاح شئون كافة النواحي ، مالية وقضائية وعسكرية ، وانتقلت الى داره عدة دواوين

(٤٣) انظر ما سبق ص ١٩٠ من هذا البحث

(٤٤) انظر : الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ج ١ ص ٢٣٤ .

منها ديوان الجيش • وبالجمله أوضحت دار ذلك الوزير ، مقررا للحكومة ، وموطنا لدواوينها ، وساحة للقضاء ، وجامعة لتلقى العلوم والتزود بالثقافات ، وموئلا للقاصدين وذوى الحاجات •

واستمر الرجل رفيع الشأن الى أن أدركته منيته فى ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ ، فأكرمه الخليفة العزيز بعد مماته ، ويكفى أن نسمع كلمة الخليفة « وأسفى عليك يا وزير ، والله لو قدرت أن أفديك بجميع ما أملك لفعلت » لتعرف مدى حزنه وألمه لوفاة ابن كلس •

وكان عدد طائفة « الوزيرية » قد ارتفع الى أربعة آلاف عند وفاة ابن كلس ، استمر الخليفة يجرى عليهم كل ما كان ينفق فى حياة الوزير تكريما له (٤٥) •

حارة الديلم :

أخذت تلك الحارة ذلك الاسم ، لأنها كانت موطنا للعساكر الديلمية الذين وفدوا الى مصر مع « الفتكين التركى » ، عندما حضر الى البلاد على رأس جماعة الأتراك والديلمية سنة ٣٦٨ هـ (٤٦) •

وقد كان فى صحبة القائد التركى عندما فر من « بغداد » حوالى أربعمئة من الأتراك ، لحق بهم جمع كثير ما بين ترك وديلم •

وقد نزل أصحابه من الأتراك فى الموضع المعروف بدرب الأتراك ، ونزل أصحابه من الديلم الى جانبه ، كل جنس مع جنسه ، فسميت تلك حارة الأتراك ، والثانية حارة الديلم (٤٧) •

(٤٥) عن ترجمة ابن كلس انظر :

المقريزى : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٠٧ وما بعدها ، الصيرفى : الإشارة الى من نال الوزارة : من ص ١٩ الى ص ٢٣ •

(٤٦) انظر : شرح لمعة من أخبار المعز لمجهول لوحة / ٤ ، ٥ • والقلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٤ •

(٤٧) مختصر تاريخ مصر لمجهول لوحة / ٤٧

وبدخول الديالمة والأتراك فى الجيش الفاطمى ، بدأ يعرف تعدد الأجناس حيث سمح الخليفة « العزيز » بوجود هؤلاء المشاركة فيه ، الى جانب عنصر كتامة ومن معها من البربر والمغاربة ، وسوف يظهر التنافس بين الطائفتين بمرور الأيام ، وسيكون نزاعهما — كما قدمنا — مشغلة الدولة ، يكلفها الكثير ، ويستنفذ جهدها ، ويساعد على انهيارها أخيرا .

ولكن من هو « الفتكين » الذى رأس الطائفة المشرقية الجديدة والتي كونت عنصرا هاما فى الجيش الفاطمى ، ان الموقف يقتضينا تقديم تعريف به .

الفتكين :

هو « الفتكين » أبو منصور التركى ، كان غلاما لمعز الدولة ابن بويه ، اشتهر بالشجاعة وترقى فى الخدم « ببغداد » .

وقد حدث قتال بين الأتراك والديالمة فاشترك فيه « الفتكين » واضطر بعده الى المسير فى حوالى أربعمئة غلام من الأتراك ، ونزل « دمشق » أخيرا بدون قتال سنة ٣٦٤ هـ ، فقد تصادف نزوله فى الوقت الذى كان العسكر الفاطمى مشغولا فيه بحرب فى « طرابلس » ، وبعد فترة تمكن القائد التركى من « دمشق » تمكنا تاما ، وأقام فيها دعوة العباسيين .

ثم طلب من القرامطة الاشتراك معه فى حرب الفاطميين ، فأجابوه لذلك وقاتل المتحالفون عدوهم فى مدينة « يافا » .

ولما تولى الخلافة الفاطمية « العزيز بالله » ، أعد « جوهر » القائد « على رأس جيش كبير لقتال الفتكين والقرامطة ، ووقعت بين القوات الفاطمية وبين أعدائها أكثر من « أربعين وقعة فى مدة قريبة » (٤٨)

(٤٨) انظر : شرح لمعة من أخبار المعز لدين الله المجهول لوجه/٤

وبعد قتال عنيف انسحب « جوهري » الى « عسقلان » ، وأرسل الى الفتكين يطلب الصلح على مال ، فوافقه على ذلك ، وعلق السيف على باب « عسقلان » وخرج « جوهري » وجنوده من تحت ذلك السيف وقصدوا « القاهرة » .

بعد ذلك أعد « العزيز بالله » جيشا قاده بنفسه ، وحمل معه توابيت آبائه كي تكون حافزا معنويا ، يدفع الجنود الى القتلى في القتال ، وقد نزل الخليفة « الرملة » حيث قابل « الفتكين » على هذه المدينة ، وتمكن من هزيمته في ٢٥ محرم سنة ٣٦٨ هـ ، وقتل عددا من خيرة أصحابه ، وأسر كثيرين فيهم القائد التركي نفسه .

ثم أتى « العزيز » بالأسرى الى القاهرة ، واصطنع « الفتكين » وأحسن اليه للغاية ، وأنزله في دار الأتراك ، وأفاض عليه المنح والعطايا .

وقد جمع الخليفة أصحاب ذلك الرجل من ديلمسة وأتراك ، وولاه حجابته وأنزله هو ومن جاء معه ، المعسكر الذي عرف فيما بعد بحارة « الديلم » (٤٩) .

وقد استمر « الفتكين » رفيع المكانة الى أن توفي سنة ٣٧٢ هـ ، واتهم الوزير « يعقوب بن كلس » بسمه ، فاعتقله « العزيز » مدة ، ثم عفا عنه وأعادته الى كل سلطانه كما سبق أن ذكرنا (٥٠) .

حارة الأتراك :

تقع هذه الحارة في الجهة المقابلة للجامع الأزهر ، وعرفت فيما بعد بدرب الأتراك وكانت موصلة لحارة الديلم ، ولذلك كان القدماء

(٤٩) شرح لمعة من أخبار الغز لمجهول لوحة / ٥
(٥٠) عن ترجمة مفصلة للفتكين انظر .

المقريزي : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤١٢ وما بعدها .

يضيفون الحارتين الى بعض أحيانا فيقولون « حارة الديلم والأتراك »
أو العكس .

وقد عرفت تلك الحارة بهذا الاسم ، لأن القائد الترخوج لما
تجمع لحرب « العزيز » كان أصحابه ورجال جيشه ، خليطاً من ترك
وديلم وغيرهما ، وقد انزموا من الجيش الفاطمي كما ألقينا آنفاً ،
ولما دخل « الفتكين » القاهرة نزل الديلم مع أصحابهم وبنى جنسهم ،
وعسكروا في « حارة الديلم » كذلك نزل « الفتكين » نفسه وأصحابه
موضع حارة الأتراك وانخدوه معسكراً لأقامتهم ، واستمد اسمه منهم .

وبرغم اختلاط الحارتين السابقتين ، ونفاذ كلتاهما الى الأخرى ،
إلا أن كل جنس من الديلمية والتركية كان يعيش مستقلاً عن الآخر ،
لاختلاف بنسبتهما ، والأصل الذي ينحدران عنه ، وإن جمعت بينهما
فكرة مشتركة هي مناصرة « الفتكين » والأندلس في فرقته واحدة
تحت قيادته (٥١) .

حارة اليانسية :

اليانسية طائفة من طوائف الجيش الفاطمي ، وهم جماعة ينسبون
الى أحد خدام الخليفة « العزيز بالله » المسمى « بابي الحسن
يانس الصقلي » وتقع الحارة مسكن هذه الطائفة خارج باب زويلة ،
ولأنهم نزلوا بها ، عرفت بهم واستمدت اسمها منهم (٥٢) .

وهناك من المؤرخين من ينسب الطائفة المشار اليها الى « يانس »
وزير الخليفة الفاطمي « الجافق » (٥٢٤ : ٥٤٤ هـ) وقد تكفل
المقريزي برد هذه الرواية وشرح ما فيها من أوهام (٥٣) .

(٥١) انظر : المقريزي : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤١٥ .

(٥٢) انظر : المقريزي : الخطط مجلد ٢ ج ١ ص ٤٢٦ . وشرح

لمعة من أخبار المنز لمجهول لوحة / ١٢

(٥٣) انظر المقريزي : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٣٦ .

حارة قائد القواد :

حين يطلق ذلك اللقب يكون المراد به « الحسين بن جوهر الصقلی » ، وقد أقام بتلك الحارة فعرفت به • ويحسن بهذه المناسبة أن نقدم ترجمة موجزة لذلك القائد الفاطمي •
الحسين بن جوهر :

هو حسين بن جوهر بن عبد الله ، ابن فاتح مصر « جوهر الصقلی » ولما مات والده في عهد الخليفة « العزيز » ، خلع عليه وجعله في مرتبة والده ومنحه اللقب المثار اليه ، ثم لما تولى « الحاكم » الخلافة سنة ٣٨٦ هـ ، ظلت للرجل مكانته ، وأسند اليه بعد مقتله وزيره « برجوان » سنة ٣٩٠ هـ جميع سلطاته ، وجعل له مباشرة كل مسؤولياته ، واصطفاه لرتبة الوزارة وان لم يطلق عليه لقب وزير •

وقد نجح قائد القواد في ارضاء الخليفة « الحاكم » ونجا من سطوة سيفه وساس الناس بالحكمة والعقل فأينعت الدولة على أيامه ، وسادها الأمن والهدوء^(٥٤) •

حارة برجوان :

تنسب هذه الحارة الى الأستاذ أبي الفتوح البرجوان الخادم وزير الفاطميين على عهد الحاكم •

وموضعها الآن المنطقة التي يتوسطها شارع وحارة برجوان ، وما يتفرع عنها من الأزقة والعطف في قسم الجمالية^(٥٥) •

وكان « برجوان » هذا واحد من اللخصيان الذين تربوا في دار الخليفة العزيز بالله ، ولما توفى ذلك الخليفة ، وتولى الحاكم

(٥٤) انظر نفس المرجع والجزء ص ٤٢٢ وما بعدها • والصيرفي:

الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٨

(٥٥) تعليق بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٨

الخلافة ، ووزر له « الحسن بن عمار » كما قدمنا ، لكن ذلك لم يقابل بارتياح عند « برجوان » فاختص بمجموعة من العساكر ، واستقر يؤلب على « ابن عمار » حتى نجح في اقصائه ، وتولى هو الوساطة سنة ٣٨٧ هـ ، وساس الباد سياسة حكيمة ، فمنع الغلمان من التعرض للكثامين والمغاربة ، ومنع الناس من التجمهر .

وعلت مكانته حتى وصل الى القمة ، ثم بدأ ينقلب الى الضد ، فقصر في مهامه ، وشغلته ملذاته ، واستبد وأخذ في امضاء مشيئته بدون مشورة الحاكم ، وذلك جعل الخليفة يغضب عليه ويدبر لقتله الى أن تم له ذلك في ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ (٥٦) .

حارة الجودرية :

كانت الجودرية جماعة من العسكر الفاطمي ، اختطوا هذه الحارة في المنطقة التي يخترقها اليوم شارع الجودرية وفروعه ، وحارة الجودرية الكبيرة والصغيرة وعطفة الجودرية (٥٧) ، وكان عدد هذه الطائفة أربعمائة سكنوا هذه الحارة فعرفت بهم . ويغلب على الظن أن هذا المعسكر يرجع وجوده الى عهد « جوهر » ، ذلك لأن طائفة « الجودرية » تنسب الى « جودر » الذي خدم عبد الله المهدي ومن بعده من الخلفاء في بلاد المغرب ومصر حتى عصر « المعز » ، وكان بمثابة رئيس وزراء لهم ، وقد أنزله « جوهر » مع الطائفة التي تنسب اليه بهذه المحلة وأسكنهم اياها فنسبت اليهم (٥٨)

(٥٦) انظر : المقرئ : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٠٤ وما بعدها .

(٥٧) تعليق بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥١ .

(٥٨) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٣ ، ومختصر تاريخ مصر لمجهول خلف لوحة / ٥٤٦ هذا وجود هذا اسم الصحيح « جودر » بالذال المعجمة ، وقد تولى كتابة سيرته وعلاقته بالخلفاء الفاطميين ، مع توقيع : « ولاء الخلفاء » ، تلميذه أبو علي منصور الجوزري ، وقد نشر هذه السيرة في القاهرة الأستاذان الدكتوران محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة ، وانظر ص ٢ من تلك السيرة لتصحيح الاسم .

حارة العطوفية :

عرفت هذه الخطة بطائفة من طوائف العسكر على عهد الدولة الفاطمية ، وتند أقامت بذلك المكان وأعطته اسمها^(٥٩) وكانت من أجمل مساكن القاهرة ويدل على موقع هذه الحارة المنطقة التي يتوسطها حارذ العطوف الآن بالقرب من باب النصر^(٦٠) .

وانما عرفت هذه الطائفة بذلك الاسم نسبة الى « عطوف » أحد خدام القصر الذين خصصوا لخدمة ست الملك آخت الحانم ، وكان عبدا أسود قتله الخليفة « الحاكم » سنة ٤٠١ هـ^(٦١) .

هذا ولما وجل الناس من الحاكم ، وزاد خوفهم منه لكثرة من كان يقتلهم ، أراد أن يطمئن الشعب بعد تضرعه اليه ، فكتب فى ربيع أول سنة ٣٩٠ هـ ، أمانات لكل طائفة .

ويمكن الاسترشاد بهذه الأمانات فى معرفة أجناس العسكر التى وجدت على عهد ذلك الخليفة ، فقد شمل أمانه الأتراك الخاصة وزمامهم وأمرأهم ، والغلمان والماليك وصبيان الدار وأصحاب الأقطاعات والمرزقة والغلمان الحاكمة ، كما كتب سجلات بأمانات لكل من الديلم والغلمان الشراعية ، والغلمان الريحانية ، والغلمان البشارية ، والغلمان العجم ، والروم ، والزويلين ، والمبرقين ، والعلوفيين ، والجودرية ، والمظفرية ، والمصنهاجيين ، ولعبيد الأشراء الحسينية ، والميمونية ، والفرجية وغير هؤلاء^(٦٢) .

(٥٩) مختصر تاريخ مصر لمجهول لوحة/٤٧ .

(٦٠) تعليق بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٠ ، وهذا ويلاحظ أن جميع التعليقات فى النجوم الزاهرة ، والمشار إليها فيما سبق ، من وضع الأستاذ محمد رمزى .

(٦١) انظر : المقرئى : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٢١

(٦٢) انظر : المقرئى : الخطط مجلد ٢ ج ٣ ص ٤٣٣

وقد بدأ اسم عبيد الشراء يظهر بصورة واضحة وكعنصر
مكون الجيش في عهد ذلك الخليفة كما تبين تلك السجلات ، وان كان
شأن هؤلاء سيظهر فيما بعد ، وسيوجهون شئون الدولة ، ويتحكمون
فيها ، وستقوم الحروب بين الأتراك وبينهم في فترة تالية أيام الخليفة
« المستنصر » (٤٢٧ : ٤٨٧ هـ) وسوف تتكلف الدولة من جراء
ذلك شسيتا كثيرا •

الفصل السابع

النظم والأسلحة فى الجيش الفاطمى

مراتب رجال الجيش فى الدولة الفاطمية

كان جيش الفاطميين مقسما الى مراتب ثلاث :

الاولى : مرتبة الأمراء ، وهؤلاء يتفرعون بدورهم الى أنواع ثلاثة :

١ - مرتبة الأمراء المطوقين : وهم الذين يخلع عليهم أطواق الذهب فى أعناقهم ويشبهون مقدمى الألو فى عصر الدولة المملوكية^(١) ، وكان يقال لهم فى عهد تلك الدولة : مقدم ألف ، أو أمير مائة ألف ، ويقصد بذلك وخليفة واحده يخدم صاحبها مائة مملوك ، وفى نفس الوقت يكون مقدما وقت الحروب على ألف من أجناد الحلقة .

وصاحب هذه المرتبة يتمتع بأعلى مكانة فى الدولة ، ومن حقه أن يتولى جميع المناصب العليا فيها .

٢ - مرتبة أمراء القضب : وهم الذين يخرجون فى المواكب بقضب من فضة ، يخرجها لهم الخليفة من خزينة « التجمل » وهم بمثابة أمراء الطبلخاناه فى عهد المماليك^(١) ، وكان لكل منهم الحق فى أن يخدمه من أربعين الى ثمانين فارسا^(٢) .

٣ - أدوان الأمراء : وهم الذين لم يؤهلوا لحمل القضب ، ويشبهون أمراء العشرات والخمسات فى زمن القلقشندى^(١) .

وأكثر هؤلاء لذلك العهد من أولاد الأمراء المتوفين . يحظى الواحد منهم بذلك الفضل تقديرا لجهود سلفه . وهذا التقسيم أجنبى الأصل ، وقد استمر ممولاً به بعد الدولة الفاطمية^(٢) .

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٧٦ .

(٢) انظر تعليق زيادة على السلوك لامقربرى ج ١ قسم اول

ص ٢٣٩ القاهرة ١٩٣٤ م .

ففى مور Morier أن فصيلة من التركمان بشمالى فارس كانت تستعد للغزو ، فدعى رئيسها أصحاب العشرات وأصحاب المئات ، ومما تجدر ملاحظته أن هذا التقسيم العشرى مذكور فى « مور » Morier فى وصف بعض رتب الجيش الفارسى فى القرن التاسع عشر مثل : Min Gashi ومعناها مقدم ألف ، on Bashi ومعناها مقدم عشرة Penja Bashi ومعناها رئيس خمسين ، وهذا التقسيم موجود أيضا فى الجيش العثمانى ، والجيش المصرى^(٣) .

المرتبة الثانية من مراتب الجيش الفاطمى :

مرتبة خواص الخليفة ، أو حرسه الخاص الذى يشبه الى حد كبير الحرس الجمهورى الآن ، وهم أنواع ثلاثة :

١ - طائفة صبيان الحجر : أنشأ الخليفة « المعز لدين الله » سبع حجر ، وجعلها مكانا لفرقة من الجيش الفاطمى تتكون من الشباب والفتيان الذين يختارون من بين وجهاء الناس ، وتتوافر فيهم الشهامة والرجولة وحسن الخلق واعتدال القامة .

وعلى هؤلاء الشباب خدمة الخلافة بالقصر ، فمهمتهم أشبه ما تكون بمهمة الحرس الجمهورى فى الوقت الحاضر .

وكان يتم تدريبهم بحيث يكونون على أهبة الاستعداد فى كل لحظة ، وإذا ما نودى الواحد منهم لبقى النداء فى الحال وخرج دون تأخير ، وكان يتوافر لديهم السلاح وكل ما هم فى حاجة اليه . وقد وصل عدد الطائفة الى خمسة آلاف نسمة ، من بينهم كان يختار القواد والأمراء الذين أثبتوا شهامة وشجاعة .

(٣) انظر هامش زيادة على السلوك للمقريزى ج ١ قسم اول ص ٢٣٩ .

وكل حجرة من حجر هذه الطائفة كان لها لاسم يخصها وتعرف به ، كالفتح والمنصورة والجديدة وما الى ذلك . كما أنشئ لخدمة هذه الطائفة ، اصطبل يقابل حجرهم ويجاور باب الفتوح ، وقد استمرت مبانى هذه الحجر قائمة الى ما بعد سنة ٧٠٠ هـ ، حيث عمرها الناس بالدور وغيرها .

وكان يشرف على هذه الحجر بعض الأستاذين ، وهم يضاھون من عرفوا بالماليك السلطانية فى عهد الدولة المملوكية الا أن عدتهم كانت أوفر ومطالبهم كانت مجابة^(٤) ، ويظهر أن هذه الحجر كانت مستخدمة لهذه المهمة فى عهد « المعز » (٣٤١ : ٣٦٥ هـ) ثم هجرت ولم يهتم بتربية الناشئة فيها ، وذلك أنه لم يسمع بها بعد عصره ، الى أن جاء « الأفضل بن بدر الجمالى » ، فاختر ثلثمائة من أولاد الأجناد ، وقسمهم فى الحجر ، فجعل فى كل حجرة مائة ، وجعل لهم زماما ونقييا ، وجعل على النكل أميرا يقال له « الموفق » ثم وأمدھم بكل ما يحتاجون اليه من سلاح وغيره ، وجعلهم حرسه الخاص ، وكان اعتماده عليهم فى الملهمات^(٥) .

٢ - صبيان الخاص : وهم عبارة عن أولاد الأمراء والعساكر وعبيد الدولة الذين يقومون بالخدمة الخاصة بالخليفة ، وكان التدريب على الفروسية من أهم مقوماتهم ، كما كانوا يقيمون فى مساكن خاصة بهم، وقد وصلت عدته الى حوالى خمسمائة ، وقد تدخلوا فى الأحداث السياسية فى آخر هذه الدولة ، فكان ذلك سببا فى انكسار شوكتهم وضعفهم^(٦) .

(٤) انظر : المقرئزى : الخطط مجلد ٢ ج ٢ ص ٣١٠ وما بعدها ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٧ ، والخطط التوفيقية ج ١ ص ٩ ، وتعليق الشيال على اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٧٦ .

(٥) انظر : المقرئزى : الخطط مجلد ٢ ج ٢ ص ٣١١ ، ٣٤٢ ، وتعليق الشيال باتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٧٦ .

(٦) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٧ ، ملجى : نظم الفاطميين ورسومهم بمصر ج ٢ ص ٢٩ ، ٣٠ القاهرة سنة ١٩٥٥ م مشرفة : نظم الحكم ص ١٠٩ .

٣ - الأساتذة : كان في البلاط الفاطمي - شأنه في ذلك شأن غيره من الدول في العصور الوسطى - فرقة من العبيد ، بيض وسود ، خصيان وغير خصيان وأغلبها من أصل أجنبي ، تحمل لقب أستاذين •

وكان هؤلاء نوعين : محنكون ، وهم الذين يمررون طرف العمامة من تحت الحنك لتصعد من الجهة المقابلة ، وتلف من جديد حول الرأس وكان لهؤلاء الحق في التلقب بلقب أمير ، وغير محنكين : وهم أقل درجة من المحنكين ، ويعملون في وظائف البلاط وأعمال الخدمة العامة (٧) •

وكان المحنكون من الأساتذة هم أقرب الناس إلى الخليفة ، وهم خاصته الذين يطلعون على أسرارهم ، ويفضى إليهم خباياهم ، ولهذا كانت منزلتهم في الدولة عالية ومكانتهم رفيعة ، وكان عددهم يزيد على ألف رجل •

وكان يعين من بينهم ، متولى شدد القاج ، وصاحب المجلس ، وزم الأتارب ومتولى زم الرجال ، وكان راتب الواحد منهم مائة دينار في كل شهر ، وكانت مهمتهم أشبه ما تكون بمهمة الخدم الخصيان الذين عرفوا بالطواشعية أيام المماليك بمصر (٨) •

والحق أننا نعجب من اختيار الخليفة لألف رجل يذيع عليهم أسرارهم ، فالسر لا تتوافر له طبيعته بعد اطلاع ألف من الناس عليه ، والأقرب إلى التصديق أن يكون كل الأستاذين مقربين إلى الخليفة ، لكنه كان يختار من بينهم من يستشيرهم في أموره ، ويطلعهم على أسرارهم ، فهم درجات تتسلسل في الأهمية والمكانة ، وأعلاها هو الذي يحظى بمعرفة خبايا الخليفة ويطلع على مكوثاته •

(٧) انظر : ماجد : نظم الفاطميين ج ٢ ص ١١ ، ١٢ •

(٨) انظر : مشرفة : نظم الحكم بمصر ص ١٠٧ ، ١٠٨ •

وكانت ملابس الأستاذين تختلف بحسب طبقتهم ، فالمحنكون لهم بدلة مذهبة اما غير المحنكين فليس لهم الحق الا فى بدلة حريرية^(٩) .

وكان من حق غير المحنك أن يترقى الى أستاذ محنك ، وكان التقليد يقضى حينئذ بأن يحمل اليه كل أستاذ محنك ، بدلة كاملة من شيابه ، وسيفا وفرسا ويصبح بذلك لاحقا بهم فى يده مثل ما فى أيديهم^(١٠) .

وبالإضافة الى الثلاث طوائف السابقة ، كان يوجد مجموعة من الجنود السود ، يبلغ عددهم خمسمائة رجل ، ومثلهم من الفرسان ، مهمتهم حراسة قصر الخليفة ، والطواف حول أسواره ليلا .

وكان على مقدمتهم — ويلقب «بسنان الدولة» — أن ينفخ البوق ويدق الطبول والصنوج بعد صلاة العشاء ، ثم يقفل باب القصر ، وتوضع سلسلة تمنع المرور بين النحصرين : الكبير والصغير ، وترفع عندما يطلق البوق مرة ثانية وقت الفجر^(١١) .

المرتبة الثالثة من مراتب رجال الجيش الفاطمى هى طوائف الأجناد :

وكل طائفة م هذه الطوائف كانت تنسب الى خليفة من الخلفاء ، كالحافضية والأميرية نسبة الى الخليفة الحافظ أو الأمر ، أو الى وزير من الوزراء : كالوزيرية ، نسبة الى الوزير يعقوب بن كلس ، والجيشية والأفضلية ، نسبة الى الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى ، والى ابنه الأفضل ، وقد تنسب الطائفة الى قبيلة أو جنس كالأتراك والأفراد والمصائدة والديلم ، أو المستصنعين كالروم والفرنج والمصقالبة ، أو السودان من عبيد الشراء ...

(٩) انظر : ماجد : نظم الفاطميين ج ٢ ص ٥٥

(١٠) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٧ ، المقريزى :

الخطط مجلد ٢ ج ٢ ص ٢١٦ .

(١١) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٨ ، ماجد :

نظم الفاطميين ج ٢ ص ٣٠ .

وكل طائفة من الطوائف لها مقدمها الذي يتولى الامرة عليها ،
ويحكم شأنها ، ويعهد اليه بكل أمورها (١٢) .

وفوق الطوائف السابق ذكرها ، وجد في الجيش الفاطمي فرقة
لها عملها الخاص بها ، وهي فرقة :

حملة السلاح أو الركابية أو صبيان الركاب : وهي فرقة فاطمية
تريد على ألفى رجل ، مهمتها حمل السلاح حول الخليفة في مواكبه —
عن يمينه وعن يساره — ولهذه الطائفة اثنا عشر مقدا أو قائدا —
بخلاف مجموعة من النقباء تتولى دراسة أحوالهم — وكل مقدم من
مقدمى تلك الفرقة ينتقاضى راتبا قدره خمسون دينارا شهريا ،
أما الركابي نفسه فكانت تتفاوت مرتباته من خمسة دنانير الى عشرة
شهريا ، ولعل الكفاءة والأقدمية كان لهما دخل في هذا التفاوت .
وكان الكبار من هؤلاء يتولون الأعمال الكبرى ويكتسبون الأشهرة
والصيت (١٣) .

(١٢) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٨ ، وكذلك :
محمد كرد على : خطط الشام ج ٥ ص ٢٢ طبع دمشق سنة ١٩٢٧ ،
وفيليب حتى : تاريخ العرب « مطول » ج ٣ ص ٧٤٢ الطبعة الثانية
بيروت سنة ١٩٥٣ م .

(١٣) انظر : ابن نغرى بردى : النجوم الزاهرة هامش ج ٤
ص ٧٩ ، مشرفة : نظم الحكم ص ١٠٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى
ج ٣ ص ٤٨٠ ، ويدمج « ماجد » طائفة حملة السلاح مع صبيان الخاص
ويعتبرهما طائفة واحدة ، انظر : نظم الفاطميين ج ٢ ص ٢٩

ألقاب القواد فى الجيش الفاطمى

الاسفسهلاز : هذ اللقب من الألقاب الخاصة بأرباب السيوف ، ومعناه مقدم العسكر ، وهو مكون من شقين : أحدهما فارسى والآختر تركى ، ذلك أن « اسفه » تعنى فى الفارسية مقدم ، « وسلاز » تعنى فى التركية العسكر ، وقد تستبدل الباء بالفاء فيقال « سباسلاز » .

وقد ذكر « ابن فضل الله العمرى » أن هذا اللقب اختص بأمرأ الطبلخاناه فى عهد الدولة المملوكية ، ثم أهمل وترك استعماله بعد ذلك^(١٤) .

زعيم الجنود : لقب من ألقاب أرباب السيوف ، والمراد بزعيم الجنود ، المتكفل بهم والقائم بأمرهم ، ويجوز أن يكون الزعيم بمعنى السيد ، فيكون المعنى سيد الأعوان أو الأجناد ، ولكن الملائم للجندية وما تتطلبه من عناية هو المعنى الأول^(١٥) .

زعيم الجيش : لقب من ألقاب أرباب السيوف كذلك ، والمقصود به المتكفل بأمر العسكر ، والراعى لشئونهم^(١٦) .

عين أو عون للعساكر : العون هو الظهر والمعاون ، وذلك للقب من ألقاب ناظر الجيش^(١٧) .

مدير الجيوش : لقب من ألقاب ناظر الجيش كذلك^(١٧) .

الأمير : فعيل بمعنى فاعل ، فهو إذا أمير بمعنى آمر ، وهو زعيم الجيش أو الناحية ، ويلقب بذلك لأن قومه أو من له الامرة عليهم من الجنود يمثلون أوامره .

(١٤) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٦ ص ٧ ، ص ٨ .

(١٥) انظر : المرجع نفسه ص ٥١ .

(١٦) انظر القلقشندي : صبح الأعشى ج ٦ ص ٥١ .

(١٧) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٦ ص ٦٩ .

وقد عرف المسلمون هذا اللقب ، وأطلقوه على قواد البعوث الإسلامية منذ عهد الخليفة الثاني « عمر بن الخطاب » (١٨) .

نقيب الجيش : النقيب فى اللغة هو الضمير ؟ وقد جاء بهذا المعنى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً » .

وصاحب ذلك اللقب هو المتكفل باحضار من يطلبهم السلطان من الأتراك والأجناد ، ومهمته تشبه مهمة ضابط الاتصال ، أو وزير الحربية فى بعض اختصاصاته فى عصرنا الحديث (١٩) .

الناظر : لقب من ينظر فى الأموال ، وبعد بياننا بالمنصرف والوارد منها ، ثم يرفع ذلك البيان الى الخليفة لامضاء ما يريده ورد ما سوى ذلك .

لما عن اشتقاقه فهو اما من النظر بمعنى الرؤية بالعين ، لأن صاحبه يدير نظره فيما ينظر فيه ، واما من النظر بمعنى الفكر ، لأنه يفكر ويبحث عما فيه المصلحة ، فنناظر الجيش هو المتحدث عن الجيش والعامل على ضبطه (٢٠) .

المقرر : بفتح الميم والقاف ، وهذا اللقب مختص بكبار الأمراء والأعيان ، وكتاب السر ومن اليهم ، كناظر الجيش ، وناظر الدولة ، وكتاب الدست ... (٢١) الخ .

(١٨) انظر : الرئيس : النظريات السياسية ص ١٠٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٤٩ .

(١٩) انظر : القلقشندى ج ٥ ص ٤٥٦

(٢٠) انظر : نفسه ص ٤٦٥ .

(٢١) انظر : نفسه ص ٤٩٤ .

الجناب : هذا اللقب مشترك بين أرباب السيوف وأرباب الأقلام وهو أعلى ما يلقب به العلماء والقضاة ، ويلقب به كذلك من لم يصل الى درجة التلقيب « بالمقر » من الأمراء ، وقد يضاف اليه كلمة العالى أو غيرها ، فيقال : الجناب العالى ، أو الجناب الشريف العالى ، أو الجناب الكريم

وأصله فى اللغة الغناء أو ما قرب من محلة القوم ، وقد يعبر عن الرجل بغنائه وبما قرب من محله على سبيل التعظيم (٢٢) .

مناصب عسكرية فى الجيش الفاطمى

الاسفسهارية : هذا الاسم علم على وظيفة خاصة بأرباب السيوف ، وصاحبها هو قائد الجيش أو المسئول عن كل الأجناد .

ويعتبر جميع الأئمة والقواد ، مسئولين أمامه عن عساكرهم ، وهو من ناحية أخرى زمامهم والمسئول عنهم أمام الخلافة ، وكما يقول القلقشندى نقلا عن « ابن الطوير » :

« صاحبها — يعنى صاحب الاسفسهارية — زمام كل زمام ، واليه أمر الأجناد والتحدث عنهم ، وفى خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم » (٢٣) .

وصاحب هذه الوظيفة يعتبر الرجل التالى لصاحب الباب (كبير الأمناء) فى المنزلة والرتبة ، وكان يسمى فى عهد الحكم التركى لمصر « سارى عسكر » ، وفى زمن « ابن تغرى بردى » « سردار » (٢٤) .

(٢٢) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٩٥ .

(٢٣) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٩ ،

ج ٦ ص ٧ ، ٨ .

(٢٤) انظر : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧١ .

ومهمة صاحب ذلك المنصب تشبه مهمة قائد عام القوات المسلحة في العصر الحديث ، وكان لا يصل الى هذه الرتبة الا كل رجل تتوافر فيه الشجاعة والنجدة والجرأة والبأس والذكاء وحسن التدبير ، وقد كان البلاء في الحروب ، وحسن الدفاع عن للدولة والمذهب الفاطمي من المرشحات لاختيار من يتولى هذه الوظيفة .

ولدينا منشور يرجع عهده الى آخر الدولة ، لكن يمكن منه فهم اتجاهها فيمن كان يختار لهذا المنصب الكبير ، وقد أعد هذا المنشور « لرزيك بن صالح بن طلائع بن رزيك » ، حين عهد اليه انظر في المظالم والتقدمة على العساكر^(٢٥) .

وقد كانت طاعة زعيم الاسفسهارية ولجبة تماما كطاعة الخليفة نفسه ، لأنه نأب عنه والمتحدث باسمه في اشئون العسكرية والحربية ، ويقول الأستاذ « الياس الأيوبي » في مذكرات له مخطوطة : ان لفظا اسفسهاري لم يحل محل قائد القواد « الا بعد أن تغلب العنصر التركي في الجيوش الفاطمية على العنصر المغربي »^(٢٦) .

ويظهر أن ذلك اللقب لم يستخدم كعلم على قائد الجيش الا في زمن متأخر ، ذلك أنا لا نجد له وجودا في للزمن الأول من عمر الدولة الفاطمية ، وانما وجدنا « جوهر » يلقب بالقائد ، وابنه « حسين » بقائد للقواد ، ثم استعمل لقب « اسفسهاري » بعد ذلك ، ومما يؤكد ذلك أن نفس الكلمة ليست عربية ، وانما تتكون من مقطعين أحدهما فارسي والآخر تركي ، أي أن الأتراك هم الذين استعملوها فيما بعد .

على أن هذا اللقب قد استعمله الخليفة « العزيز » أثناء مخاطبته « لألفتكين » التركي وقت الحرب بينهما في بلاد الشام ،

(٢٥) انظر : نص منشور في القلقسندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٢٥ وما بعدها .

(٢٦) انظر : مشرفة : نظم الحكم بمصر ص ١٧٩ وما بعدها .

وربما كانت سبب ذلك أن الخليفة الفاطمي آثر مخاطبته بلغته ليكون أقرب للفهم ، وأدخل في الإيضاح ، ولم تستعمل الكلمة كلقب عام لقائد الجيش إلا في فترة متأخرة عن ذلك .

ومهما يكن من أمر فقد كان يعاون القائد العام ، مجموعة من القواد يبلغون أوامره إلى جندهم ، ويعرفونه أحوالهم من حيث الحضور والغياب والموت والحياة الخ^(٢٧) ، ويشبه هؤلاء قواد الألوية في العصر الحديث .

زم الرجال : يتولى هذه الوظيفة الأستاذون من غير المحنكين ، وصاحبها مهمته رعاية الطائفة التي يتولاها ، ومباشرة أمورها والتحدث عن طوائف الرجال والأجناد وتمثيلهم عند القيادة العسكرية العامة ، وقد كان هناك زم صبيان الحجرية .. وزم السودان .. وزم الطوائف .. الخ الفرق العسكرية ... وهم يشبهون مقدم الممالك في زمن دولة المماليك^(٢٨) وإذا صح تشبيهه معاونة الأسفلار بقواد الألوية حديثا جاز لنا أن نقول أن زم الرجال يشبه عمله عمل قائد الكتيبة حسب التقسيم العسكري الآن .

وينبغي الإشارة إلى أن زم الرجال هذه ، غير وظيفة زم الرجال التي يتولى صاحبها أعداد طعام الخليفة^(٢٩) .

شروط وظيفة زم الرجال :

كان زم طائفة « ما » من الطوائف يتم بناء على تركية من الوزير ، أو باختيار الخليفة بصفة مباشرة ، ويصدر بتوليته « سجل » من ديوان الانشاء .

(٢٧) انظر : نفسه .

(٢٨) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٢ .

(٢٩) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١٠٩ وهامشها .

ولحسن الحظ لدينا بعضا من السجلات التى كتبت بهذه المناسبة ،
ومنها يمكننا معرفة الصفات التى كان يعول عليها فيمن تناط به تلك
الوظيفة وأهم ما يبرر اختياره •

ومن مجموعة السجلات المكتوبة بهذه المناسبة يمكن استخلاص
الشروط الواجب توافرها فى زم الطائفة وتتلخص فى :

١ - أن يكون القائد شهما شجاعا ، قد ضرب فى هذا الباب
بسهم وافر ، وذاعت كفايته الحربية ، وانتشرت أمانته وحسنت كفاءته •

٢ - أن يكون حسن السياسة قوى التدبير ، يفنى فى رعاية
شئون طائفته ، ويوفق للعمل لصالحها ببراعته وحنكته وحسن تأتية
للأمور وفهمها •

٣ - أن يكون قد عرف بولائه للعقيدة الفاطمية ، وإيمانه بها ،
يعمل لرفع قدرها ، وينصح بما من شأنه أن يرفع الدولة ويعلى مكانتها •

وأما مهمة زم الطائفة ، والواجبات المناطة به ، والمطلوب منه
القيام بها بحكم وظيفته ، فتحددها السجلات بما يمكن تلخيصه
فيما يلى :

١ - تقوى الله وطاعته ، ومراقبته فى كل ما يصدر زم الرجال
من شئون الدولة وبما يمضيه من أمورها •

٢ - أن يحرص على توفير العدل ، ويمتنع عن الظلم والعسف ،
ويعامل الناس بلطف وأدب ، بذلك يحملهم على منابته واحترامه ،
وعليه كذلك أن ينتصف للمظلوم من الظالم ، ويعطى كل ذى حق حقه ،
مع مراعاة التسوية بين كل الناس دون أن يميز واحدا عن الآخر ،
ففى التفريق بين الناس حد للشعب ، واضعاف لنفوس الرعية ومساعدة
على الاحجام والمعصية ، ومجافاة الدولة والخلافة •

٣ - على قائد الطائفة أن يرشح من بين جنودها من يستحق

الترقية ، فعليه مراقبة كل العساكر ، وقياس هممهم ، ومعرفة النشيط
الدعوب على العمل ، المواظب عليه ، ثم اختيار من يرشحه للترقية
من بين هؤلاء *

٤ — أن ينظر في كل أمور طائفته بصورة تضمن الوفاق والمواظاة
بين أفرادها ، وتمنع النزاع والتخاصم بينها ، وأن يرببها على أحسن
أدب وأفضل منهاج وأكرم سيرة *

٥ — نشر محبة أمير المؤمنين في الطائفة ، وتكون دعوتهم الى
تلك المحبة بالحسنى لا بالعنف ، مع مكافأة المطيع ومعاقبة المقصر ،
ومراعاة كل جنده لرفع من تقدم وأدى واجبه الى المرتبة اللائقة بمثله ،
ومنع العوام من الاطلاع على دقائق المذهب ، التي قد تعجز عقولهم
عن ادراكها وفهم مغزاها *

٦ — أن يولى على كل مجموعة من رجاله نقيباً يتفقد أخبارهم
وينهى اليه سيرهم *

٧ — أن يداوم تدريبهم على مختلف الأسلحة ، ويشرح لهم
أنواع السلاح ، ليكونوا دائماً على أهبة الاستعداد ، وليلبوا النداء
مسرعين مدربين عندما يدعون للقتال والحرب ، وعلى الرجال اعداد
مختلف الأسلحة ، والتأهب بالخيول وكل ما يلزمهم — كل حسب
طاقاته — ولا يجوز أن يكون واحد منهم دون ما ينتظر منه ،
ولا يرخص له في ذلك *

٨ — مراعاة أبناء من يموت من الطائفة ، وتربيته تربية حسنة ،
وتنشئته على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وتعليمه ما لا بد من
تعلمه من الفروسية والشجاعة ، وكل ما يلزم المحارب ويعتبر أساساً له
باعتباره عسكرياً *

ويفهم من السجلات أنه كانت هناك مجموعة من النقباء في كل
طائفة يعملون تحت رئاسة زم تلك الطائفة ، ومهمتهم أن ينبؤوا عنه ،

ويعلموه بكل ما يتصل بمن تحت قيادتهم من الطائفة ، ويشرهن له ما يتعلق بهم من أمور صغيرة أو كبيرة ، وهم فى هذا يشبهون قواد الفصائل داخل الألوية فى التقسيم الحربى للجيش الحديثة •

وإذا كانت تلك مهمة زم الطائفة ، والشروط الواجب توافرها فيه ، فاستراطها أولى فيمن يعلوه من للقواد كناظر الجيش وقائد العسكر (٣٠) •

مجال الترقى وصاحب الحق فيه :

كان الجيش الفاطمى يتألف من فرسان ومن رجالة ، وكان على كل عشرة رجال عريف م وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقيب قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير (٣١) •

وكان الخليفة يعتبر الزعيم الأعلى فى الدولة ، وله الاشراف العام الشامل على كل شئونها ، ويشبهه منصبه من الناحية الادارية منصب الملك أو رئيس الجمهورية فى العصر الحديث •

وكما أن الملك أو رئيس الجمهورية هو فى الوقت نفسه القائد الأعلى للقوات المسلحة ، كذلك كان الخليفة هو المسئول الأول عن الشئون العسكرية ، والقائد الأعلى للقوات المسلحة •

وكان له حق الترقيّة الى مختلف الرتب فى الجيش ، ويرقى أدوان الأمراء — وهم كما مر الذين يخدمهم خمسة فرسان ولا يسمح لهم بحمل القضب الفضية — الى مرتبة الأمراء أرباب القضب الفضية ، الذين يصرح لهم بحمل القضب الفضية التى يخرجها لهم الخليفة من خزينة التجميل أثناء موكب من الموكب أو احتفال

(٣٠) انظر نص السجلات فى :

القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٦٠ ، ص ٤٠١ وما بعدها ،

ص ٤٣٩ وما بعدها •

(٣١) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٣ •

من الاحتفالات ، ويكون فى خدمة كل منهم أربعون مملوكا على الأقل .
والخليفة كذلك هو الذى يقوم بترقية هؤلاء الى رتبة « الأمراء المطوقين »
وهم الذين يلبسون أطواقا من الذهب تكون فى أعناقهم ، ويخدم
كلا منهم مائة مملوك (٣٢) .

وكان أجل الأمراء أرباب السيوف ، صاحب الباب (كبير الأمراء)
الذى لقب بالمعظم ، يليه الاسفسهلار ، ثم حامل سيف الخليفة أيام
الركوب فأرباب الأطواق ، يليهم أرباب القضب والعماريات ،
ثم زم الطوائف ، ثم من يترشح لذلك من الأمائل .

وكان المعول عليه فى الترقية من رتبة الى أخرى هو المواهب
والكفاءات ، وكانت الدولة لا تعتمد الا على أرباب الشجاعة والفتوة ،
ولهذا السبب دخل فى ذلك الجيش ، ووصل الى أعلى المراحل فيه ،
أخلاق الناس من الروم والأرمن وغيرهم ، فلأنهم اتسموا بالشجاعة ،
وقاموا بأعمال حربية ، وأظهروا بسالة فى ميادين الوغى ، استحقوا
أن يكونوا فى خيرة القواد ومن أعلام الرجال فى الجيش الفاطمى (٣٣) .

وكان للخليفة كذلك السلطة المطلقة فى معاقبة من يذنب فى السلك
العسكرى ، ومجازاة من يحسن من رجاله ، وكانت مكافأته عبارة عن
ثياب ، أو عمائم قصب مذهب ، يخرج بها براءات تصدر عن ديوان
الانثشاء وصاحب الباب (٣٣) .

التدريب فى الجيش الفاطمى :

لم يغفل الفاطميون عن أثر التدريب المتواصل فى تماسك أفراد
الجيش ، وتعودهم النظام والطاعة ، ومعيشتهم فى جو عسكرى دائم ،
يجعلهم دائما على أهبة الاستعداد ، وفى حالة لياقة تامة ، وفى وضع
يمكنهم معه خوض المعارك كلما دعت الظروف الى ذلك .

(٣٢) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١١٣ .

(٣٣) انظر : المقرئى : الخطط مجاد ٢ ج ٢ ص ٢٤٥ ، مشرفة :

نظم الحكم ص ١١٣ .

لكل ما مر أولى الفاطميون تعليم العساكر وتدريبهم شبيئاً
غير قليل من عنايتهم واهتمامهم ومرنوا جنودهم على ألعاب وتمارين
كثيرة تكسبهم قوة الجسم ونشاط البدن •

فقد مارس الجنود الفاطميون تدريبهم على لعب الكرة وسباق
الجرى والتحطيب بالعصى والفروسية والحكمة « الهوكى » •

ووضع برنامج لتقوية أجسامهم وأعضائهم من تمارين للقوة
الذراعين الى أخرى لقوة الرأس والرجلين ، والعنق •

وعرف الفاطميون كذلك التدريب على المشى والجرى والقفز
لبضعة أمتار ، والوثب العالى والطويل ، ورموا الجلة والقرص والرمح ،
ولعبوا الملاكمة وكرة القدم ، والمصارعة والسباحة ، والتجديف ،
والمبارزة وركوب الخيل •• الخ ما عرف فى عصرهم من تمارين •

وكان الهدف من وراء ذلك كله أن يحفظ جسم الجندى نشيطا ،
ويحال بينه وبين الركون الى الراحة ، وتعود الكسل والبلادة ، فتفسد
نفسه وجسمه ، ويفقد مقدراته ومواهبه الحربية •

وفوق ذلك اهتم الفاطميون بتعليم أفراد جيشهم ، طرق انقاذ
الغرقى ، واطفاء الحرائق ، والاسعافات الأولية ، وحمل المصابين فى
معسكراتهم •

وقد كان الخليفة نفسه — باعتباره قائداً أعلى للقوات المسلحة —
يقوم بين الحين والآخر ، باستعراض فرق الجيش والاطمئنان على
أسلحته ومعداته ، وتفقد معسكراته وثكناته ، وقد حرص بعض الخلفاء
الفاطميين على توديع الحملات الحربية بنفسه ، وكان يأذن لقائد
الحملة بالمشول بين يديه ، ويخلع عليه حلالاً مزركشة بالذهب ،
تشجيعاً له ورفعاً لمعنوياته^(٣٤) •

(٣٤) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٩ •

طريقة التجنيد :

معلوم أن الجيش عصب الأمم بها تقاس قوتها ، وتحقق عظمتها ، وعن طريقها تكتسب الدول هيبتها ، ويتوافر احترام الجميع لها : وكلما كانت ضخمة متينة حسنة التدريب ، مكتملة اللياقة ، كان ذلك أهيب لها وأدعى لاحترامها وتقديرها ، وأضمن لارهاب عدوها .

لهذا ليس عجبيا أن تكون الجيوش موضع عناية الدول والحكومات منذ القديم ، تحاول كل منها أن توفر لنفسها منها ما يتناسب مع مكانتها الدولية وما يليق بها وبوضعها الحربى .

وكانت الدول فى القديم تعتمد فى جمعها لجيشها على نظام التطوع ، وعلى كل من يمكنه حمل السلاح أن يلجأ داعى القتال حين يدعى اليه ، تدفعه للحمية والشجاعة الى الاشتراك فى الدفاع عن الوطن وحماية حوزته ، ويرى عيبا وعارا أن يتخلف عن ميدان المعركة فى الوقت الذى يناضل فيه أقرانه من القادرين ، ويعذلون أقصى ما فى وسعهم .

الا أنه لم يكن ينتظر — مع تقدم الأمم وارتقائها وتنوع مصالحها — أن تستمر المحافظة على نفس الطريقة لتجنيد الرجال وتجميع الجيوش ، وكان لابد من سن أنظمة جديدة ، فتطور الوضع الى نظام تجنيد العسكر اجباريا اذا كانت الحرب التى سيخوضها الجيش للدفاع عن بلده ووطنه ، أما اذا كانت الحرب هجومية ، فقد سن التطوع أساسا للتجميع دون أن يكره أحد على الانخراط فى سلك الجندية^(٣٥) .

ولما جاء عهد « عبد الملك بن مروان » الخليفة الأموى ، رأى واليه « الحجاج بن يوسف الثقفى » أن الناس لم يعودوا يقدمون

(٣٥) انظر عبد الرزاق بركات : لمحة تاريخية فى الحرب والجندية ص ١٠ - القاهرة سنة ١٩٣١ م .

على القتال مدفوعين بروح الحماسة والفتوة ، بل تقاعسوا وأصابهم الكسل ، فالزم الناس لذلك بالانخراط فى سلك الجندية ، وجعل التجنيد اجباريا الزاميا ، لكن ذلك لم يدم كثيرا .

وفى عهد العباسيين والفاطميين ، شرع الخلفاء فى شراء الجنود الأعاجم والأتراك وغيرهم من عبيد للشراء ، وكانوا يشترونهم لتثبيت أقدامهم ، ويحرضون كل طائفة على الطوائف الأخرى ، وينصرونها عليهم ، فكانت النتيجة أن هؤلاء الخلفاء ضمو بلاء ووباء عليهم وعلى دولهم (٣٦) .

والحق أن عبيد الشراء ، لم يكونوا العنصر الأساسى فى جيش الدولة الفاطمية على مدار كل عصورها ، ولم تستشر ظاهرة الاعتماد عليهم ، والاكثار منهم الا فى عهد الخليفة « المستنصر » ، وقبل ذلك كانت الخلافة تعتمد على مناصرة الأجناس والقبائل لها .

فقد قامت الدولة فى بلاد المغرب بقبيلة كتامة ، تظاهرها قبائل بربرية أخرى ، وقد أقاموا هذه الدولة وساندوها وحموها من كل الأعاصير التى تعرضت لها فى بلاد المغرب ، وبهم فتحت مصر ، ثم جاء « العزيز » فاصطنع الديلم والأتراك ، وأدخل عنصر المشاركة فى الجيش الفاطمى واعتمد عليهم فى حكمه للدولة ، وفى توجيهه لدفتها ، وكانوا يده اليمنى فى كل أموره ، وقد سبق الحديث عن ذلك .

* * *

(٣٦) اظر : عبد الرازق بركات : لمحة تاريخية فى الحرب والجنيدة ص ٢٦ .

ديوان الجيش

أصل الكلمة ، معناها ، لحة تاريخية :

الديوان عبارة عن الدار التي تعد لحفظ ما يتعلق بأعمال دولة « ما » وأموالها ومن يخدم فيها من الجيوش والعمال •

وقد ذكر العلماء وجهين لتسميته بذلك الاسم :

أحدهما أن حاكم الفرس «كسرى» اطلع يوما على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال « ديوانه » أى مجانين ، فسمى موضعهم بهذا الاسم ، ثم حذفت الهاء تخفيفا لكثرة الاستعمال فقليل ديوان •

والثانى أن الديوان بالفارسية تعنى الشياطين ، فسمى الكتاب بذلك « لحذقهم الأمور ، ووقوفهم على الجلى والخفى ، وجمعهم لما شذ وتفرق ، واطلاعهم على ما قرب وبعد ، ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم » (٣٧) •

والكتابة فى الديوان تتنوع الى ثلاثة أنواع : كتابة الجيوش ، وكتابة الخراج ، وكتابة الانشاء والمكاتبات ، وكل دولة لابد لها من هذه الأقسام الثلاثة فى ديوانها •

ويهما هنا الحديث عن « ديوان الجيش » بصفة خاصة •

وسوف نقدم ما اشترطه المفكرون الاسلاميون فيمن يثبت بهذا الديوان بايجاز ثم نتبع ذلك ببيان موقف الدولة الفاطمية مما وضعه وقرره الفكر الاسلامى ، وما قدمه علماء الاسلام حول هذه الأفكار •

(٣٧) انظر : المقرئى : الخطط مجلد ١ ج ١ ص ١٦٣ •

شروط الاثبات فى ديوان الجيش :

اشتراط علماء الاسلام ومفكروه ، فيمن يثبت اسمه فى ديوان الجيش ، ويستفيد من عطائه ، شروطا خمسة :

• أولها : البلوغ

الثانى : الحرية : فلا يجوز اثبات المملوك فى ديوان الجيش ، وانما يتبع سيده وقد أجاز الخليفة « أبو بكر » افراد المملوك بالعتاء ، واختار « أبو حنيفة » رأيه •

• الثالث : الاسلام

الرابع : أن يكون من أدرج اسمه فى ذلك الديوان سليما صحيحا معافى من الآفات المانعة له فى القتال •

الخامس : أن يكون خبيرا بالقتال عارفا لأصوله ، وأن يكون فبه اقدام وجراة ، فاذا توافرت هذه الشروط فى شخص ما ، جاز اثباته فى ديوان الجيش بطلبه ، ثم ان كان الشخص مشهورا باسمه فذلك كاف ، والا ذكر مع اسمه فى الديوان لونه وصفته وما يميزه من غيره تحاشيا لاتفاق الأسماء ، ثم بعد ذلك يضم الى نقيب من النقباء ، أو عريف يسأل عنه ويراقبه فى كل تصرفاته (٣٨) •

كيفية ترتيب العسكر فى الديوان :

يتم ترتيب العسكر فى ديوان الجيش على ضربين : أحدهما يسمى الترتيب العام ، والثانى الترتيب الخاص •

(٣٨) انظر : تفصيل ذلك فى الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٢٠٣ وما بعدها ، القاهرة سنة ١٩٦٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١١٠ وما بعدها •

الأول : عبارة عن ترتيب القبائل والأجناس ، بهدف تمييز كل قبيلة عن غيرها ، وكل جنس عن مخالفة ، ليضمن أن يكون الديوان على نسق واحد معروف فيمتنع الخلاف والتنازع ، ثم ان كان المقيدون في الديوان عربا ، روعى في ترتيبهم القرب من رسول الله ﷺ .

أما اذا كان المقيدون في الديوان من العجم الذين لا يجمعهم نسب واحد ، فيرتبون على أساس أجناسهم أو على أساس البلدان التي نزحوا منها .

فالأول : مثل الترك والهند .

والثانى : وهم المميزون بالبلاد كالديلم والجبل .

والثانى من نوعى الترتيب : الترتيب الخاص ، وهو عبارة عن ترتيب الفرد بعد الفرد ، فيقدم من له سابقة كما فعل الخليفة الثانى « عمر » فان تساوا في السابقة جعله الدين أساسا للترتيب ، والا فالسن ، والا جعلت الشجاعة مناط الترتيب ، فان تساوى العسكر في ذلك كله ترك الخيار لولى الأمر ، اما أن يرتبهم بالقرعة أو وفقا لرأيه واجتهاده (٣٩) .

أساس تقدير مرتبات العسكر :

يراعى في تقدير المرتبات أن يثبت في الجيش أن يكون بحيث تكفيه ويستغنى بها ، وتمنعه من التماس مورد للرزق فيما عداها ، ليتفرغ لما أعد له من الدفاع عن البلاد ، والذب عن الدين وحماية البيضة .

(٣٩) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١١١ وما بعدها ،
المساوردى الأحكام السلطانية ص ٢٠٣ وما بعدها .

ويدخل فى اعتبار الكفاية للعسكر ثلاثة أشياء :

١ - عدد من يلزمه عيالتهم من الممالك والذرية •

٢ - عدد ما عنده من الخيل والظهر •

٣ - المكان الذى ينزل فيه ، وحالته من حيث الغلاء والرخص (٤٠) •

تلك باختصار هى وجهة النظر الدستورية فى الفكر الاسلامى خاصة بديوان الجيش وما يتصل به من أحكام ، وما يشترط فيمن يدرج فيه ، فماذا عن ذلك الديوان فى الدولة الفاطمية ، هل التزمت ذلك المنهج وعملت حسب ما يمليه عليها القانون الاسلامى ، أم حدث عن ذلك وخالفته ؟ ذلك ما ستحاول السطور التالية بيانه •

فى عهد الدولة الفاطمية ألحق بذلك الديوان ديوان الرواتب ، وأطلق عليه اسم ديوان الجيش والرواتب ، وقسم تبعاً لذلك الى قسمين رئيسيين :

القسم الأول : ديوان الجيش ، ويشترط فيمن يتولاه أن يكون مسلماً ، وله الرتبة للجليلة والمكانة الرفيعة ، وله التقدمة على غيره ويخلع عليه بالطراحة والعماد ، ويكون بين يديه حاجب من الحجاب •

ومهمة هذا الديوان أن تعرض الأجناد وتثبت فيه ، مع بيان العلامات الجسميه التى تميز كل جندي عن سواه ، مع شرح ما تحت يده من خيول (كان لا يثبت الا النوع الجيد من ذكورها) ، وكان يثبت فى ذلك الديوان كذلك مقدار رزق أو مرتب كل جندي ، ووقت أعطياته •

(٤٠) انظر : الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٠٣ وما بعدها •

ويقول القلقشندي ان ذلك الديوان كان لعهد الفاطميين مقسما الى ثلاثة أقسام :

أحدها : القسم الخاص بعرض الأجناد ، وذكر رلياتهم وعلاماتهم الجسمية المبينة لهم •

والثاني : لضبط اقطاعات العسكر •

والثالث : لمعرفة ما لكل موظف في الدولة من راتب وجارية (٤١) •

وعلى كل حال فالإشراف على ذلك الديوان يناط « بمستوف أصل » وهو صاحب ديوان الجيش ، يعاونه مجموعة من النقباء والأمراء ، يعلمونه إحوال العسكر من حياة أو موت أو مرض أو صحة وما الى ذلك (٤٢) •

وصاحب هذا الديوان من رفعة المكانة بحيث يمكنه الانتقال من الخدمة فيه الى تولي منصب الوزارة ، وقد تولى « الحسن ابن صالح الروزباري » ذلك الديوان سنة ٣٨١ هـ ، ثم تدرج في المناصب حتى بلغ الوزارة ، كما تولى ذلك الديوان على عهد وزارة « اليازوري » أبو الفرج محمد بن جعفر بن علي بن الحسن المغربي ، ثم تولى الوزارة بعد ذلك ، ولما صرف منها تولى ديوان الانشاء (٤٣) •

والقسم الثاني من ذلك الديوان : أعد لتدون فيه مرتبات العاملين في الدولة ، واسم كل موظف ومقدار ما يجري عليه ، ويتولاه كاتب أصل بطراحة ، يعاونه عشرة من الناس ، يعرفونه باستمرار بمن هو

(٤١) انظر : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٨ ، ص ٤٨٩ ، ص ٥٢١ •

(٤٢) انظر : المقرئ : المخطوط مجلد ٢ ج ٢ ص ٢٤١ •

(٤٣) الصيرفي : الإشارة الى من نال الوزارة ص ٣٤ ، ص ٤٧ •

مستمر فى الخدمة ومن مات من الجنود والعاملين وبمن استجد فى العمل ، ليرتب لكل فرد استحقاقاته ، وفقا لنظام دقيق .

وكان فى هذا القسم من الديوان عروض عدة :

الأول : ويشمل مرتب الوزير ، والثانى : ويشمل مرتبات حرس الخليفة ، وفى مقدمتهم الأستاذون المحنكون ، والثالث : من يحضر الخليفة من أرباب الرتب ، مثل كاتب الدست الشريف وصاحب الباب ، ثم حامل السيف وحامل الرمح ولكل منهما سبعون دينارا ، ثم الأربعة على العساكر وتتراوح مرتباتهم بين خمسين وثلاثين دينارا ، للعرض الرابع : ويتضمن مرتبات داعى الدعاة وقاضى القضاة ، والخامس فيه مرتبات أرباب الديوان ومنهم متولى ديوان الجيش ومرتبته أربعون دينارا شهريا ، والعرض السادس : ويشمل مرتبات المستخدمين بمصر والقاهرة ، ويشمل العرض السابع : على مرتبات الفراشين بالقصر والمقائمين بخدمته وتنظيفه داخليا وخارجيا .

ويتناول العرض الثامن : مرتبات صبيان الركاب الذين تريد عدتهم على ألفى رجل ، عليهم اثنا عشر مقدا ، فيهم مقدم للمقدمين ، وهو صاحب الركاب الأيمن ، ولكل مقدم منهم خمسون دينارا شهريا .

وهؤلاء الركاب ينقسمون الى فرق ، كل عليها نقييها ، وكل فرد من الركابية يتقاضى خمسة دنانير ، قد ترفع الى عشرة والى خمسة عشر دينارا فى كل شهر (٤٤) .

وبالاضافة الى هذه المرتبات ، كانت المنح توزع على الجند والمستخدمين فى الأعياد والمناسبات ، وفى عيد الفطر توزع الحلوى

(٤٤) انظر : المقرئى : الخطط مجلد ٢ ج ٢ ص ٢٤١ الى ص ٢٤٣ ، مشرفة : نظم الحكم ص ٢٢١ ، ص ٢٢٢

من ربع قنطار الى عشرة أرطال الى رطل واحد ، والخسكان من مائة حبة الى خمس وسبعين الى ثلاثة وثلاثين الى عشرين حبة ٠٠٠٠ وهكذا (٤٥) .

مرتبات الأجناد في الدولة الفاطمية :

جرت عادة الفاطميين على تخصيص ثلث المال الذي يتحمل من خراج دولتهم للاتفاق على العساكر ، وكانوا — اذا انحط ماء النيل عن الأراضي وانخفضت ظهرت الزراعة في البلاد — كانوا ينيبون مجموعة من الكتاب يوثق بذكائهم وعدلهم ، ومعرفتهم بعلم الخراج — وكثيرا ما كانوا من النصاري — فيخرجون الى كل نواحي مصر ، ويحررون المساحة التي تشملها الري من أراضي مصر ، ويحددون مساحتها بالفدان ثم يودع بيان بذلك بدواوين الخلافة .

فاذا مر من السنة القبطية أربعة أشهر ، خرج من الجنود من اشتهر بالقوة ، والبأس ، وعين من الكتاب العدول من اشتهر بالأمانة ، وخرج كاتب نصراني من غير من خرج عند المساحة ، ثم يتوجه جميع هؤلاء الى كل ناحية فيستخرجون منها ثلث مال الخراج حسبما شهدت المكلفات ، فاذا تم تحصيل ذلك الثلث صرف في واجبات العساكر (٤٦) .

وقد مر بنا أن مرتب صاحب ديوان الجيش كان أربعين دينارا في كل شهر ، وأن أزمة العساكر كانوا يتقاضون مبلغا يتراوح بين خمسين وثلاثين دينارا ، كما أن حملة الركاب كان يتراوح مرتبهم من خمسة الى خمسة عشر دينارا ، ولم نستدل على مرتبات عدل هؤلاء من رجال الجيش .

(٤٥) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٥ .

(٤٦) انظر : المقرئزي : الخطط مجلد ١ ج ١ ص ١٥٣ ، مجلد ٢

ج ٢ ص ٢٤٨ .

وكل ما تذكره النصوص هو أن ثلث الضرائب على الأراضي المصرية ، كان مخصصا للاتفاق على الجيش وعساكره ، وقد كانت الأراضي تؤجر بطريقة للقبالة أي « بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجنساد وأهالي النواحي من العرب والقبط وغيرهم ، ويحصل من خراجها مقدار الثلث فينفق على الجيش ، ومنه تمنح العطايا والهبات للعاملين بذلك الجيش »^(٤٧) ولا يستبعد أن يكون مرتب الجندي مقدارا يزيد على خمسة دنانير شهريا ، ذلك أن هذا المبلغ كان يدفع للفراشين ولأقل الخدم في الدولة ، فمعقول أن يكون ذلك المبلغ — أو أزيد منه — هو الحد الأدنى يصرف لكل جندي يعد نفسه ، ويضحي بروحه ، ويبذل كل ما في وسعه لحماية الوطن والذب عنه .

على أن هناك حادثة حدثت في الأيام الأولى من خلافة « الحاكم » (٣٨٦ — ٤١١ هـ) يمكن منها معرفة مرتبات الكتاميين في ذلك الوقت .

وخلصتها أن الكتاميين تخلفوا عن حضور بيعة الحاكم ، وخرجوا نحو المصلى فجاءهم « ابن عمار » وجماعة من رؤوسهم ، وشكا الشاميون اليهم « عيسى بن نسطورس » الوزير النصراني ، وطالبوا بصرفه وأن يتولى الوساطة رجل من المغاربة ، ثم درس « الحسن بن عمار » مطالبهم ، وأمر بتحرير أرزاقهم وبعد مخاطبات طويلة بينهم وبين الخليفة تم الاتفاق على أن يكون لهم ثمانى اطلاقات في السنة ، لكل نسمة ثمانية دنانير ، وأن يطلق لهم الفضل بحضرة الخليفة ، وتم ذلك وأحضر المال ، وصرف لهم الفضل بحضرة الخلافة وكان مقداره عشرين دينارا لكل فرد ، ثم أقسم الجميع بعد ذلك يمين الولاء والطاعة للخليفة .

وفي سنة ٣٨٦ هـ تجمع الكتاميون ، فأرسل اليهم الخليفة

(٤٧) انظر: المقرئى : الخطط مجلد ٢ ج ٢ ص ٢٤٢ ، ص ٢٤٣

« الحاكم » ، من دبر أمرهم على « سبع أعطيات فى السنة » وشرع فى للنفقة على نحو ألف فارس بمراكبها (٤٨) .

ومعنى ذلك أن مرتبات الكتامين مرت بمرحلتين : فى أول عهد للحاكم كانت ثمانية دنانير لكل فرد ، تدفع له ثمانى مرات فى السنة ، أى ٦٤ ديناراً سنوياً .

ثم استكثر الحاكم ذلك عليهم ، فحط من مرتباتهم ، وجعلها سبعة مرات فقط أى ستة وخمسين ديناراً فى كل عام ، هذا عدا ما كان يصرف لهم من مكافآت وما يمنحه لهم الخليفة من هبات (فضل) لا يحتسب ضمن ما يتقاضونه من مرتبات .

ولقد كانت العناية بجند الجيش الفاطمى ، والحرص على بيان مهمات أفرادهم ، وإيصال مرتباتهم اليهم فى ميعادها ، من أهم ما عنى به الخلفاء الفاطميون فى وصاياهم لوزرائهم عند تقليد الوزارة اليهم ، من ذلك :

« وأما طوائف الأجناد فتقرهم على مراتبهم فى ديوان الجيش المنصور ، وتخصهم من عنايتك بالنصيب الموفور ، وتستخدمهم فى سد الثغور وتسديد الأمور ، وتراعى وصول أطماعهم اليهم ، وقت الاستحقاق » (٤٩) .

أما عن الشروط التى جاءت فى كتب المفكرين الاسلاميين خاصة بمن يجب اثباته فى الجيش ، فقد راعاها الفاطميون ، وحافظوا عليها ، فيما عدا شرطى الاسلام وللحرية .

(٤٨) انظر : ابن ميسر : اخبار مصر ج ٢ ص ٥٣ طبع القاهرة سنة ١٩١٩ م .
(٤٩) القلقشندى صبح الاعشى ج ١٠ ص ٣٩٣ .

فقد وجدنا غير المسلمين يتقدمون في الدولة ، وتوكل اليهم المهام الخطيرة • ومن الانصاف أن نقول ان الفاطميين تجاوزوا في هذا الشرط بالنسبة للوظائف المدنية ، أما رجال الجيش فلقد كان الاسلام شرطا أساسيا فيهم ان لم يكن والايمان بالمذهب الشيعي ، لتكون لديهم الحماسة والقوة والافتناع بالدعوة والاخلاص في الدفاع عنها ، وبذل كل ما يمكن بذله في سبيل نصرتها والتمكين لها ، ولا يتصور ذلك الا من المسلم ، الحريص على تثبيت قواعد الاسلام ، المحب للدولة ، الراغب في استمرار بقائها •

أما عن الحرية فقد وجد العبيد في الدولة منذ زمن مبكر ، وخدموا فيها ، وساهموا في تكوين جيشها ، بل انهم في فترة متأخرة عن فترتنا وأيام الخليفة « المستنصر » (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) كانوا من أهم العناصر المكونة للجيش الفاطمي ، بل قوة يعمل لها كل حساب ، تخشى الخلافة بأسها ، بل وتحاول ترضيتهم والابتجابه لكل مطالبهم من مال ومقتاع •

والحق أن الفاطميين لم يبعدوا كثيرا عن التفكير الاسلامي في تجاوزهم للحرية ، ذلك أنه قد مر بنا أن الخليفة الأول « أبا بكر » رضى الله عنه ، أجاز اثبات العبيد في الديوان بعتاء منفصل عن عطاء سيدهم ، وأخذ برأيه من الأئمة الامام « أبو حنيفة » (٥٠) •

فليس غريبا أن يستخدم الفاطميون العبيد ، وأن يقدموا لهم المرتبات ويعدونهم عساكر في دولتهم •

(٥٠) انظر ما سبق ص •

ديوان الاقطاع :

وجد ذلك الديوان منذ بداية الحكم الفاطمى بمصر ، وقد ألحق بديوان الجيش ، وأعد ليختص باقطاعات الأجناد ، والنظر فيما هو مقطع لهم .

وكان لذلك الديوان رئيس يتقاضى أربعين دينارا فى كل شهر ، ولم يكن يدخل فى اختصاصه تغيير واحد من الأجناد ، أو المساس بشئ من اقطاعاته الا بمرسوم (٥١) .

وكان السبب فى انشاء هذا الديوان ، هو أن الخليفة الفاطمى « المعز لدين الله » لما استولى على مصر ، ضم الى أراضى الدولة العامة ، أملاك الأسرة الاخشيديية وأمكنه لذلك أن يقطع بعض أراضى الدولة هذه نفرا من خواصه ، سواء أكانوا من أصحاب السيوف أو من أصحاب الأقلام ، وكان ذلك الاقطاع اقطاع تمليك فى بعض الأحيان ، تصدر به وثيقة من ديوان الانشاء تسمى « المجمل » بمقتضاها يصبح حاملها مالكا للأرض بصورة مؤبدة تجرى على الأصل وعلى الفرع .

وفى أحيان أخرى ، كان الخليفة يقطع خواصه اقطاع استغلال أى الانتفاع بايرلاد المساحة المقطعة مدة حياة المقطع له ، وترد بالوفاة وبعد انتهاء المدة المحددة للاقطاع ، الا اذا أخل المقطع بشروط الخليفة .

على أن ذلك كله لم يزد عن مجرد مكافآت وهبات يتقدم بها الخليفة لرجال الجيش ، ذلك أن الخلفاء الفاطميين لم يسيروا على مبدأ اعطاء الأراضى اقطاعا فى مقابل الرواتب ، وانما أخذ بذلك النظام الأيوبيون ثم توسع فيه المماليك فيما بعد (٥٢) .

(٥٠) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٨ .

(٥٢) انظر : مشرفة : نظم الحكم بمصر ص ١٨٦ - ١٨٨ .

وقد بقى لنا صورة سجل من سجلات الاقطاع فى الدولة الفاطمية ، يفهم منها أنه لم يكن أكثر من منحة من الدولة لمن تتقدم بها اليه (٥٣) .

ويبدو أن الخليفة « الحاكم بأمر الله » ، قد توسع فى الاقطاعات على عهده ، وأكثر من لقطاع الجند والعبيد ، كما أقطع بنى قرة ، ونواتية المراكب والمشاعلية ، وكان من بين الجهات التى قدمها اقطاعا الاسكندرية والبحيرة — ونولحيها (٥٤) .

وقد تم حل جميع الاقطاعات فى الدولة الفاطمية أيام وزارة الأفضل بن أمير الجيوش ، بناء على شكاوى من الأجناد ، ثم أعيد توزيعها بعد ذلك (٥٥) .

(٥٣) انظر نص ذلك السجل فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ : ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٥٤) انظر ملحق اتعاظ الحنفا ص ٣١٢ .

(٥٥) انظر المقرئزى : الخطط مجلد ١ ج ١ ص ١٤٨ .

الامارة على الجهاد

أحكامها ، وشروطها ، موقف الفاطميين من ذلك

نحاول — موجزين — تقديم وجهة النظر الاسلامية فى هذا
المصدد ، ثم نطبق ما ذكره المفكرون الاسلاميون على الدولة الفاطمية •

يجب على متولى امارة الجهاد مراعاة ما يلى :

تسيير الجيش ، ومراعاة أمور سبعة فى ذلك السير تعتبر حقا
للجيش لابد من توافرها :

١ — الرفق بالجنود فى السير •

٢ — تفقد خيولهم وظهورهم •

٣ — مراعاة من معنه من المقاتلة سواء أكانوا من المتطوعين
الخارجين امثالاً لأمر الله أو من الثبتين فى ديوان الجيش •

٤ — أن يعرف العرفاء ، وينتقب النقباء على الجيش ، كى يعرفوه
أحوالهم ، ويكونوا واسطة بين الأمير والجنود •

٥ — أن يخص كل طائفة بشعار تعرف به ، ليكون ذلك أدعى
الى تميزهم واتضاحهم •

٦ — أن يتصفح الجيش ويتعرف لأحواله ، ليخرج المرءف
المخذل ، ويبقى المخلص الصادق •

٧ — الا يجمال أو يمالىء ، بل عليه أن يساوى بين كل الأفراد ،
لأن فى التفرقة نشر للاختلاف والتقاطع (٥٦) •

(٥٦) انظر تفصيل ذلك فى الماوردى : الأحكام السلطانية

ص ٣٥ وما بعدها •

ذلك هو الأدب الاسلامى العام ، وقد راعاه الفاطميون فى حروبهم ، ونفذته قياداتهم ، وحرص عليه أمراؤهم ورؤساء جيوشهم ، يتضح ذلك من سجلاتهم التى سيأتى الإشارة لبعضها فيما بعد .

واجب أمير الجيش :

يجب على أمير الجيش فى سياسته لجنده عشرة أشياء :

- ١ - حراستهم من غرة يظفر بها العدو .
- ٢ - أن يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة العدو .
- ٣ - أن يعد للجيش ما يحتاج اليه من زاد وغيره ، ويفرقه عليهم وقت الحاجة .
- ٤ - أن يتعرف أخبار عدوه ، ويتصفح أحواله .
- ٥ - أن يرتب الجيش فى المعركة ، وأن يضع فى كل ناحية من يراه كفؤا لها .
- ٦ - أن يرفع روح الجند المعنوية .
- ٧ - أن يطالب أهل البلاد بالحسنى والصبر فى القتال ، ولهم للثواب والأجر فى الآخرة ، والغنيمة والمسال ان كانوا من أهل الدنيا .
- ٨ - أن يشاور أولى الراى والحزم .
- ٩ - أن يطبق شرع الله ، فيأخذ الجيش بالحقوق التى أمر الله تعالى بها . وبالحدود التى جاءت بها شريعته .
- ١٠ - ألا يمكن أحدا من جيشه بالتشاغل عن مهمته بتجارة أو زراعة أو غيرها ، فذلك يعوقه عن الجهاد وحسن لقاء العدو (٥٧) .

(٥٧) انظر : الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٤٣ وما بعدها .

واذا كان ذلك واجب القائد على جنده ، فان له عليهم حقوقا ،
لابد أن يقوموا بها ، بعض هذه الحقوق يجب عليهم فى حق الله ،
والآخر يجب فى حق القائد نفسه ، فالذى يلزمهم فى حق الله تعالى
أمور أربعة :

١ — أن يصبروا عند لقاء الجمعين فلا ينهزموا عن مثلهم
وعما دون ذلك .

٢ — أن يكون مقصدهم من القتال نصره دين الله تعالى وابطال
ما سواه .

٣ — أن يكون كل منهم آمينا فيما استولى عليه وحازه من المغنم .

٤ — ألا يمالىء من المشركين ذوى قربى ، ولا يمالىء ذل مودة .

وأما ما يجب على أفراد الجيش خاصا بالقائد فأمر أربعة كذلك :

١ — وجوب طاعته والسمع له .

٢ — أن يفوضوا الأمر اليه ، ويكلوه الى تدبيره .

٣ — أن يمتثلوا لأوامره ، وينتھوا عن زواجه .

٤ — ألا ينازعوه فى قسمة الغنائم ، وأن تكون قسمنه فيهم
موضع رضى طالما كان عادلا فيهم (٥٨) .

تلك — فى ايجاز — هى النظرة الاسلامية لأمر الحرب ، ولمكانته
فى جنده ، وواجبه عليهم ، وحقوقهم عليه ، وذلك هو وضعه فى
التفكير الاسلامى فهل التزم الفاطميون بذلك وعملوا به ، أم حادوا
عنه وتنكروا له ؟ .

(٥٨) انظر : التفاصيل فى المرجع السابق من ص ٤٣ الى ٤٩ .

هناك وصية ، وصلت اليها سليمة — لحسن الحظ — هذه الوصية عبارة عن مجموعة من النصائح ، أدلى بها خليفة فاطمي لأمير جهاد له ، يستدل منها على محافظة القوم على الشروط السابقة ، والتزامهم بها ، بل انها زادت جوانب اسلامية في الحرب ، مثل عرض الأمان على المحاربين ، ورفع السيف عن من لم يحسن الحرب ، والتوصية بالفحص عن نيات المستأمنين ومعرفة دخائلهم ، والايعاء بأهل الذمة ، ومعاملتهم معاملة المسلمين ، والجنوح الى السلم ، والوفاء بالعهد ... الخ .

وتلك الوصية تقدم ما يشترطه الفاطميون في أمير الجهاد ، فلا بد أن يكون قويا شجاعا يستعنى به في سد الخلل ، ويعتمد عليه في نصره الدولة وحمايتها .

وقد كان الخليفة يخلع عليه بنفسه قبل توليته ، ويمنحه لواء وملابس وطوقا من ذهب تشريفا له ، ويوصيه ب تقوى الله والعمل بجد وفي حرص وحذر ، ثم يحدد له ما يطلب منه قبل الرحيل من تسلم قوائم بأسماء العسكر ، واختيار القوى الصالح للقتال من بينهم وترك من عداه .

وعلى القائد بعد ذلك أن ينفق المال على من اصطفاهم للحرب والقتال ، ويساعدهم وهم في طريقهم اليها ، فيقدم لهم ما يحتاجون اليه من نفقة وغيرها ، ويحل مشاكلهم ، ويخرج لهم اللزاد والسلاح والخيام والأموال ، ويكون في حالة ترهب العدو وتزرع الرعب في قلبه .

وأخيرا عليه — في طريقه للمعركة — أن يختار أحسن الطرق وأسهلها ، وأن يعلن الحرب المقدسة على المشركين في كل بلد يمر فيه ، ليتقدم اليه كل من يأمن في نفسه مقدرة على القتال والنضال . وحينئذ عليه أن يمدد بالمال والسلاح ، وبذلك يقرب من النصر ويحقق الرجاء .

يقول الخليفة لأمير جهاده :

« فاذا كملت العدة من أهل الجلد والشهامة ، وأولى الحماسة والصرامة ، استدعيت من بيت المال ما ينفق فيهم من مستحق أطماعهم ، ومعونة طريقهم ، وأجريت النفقة فيهم على أيدي عارضيتهم وكتابهم ، فاذا أزحت عنهم ، فاستصحب من العدد والسلاح والخيم والأموال ، ما يرهب الأعداء ، وينهض الأولياء وأسلك الطريق القاصد ، ولا تفارق أهل المناهل والموارد ، ولا تغذ السير اغذاذاً تنقطع له الرجال ، وتتأخر به الأزواد ، ولا تتلوم في المنازل تلوماً تنصرم فيه الآماد ، ويوجد للمشركين مهلة للاحتيال والاستعداد ، وراع جيشك عند الحل والترحال ودافع عن كافة جند المسلمين المرتزقين والمتطوعين ، فان الله تعالى قد كافى بين دمائهم ، وسوى بين ضعفائهم وأقويائهم فاذا نازلت ثغرا من ثغور الساحل ، فاملاؤه بالخيال من بره ، وبالسفائن من بحره ، واستخدم لحفظ ما فيها من الأزواد والأسلحة والعدد والنفط ودهن البلسان والحبال والعراصات وغيرها من الآلات من تثق بأمانته ومعرفته ولما كانت الشورى لقاح الأفهام ، والكاشفة لغواشى الابهام ، أمر الله تعالى بها نبيه عليه السلام فقال : « وشاورهم فى الأمر فاذا عزمتم فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » (آل عمران آية ١٥٩) ولا تشاور جباناً ، ولا متهوراً ولا مثبطاً عن انتهاز الفرصة للمكنة ، ولا متهوراً يحملك على الغرة المهلكة وابذل الأمان لمن طلبه ، واعرضه على من لم يطلبه ، وف لمن تعاوده بعهدده

ويظهر نص الوصية أن توزيع الغنائم عند الفاطميين على مستحقيها كان من حق الخليفة نفسه بعد أن يعود الجيش منتصراً مظفراً ، وينحصر واجب القائد فى جمعها والمحافظة عليها وتوصيلها الى بيت مال المسلمين .

« وتحفظ بجوالى المعاهدين ، الأموال المقبوضة ، والغنائم وسبى المشركين حتى يحمل ذلك الى بيت مال المسلمين ، فينظر أمير

المؤمنين في تفريقه على مستحقه ، وإيصاله الى مستوجبه » (٥٩)
وفي جملة واحدة ، فإن أقل ما توصف به وصية ذلك الخليفة
الفاطمي لقائده هي أنها وصية شاملة ، حوت كل مبادئ الفكر
الاسلامي ، وتكاد لا تغفل واحدة منها .

ما يجوز للقائد فعله أثناء الحصار :

نحاول أن نتبين موقف الفكر الاسلامي - بإيجاز - ثم نتبع ذلك
ببيان التطبيق الفاطمي له .

هناك أمور يجوز لقائد الجيش أن يستعملها أثناء محاصرته لعدوه ،
ليتمكن من هزيمته وانزاله عن حصنه .

من حق للقائد أن ينصب المنجنيقات والعرادات ، ويمنع الزاد
مادام في ذلك مصلحة . ويجوز له كذلك أن يهدم المنازل .

وللقائد كذلك أثناء الحصار أن يقطع المياه عن عدوه ويغورها
عليه ، حتى وإن كان فيهم نساء وأطفال ، لأن ذلك من أقوى الأسباب
التي تؤدي بهم الى الضعف ، وتحملهم على التسليم ، ولا يصح أن
يحرق أحدا منهم بالنار ، حيا ولا ميتا ، ذلك لأن النبي ﷺ نهى عن
ذلك وقال : « لا تعذبوا عباد الله بعذاب الله » (٦٠) .

ذلك هو الحكم الشرعي فيما يجوز فعله وما لا يجوز أثناء فترة
الحصار ، ونستجلى الآن موقف الفاطميين ، لنرى أوقفوا عند حدود
أحكام الشرع في هذا الصدد ، أم تجاوزوها ولم يعبأوا بها ؟ .

(٥٩) انظر نص الوصية في :

القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٠٦ وما بعدها .

(٦٠) انظر : ذلك تفصيلا في الماوردي : الأحكام السلطانية

ص ٥٣ .

قد مر بنا أن للخليفة الفاطمي « المنصور » (٣٣٤ - ٣٤١ هـ)
قد استباح لنفسه أن يهاجم « سدراته » وقتل من بها ونهب أموالها ،
لأنها كانت تمد « أبا يزيد » الثائر أثناء حصاره لها في أيامه الأخيرة ،
وكان هدفه من ذلك إضعاف عدوه والتمكن من انزال الهزيمة به ،
كما أن ذلك الخليفة قد سمح لنفسه كذلك بإشعال النار في الجبل
الذي كان فيه ذلك الثائر في واقعة تعرف بواقعة « الحريق » حتى
لا يتمكن « أبو يزيد » من الفرار والهروب (٦١) .

وإذا كان الفكر الإسلامي يقر هجمته وشله مواقع القوة عند
المحاصرين ليقلل من قوتهم ، فإنه لا يوافق على تحريق الجبل بمن
فيه بالنار ، وتحريق من وجد به تبعا لذلك ، ذلك لأن ما فعله ذلك
الخليفة فيه تعذيب للناس بعذاب الله ، وهو ما نهى النبي ﷺ .

ويزيد من مسئولية الخليفة الفاطمي أن من كان يحاربه لم يكن
مشركا ، وإنما كان مسلما باغيا خارجا على الخليفة الشرعي على أقصى
تقدير ، فلا يجوز أن يعامل معاملة المشركين للكفار ، فيمنع الزاد ،
ويحرق أتباعه في الجبل .

ولم يكن الخليفة « المنصور » هو وحده الذي استباح لنفسه
تحريق المحاربين والمحاصرين ، فقد مر بنا أن الجيوش الفاطمية حرقت
مدينة « تيهرت » واستعملت النيران في أزهاق أرواح أهلها عندما
ثارت هذه المدينة على الحكم الفاطمي في خلافة المهدي (٢٩٧ -
٣٣٣ هـ) (٦٢) وتلك صورة من العذاب لم يقرها أو يعترف بها دين
الإسلام ، ولا يمكن موافقة الفاطميين عليها .

(٦١) انظر : ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم
ص ٣١ ، ٣٢ .
(٦٢) انظر : ص ٣٦ من هذا البحث .

تعبئة الفاطميين لجيشهم أثناء المعركة

جدد الفاطميون في طريقة القتال ، وأولوا تعبئة جيشهم في المعارك قسما وفيرا من العناية •

فبعد أن كان القتال من قبلهم يعتمد أساسا على الكر والفر أصبحوا هم يقاتلون صفوفًا متراسة تسير متضامنة لمقاتلة عدوها ، ليس لواحد منها أن يتقدم على الصف أو يتأخر عنه ، وتقسيم الناس إلى صفوف مأخوذ من قوله تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » [الصف : آية ٤] •

وكان الجيش عندهم يقسم إلى خمسة أقسام في المعركة :

١ - مقدمة وموضعها الأمام ، لتبدأ هي بالمناوشات ، وتتعرف للطريق وتؤمنه للعسكر من ورائها ، وكان أفرادها غالبا من الفرسان •

٢ - قلب وهو وسط الجيش ، وفيه يتخذ القائد موضعه في الغالب ، ليتأتى لجميع الجنود رؤيته ، وتنفيذ جميع أوامره ، وقد يتخذ موضعه في المقدمة ليثير الحماسة في نفوس الجند ، ويلقى للفرع في نفس العدو ، وقد يكون موضعه ربوة يشرف منها على الجيش •

٣ - اليمين وهي عبارة عن الكتيبة أو الكتائب التي تكون ناحية اليمين •

٤ - الميسرة ، وهي عبارة عن الكتيبة التي تكون ناحية اليسار ، والميمينة والميسرة يطلق عليهما الجناحان أو المجنبتان •

٥ - ساقة الجيش ، وهي التي تكون خلف الجيش لتحميه من الوراء ، وتحفظ له خط رجعته التي كان الفاطميون من أحرص الناس على المحافظة عليه • ولأن الجيش يقسم إلى هذه الأقسام الخمسة يسمى خميسا ، وكل قسم منها له قائد يسمع له ويأتمره بأمره (٦٣) •

(٦٣) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٢ ، ١٧٣ •

وما سبق كله يبدو واضحا من النص التالي ، وهو خاص بتولية أحد القواد الامارة على الجهاد ، وقد جاء فيه :

واذا أتوك ((العيون التي يرسلها القائد أمام للجيش) بالخبر اليقين ، وأقبسوك النور المبين ، بدأت الحرب مستخيراً الله تعالى ، مقدما أمامك ... به واستنزل النصر من عنده ، مرتباً للكتائب معيياً للصنفوف زاحفا بالرجال محصنا بالفارس والرامي ... واشحن القلب والجناحين بالشجعان المستقيمين ، والأبطال للطلوسين ، وأنزل الى رحى الحرب من خف ركابه من الأنجاد للراغبين في علو الصيت والذكر ، الطالبين الفوز بالثواب والأجر ، واجعل وراءهم رداء ، وأعد لهم مددا يوازرونهم ان يجئهم ما لا يطيقون ... وقف من التأخير والاقدام والنفوذ والاحجام موقفا تعطى الخزانة فيه حقها ، والروية قسسطها ، مصمما ما كان التصميم أدنى لانتهاز الفرصة ، واهتبال الغرة ، مثلوما ما كان التلوم أحمد للعاقبة وأسلم للمعية ... وتحفظ لنفسك ولا تلتقها في المهالك متهورا ، ولا ترم بها في المثالب مخاطرا ، ولا تساعدها على مطاوعة الحمية والنخوة ، وتحرق قبل السقطة والهفوة — فانك — وان كنت واحدا من الجيش — أوحدهم للذئ يتبادرون اليه ، ويعتمدون في السياسة عليه ودافع عن كافة جند المسلمين المرتزقين وللمتطوعين ، فان الله تعالى قد ساوى بين دمائهم ، وسوى بين ضعفائهم وأقويائهم ... (٦٤) .

« أمر أمير المؤمنين — العزيز بالله — بتزيين العساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة ، وترتيبها على مواكبها ، وتقاسم الى قوادها ، الا يمشوا الا صفوا ولا يسيروا الا زحفا .. » (٦٥) .

(٦٤) انظر نص التقليد في :

القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٠٦ وما بعدها ، وهناك تقليد آخر يدور حول نفس المعاني في ص ٤١٦ وما بعدها من نفس الجزء .

(٦٥) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٣٧ .

ملابس الجنود :

استحسن الفاطميون فى ملابس جنودهم ضيقها وقصرها ، حتى لا تحول بينهم وبين التحرك فى القتال وغيره .

وقد ساعدت النهضة الصناعية لفن النسيج لعهد تلك الدولة على القيام بحاجة العساكر من هذه الناحية ، فوفروا مختلف المنسوجات لرجال جيشهم ، وأعدوا مختلف أنواع الثياب^(٦٦) .

ومن ناحية لون تلك الملابس فلقد كانت تتميز بوحدة اللون الأبيض ، ذلك لأن الفاطميين كانوا يتيامنون بذلك اللون ، ويتشاءمون من اللون الأسود ، ويسمونه لون الشيطان ، ولذلك تجنبوا استعماله فى دولتهم^(٦٧) .

موسيقى الجيش الفاطمى :

خصص الفاطميون لجيشهم فرقا موسيقية تصحبه وتعزف بين يدي الجنود ، بثا للحمية فى نفوسهم ، وكى تثار الحماسة عندهم .

وعندما قدم القائد « جوهر » الى موضع « القاهرة » كانت طبوله تضرب ، وأعلامه تخفق ، فتثير الجند ، وتؤثر على نفوسهم ، ذلك أن النفس تطرب وتستمتع بالنغم العذب ، وتهون عليها الأخطار .

وعندما خرج الخليفة « العزيز » (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) الى بلاد الشام لمقاتلة « الفتكين » بها ، اتخذ معه خمسمائة من الأبواق ومثلها من البنود ، بقصد اثارة حماس للجند ، ونشر السرور فيهم^(٦٨) .

(٦٦) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٨ .

(٦٧) انظر واحد : نظم الفاطميين ج ٢ ص ٥٠ .

(٦٨) انظر مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٧ .

خدمات متنوعة :

تعود الجيش الفاطمي أن يصحبه دائما كاتب وترجمان وقاض وعمال لتمهيد الطريق ، والمساعدة في تركيب الأدولت الحربية وما يشبه ذلك من مهام .

وكان يلزم الجيش أيضا أطباء مجهزون بكل ما يلزم المرضى من أدوات طبية وأدوية كذلك ، كما كانت هناك عناية بالجند واسعافهم ، وتضميد جراحهم ومعالجة من يتعرض منهم للمرض أثناء القتال^(٦٨) .

مسئولية عسكرية لولاة الاقاليم :

تبين السجلات التي كتبها الخلفاء للفاطميون لولاتهم على الأقاليم، أنهم كانوا يكونون لليهم أمر الحرب ، ومهمة الحفاظ على الدولة وأمنها ، كل في حدود ولايته ، فكان عليهم ألا يمكنوا عدوا من اقتحام منطقتهم حتى لا يؤدي ذلك الى زحفه على العاصمة ، وتعرض الدولة للخطر من جراء ذلك .

لهذا كان لابد وأن يكون كل وال واعيا حريصا ، كما كان من حقه استخدام الرجال العسكريين المركزيين في محافظته في أغراض الدفاع عن البلاد ، والذود عنها ، يوضح ذلك سجلات كتبت لوالى قوص والغربية وغيرهما^(٦٩) .

وقد كان بمدينة « تنيس » مثلا حامية عسكرية دائمة للدفاع عن البلاد المصرية على عهد الدولة الفاطمية ، وكانت حصنا حربيا ، يقيم فيه جيش كامل السلاح والمعدة ، حتى لا يستطيع واحد من أعداء الدولة الاغارة عليها والنفوذ الى داخل البلاد .

(٦٩) انظر السجلات في :

القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٨١ ،

• ٤٤٢

وقد كان يحصل من هذا الثغر لخزينة السلطان ألف دينار معزية يوميا ، ولا تستخدم وسائل العنف أو القهر مع أى شخص فى تحصيلها ، مما يعطى صورة عن الرخاء الذى كانت تنعم به البلاد ، والذى سادها فى تلك الفترة من تاريخها (٧٠) .

التسليح والأسلحة فى جيش الفاطميين

أولى الفاطميون تسليح جيشهم عناية كبرى ، وحرصوا على توفير انواع السلاح المختلف له ، ورصدوا مبالغ ضخمة للانفاق على هذه الناحية تتراوح بين سبعين وثمانين ألف دينار (٧١) .

ذلك لأن السلاح هو آلة الحرب وعدة القتال ، كما أنه مظهر قوة ابدولة وآية عظمتها وتفوقها ، وهو الذى يساعد على حماية نفسها ، وتثبيت مركزها ، وقهر عدوها ، ولذلك لم يكن عجيبا أن يهتم به الفاطميون ، وأن يكون له دور بارز فى مواكبهم للخاصة ، وأن يعدوا له انخزائن يمان ويحفظ فيها .

من تلك الخزائن :

خزينة للسلاح :

واحدة من أهم خزائن للدولة فى العصر الفاطمى ، وهى التى عرفت فيما بعد فى عصر الدولة المملوكية « بالسلاح خاناه » (٧٣) .

وقد حوت أسلحة مختلفة شملت جميع الأنواع ، من الزرديات المنشأة بالديجاج المحكمة المصنعة المحلة بالذهب الى الجولشسن

(٧٠) انظر : زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٦ ، ناصر خسرو : الرحلة ص ٤٠ .
(٧١) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٣
(٧٢) نفسه .

المذهبة (إ) جمع بوشن ، وهو مثل الزرد يلبس على للظهر ، والفرق بينهما أن الزرد يكون من حلقة واحدة ، أما الجوشن فيتكون من حلقات تتداخل للسفائح بينها) وكانت فى تلك الخزينة وكذلك الخوذ المحلاة بالذهب والفضة ، والسيوف العربية وغيرها ، والرماح ، والقنطاريات المدهونة والمذهبة والأسنة ، والقسي المنسوبة الى أفاضل الصنائع ، وقسي الرجل والركاب ، وقسي اللولب الذى تبلغ زنه نصله خمسة أكرطال مصرية ، والنبل الذى يرمى به من القسي .

ويقول ابن عبد الظاهر : ان مبلغ السبعين الى الثمانين ألف دينار التى رصدت التسليح ، كانت تتفق فى أجور العمال ولصالح السلاح ، ودهنه وصقله ، وكان يودع فى هذه الخزينة كل سلاح مات صاحبه ، وكان بها العاملون الذين يقومون بعمل مختلف أنواع السلاح بحسب ما يرسم لهم من أوامر ، وكان يؤتى لهم بالخشب والحديد وكل ما يحتاجون اليه من المواد الخام التى تتطلبها صناعتهم .

وتظهر أهمية هذه الخزينة من اختيار أسباذ محنك يتولى الاشراف عليها ، ومن تعهد الخليفة لها ، وقيامه بزيارتها من وقت لآخر ، وتفتيشه بنفسه على كل ما تحويه من سلاح^(٧٣) .

وقد كانت هذه الخزانة تحوى أسلحة ذات قيمة تاريخية . .
وقد نقل « المقرئى عن ابن الطوير » : (٧٤)

أن الخليفة كان يزور خزينة السلاح فيطوفها ، ثم يجلس على سرير، أعد له فيها ، ويتأمل ما فيها من مختلف أنواع السلاح^(٧٥) .

وبجانب هذه الجزينة ، كانت توجد خزينة أخرى تسمى :

(٧٣) مشرفة : نظم الحكم ص ١٠٢ وهامشها ، ماجد : نظم الفاطميين ج ٢ ص ٢٠ ، ٢١ .
(٧٤) المقرئى : الخطط مجلد ٢ ج ٢ ص ٢٦٧ .

خزينة التجميل :

وتعتبر من حقوق خزينة السلاح وتلحق بها ، وكانت تختص بما يستخرج للوزير والأمراء فى المواكب من قضب الفضة والعماريات وغيرها .

ويظهر أن خزائن الأموال كان يحتفظ فيها كذلك بشئ نادر من سلاح الى جانب الأموال والجواهر والذخائر العظيمة ، يدل على ذلك أن الخليفة « المستنصر » لجأ الى تلك الخزائن زمن الشدة العظمى ، وأخرج منها عشرين ألف سيف من النوع المحلى انتهبها الجنود الثائرون (٧٦) .

وقد كان يخرج من خزينة التجميل ما هو خاص بالوزير ، وأكابر الأمراء ، وذوى الرتب العالية ، وأزمة العساكر (قواد الجيش) أثناء المواكب والاحتفالات .

فكان يخرج منها أربعمائة راية مرفوعة الأطراف بأعلامها رمامين الفضة . وعدة من العماريات (وهى الهودج يجلس فيه) ملبسة بالحريير الأصفر والأحمر وغير ذلك ، وعليها كوابج الفضة المذهبة ، لكل أمير من أصحاب القضب منها عمارية ، وكان يخرج برسم تشريف الوزير والموظفين وقواد الجيش رماح تعرف باسم قضب الفضة عددها مائة ، ملبسة بأنابيب فضة منقوشة بالذهب عدا ذراعين منها ، ويعلق فى الجزء للخالى حلية من القماش شفاف تترك مسبلة كالراية ، ويوضع برءوس هذه الرماح رمامين مفضضة ومذهبة ، وأهله مجوفة ، وفيها جلاجل لها حس اذا تحركت .

وكان للوزير عشرة من هذه القضب ، ولصاحب الباب خمسة ،

(٧٥) زكى محمد حسن : كتوز الفاطميين ص ٥٤ وما بعدها .

(٧٦) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٤ .

ولقائد الجيش (الاسفسهلاز) أربعة ، أما بقية القواد والأمراء فكان نصيب الواحد منهم يتراوح بين ٣ : ١ حسب طبقاتهم^(٧٧) .

سلاح طائفة الركابية :

كان هناك نوع معين من السلاح يخصص للعرض فى المواكب العظام زمن الدولة الفاطمية ، وكان لطائفة الركابية سلاح تختص به لا يشاركها غيرها فيه .

وذلك السلاح كان عبارة عن صماصم مصقلة « سيوف مستقيمة » ودبابيس ملبسة بالكونيخت الأحمر والأسود « أى أعمد مغطاة بالجلد ذات رعوس مدببة ومستطيلة الشكل » ، ولتوت حديدية « أعمدة حديدية تشبه الفأس الكبيرة ، وآلات يقال لها المستوفيات » وهى أعمدة حديدية طول كل منها ذراعان مربعة الشكل ، ولها مقابض مدورة ، وحراب شبه مصقولة تحتها جلب من فضة أى لها مقابض من فضة ، وثلاثمائة درقة بكوامج فضة يحمل ذلك فى المواكب ثلاثمائة عبد أسود ، لكل عبد حريتان ودرقة « أى درع واحد » ، وستون رمحا ، طول الواحد سبعة أذرع ، ومائة درقة لطيفة ومائة سيف بيد مائة رجل ، لكل رجل درقة وسيف ، ويسرون رجاله فى المواكب ، كما كان هناك عشرة سيوف فى أغلفة ديباج أحمر وأصفر بشراريب ، ويقال لها « سيوف الدم » تكون فى أعقاب الموكب برسم ثوب الأعناق لذا أراد الخليفة قتل أحد^(٧٨) .

(٧٧) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٠ ، ٥٠٠

وما بعدها ، ماجد : نظم الفاطميين ج ٢ ص ٧٧ .

أنواع السلاح فى العهد الفاطمى

نذكر فيما يلى أهم الأسلحة التى استخدمها الفاطميون فى حروبهم واستعملوها فى مواكبهم الحربية وفى قتالهم •

كان السيف من أهم الأسلحة عندهم ، وكان منه القصير والمتوسط والطويل ، وكانت تتخذ له الحمائل على الأكتاف أو تعد له المعاليق •

واستعمل الفاطميون كذلك الأقواس ، والقوس عبارة عن آلة خشبية تشد من الطرفين بخط أقصر من قضيبه ليتأتى تقوسها ، ومن الأقواس صنع الفاطميون آلات مركبة لقذف السهم شديدا ، وكان بعضها يقذف عدة سهام دفعة واحدة • وكانت للمقاليع — أبسط آلات القذف — وتلحق بالقصى •

والسهام كذلك من الأسلحة الفاطمية ، وكانت تصنع من الخشب، ويركب فيها من الأمام قطعة حديدية مدببة •

واستعمل الفاطميون الرماح للطعن ، وهى قناة يوضع فى آخرها حديدة مدببة تسمى السنان ، تتصل فى حديدة أسفلها تسمى للزج ، وكان الهلال — شعار المسلمين — يوضع عليها •

وعرفت دولة الفاطميين الحراب أيضا ، وهى أقصر من الرماح ، وكانوا يستعملونها بمهارة كبيرة •

وعرفوا الخنجر ، والطبر « وهو لفظ فارسي جمع مفردة طبرزيئات » ومعناه الفأس ، واستعملوا « البلطة » كذلك في قطع الأخشاب وتمهيد الطريق أمام الجيش ، وتخاربوا عند لقاء عدوهم حين كانت الحاجة تدعو الى ذلك •

كذلك عرف الفاطميون الدروع ، وأولوها قسما كبيرا من عنايتهم وكانت تصنع من حديد وبها يتقون الطعان •

وكان « المغفر » كذلك من آلات الدفاع ، ويلبس على الرأس • وكذلك البيضة، والطراق ويلبس على الساعد، والغفارة وتلبس على الوجه كله بحيث تغطيه ولا يظهر منه سوى العينين ، وكان الفارس يلبس التجانيف يتقى بها الطعان ، وتؤدي مهمتها مهمة الدروع •

وعنى الفاطميون بالمنجنيق ، وهو أداة ترمى بها الحجارة أو الحديد ، أو النفط أو السوائل الملتهبة وغيرها من المواد الحارقة ، وهذه الآلة القاذفة يمكن فصل أجزائها من بعض وإعادة تركيبها عند الاستعمال •

وعرف الفاطميون كذلك الدبابات ، وهي : آلات حربية تتخذ من خشب سميك ومن جلود البقر والابل واللبود ، والجلود المنقوعة في الخل لتقيها النار ، وكانت مهمتها وقاية من بداخلها من القذائف التي يطلقها العدو عليهم ، فيدخل الجند في جوفها ، ويدفعونها الى جدار الحصن فتقربه وهم بداخلها ، وتحميهم بجوانبها وسقفها مما يرميه العدو من نبال وغيرها ، وكانت الحجارة وغيرها ترمى من هذه الآلة بواسطة المنجنقات الصغيرة التي ركبت فيها ، وقد استعان بها الفاطميون على هدم أسوار الحصون والخنادق •

وهناك كذلك آلة حربية تسمى « الصنبور » كانت كالديبابة وتصنع من الخشب المغطى بالجلد ، وتعرف حديثا بالسيارة المدرعة ،

وقد أدت مهمة الدبابة ، وعاونت على هدم أسوار الحصون التي كانت تعترض الجيش أثناء القتال .

وبجانب ذلك كان هناك آلة حربية تسمى « الكبش » وهى عبارة من حجرة صغيرة مصنوعة من خشب متين ، ومركبة على عجل ، ومغلقة مجلود أو لبود منقوعة فى الخل ، ويكون بداخلها الجنود الذين بحركونها ، ويربط فيها عود أفقى له رأس كرأس الكبش ، وتقرب هذه الآلة من أسوار الحصن أو القلعة ، ثم تحرك رأس الكبش بحيث تصطدم بجائط السور المراد نقيه .

وقد استعمل الجيش الفاطمى العجلات لنقل الذخائر والمعدات ، وكان يوضع فيها قذائف ترمى باليد ، وتوضع فى زجاجات مملوءة بالنفط والصبر ، وبذور القرطم المقشور ، وكان يرمى بها بواسطة سلسلة ، فاذا صادفت شيئاً اشتعلت النار فيه .

كذلك استخدم الفاطميون العجلات لنقل الجنود والأسلحة من مكان الى آخر .

ولم يهمل الفاطميون للخيول والعناية بها ، وانما استكثرها منها ، واعتنوا بأنسابها ، وجعلوا لتلك الأنساب جرائد تكتب فيها بالديوان كتلك التى كانت لأنساب الناس ، وأكثرها بجانبها ديوان يسمى « ديوان الكراع » ، وله كاتب وعدة من الموظفين ، كما كان للسروج خزائن لها من يحفظها ويهتم بها تسمى « خزينة السروج » .

وفوق هذا استعمل الجيش الفاطمى النار اليونانية « النفط » وسمى القائمين عليها « النفطية » .

وفى الدفاع كان العسكر الفاطمى يلجأون الى الخنادق ، وكانوا يحفرونها حول معسكراتهم لتحميهم من مباغطة العدو عند هجومه

المفاجيء ، ولم يغفل الفاطميون اقامة معسكرات لراحة الجند أثناء تحركهم ، وانتقالهم على طول الطريق للملاقة عدوهم .

ولاغرو أن وفر الفاطميون لجيشهم كل هذه الآلات والمعدات، واهتموا به كل هذا الاهتمام ، ذلك لأن الدين الاسلامى يريد لأصحابه دائما أن يكونوا فى مواطن قوة ، وأن يتدربوا ويستعدوا لعدوهم ، ويتخذوا من السلاح ما يأمنون به جانبه ، ويرهبونه به عملا بقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » الأنفال آية ٦٠ وقول النبى ﷺ : « علموا أولادكم السباحة والرمية وركوب الخيل » وقوله فى معرض الحث على تعلم فن الفروسية والرمية وألوان القتال « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. ألا ان القوة الرمي . ألا ان القوة الرمي » ، وقوله صلوات الله عليه « اركبوا وارموا ، وأن ترموا أحب الى من أن تركبوا » (٧٩) .

ولكن على الرغم من توافر الأسلحة الفاطمية وتعددتها واختلاف أنواعها ، وعلى الرغم من أن صناعة السلاح فى مصر ، كانت رائجة زمن الفاطميين ومن قبلهم زمن الطولونيين ، على الرغم من ذلك كله ، فأقدم الأسلحة التى حفظتها متاحف الفن الحربى ترجع الى عصر المماليك ، وليس فيها — لسوء الحظ — غير ما يمثل ذلك العصر من عصور تاريخية .

ومع ذلك فيعتقد أن مصر الفاطمية لم يكن لها الريادة فى صناعة السلاح وانما كانت تعتمد على الخارج وتستورد ما هى فى حاجة اليه (٨٠) .

(٧٨) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٠ .

(٧٩) عن وصف الأسلحة وما يتصل به انظر :

مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٣ وما بعدها ، ماجد : نظم الفاطميين

ج ٢ ص ٢٠ ، ٢١ .

(٨٠) انظر : زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٢٥١ .

خزانة البنود :

اقتداء بالنبي ﷺ اتخذ الفاطميون الأعلام ، فقد كان للنبي راية تسمى العقاب ، وقد سار الفاطميون على نهجه ، فجعلوا للجنود أعلاما فى القتال ، وكانوا يحلون هذه الرايات بآيات مستمدة من القرآن الكريم .

فقد كتب الشيعى أبو عبد الله بن الحسن على بنوده « سيهزم الجمع ويولون الدبر » القمر آيةه ؛ وكتب الخلفاء على بنودهم بعض آيات القرآن الكريم .

وبلغ اهتمام الفاطميين بالأعلام غايته ، حين خصصت له خزينة فيما بعد فى عهد الخليفة « الظاهر » ، وعمل فيها ثلاثة آلاف صانع ، وكان ينفق عليها فى السنة ثمانون ألف دينار .

وكان لكل قسم من أقسام الجيش لواء فللميمنة لواء ، وللميسرة لواء وهكذا . . وكانت ألوية الجيش اما خضراء واما بيضاء ، وأما ألوية الأمان ، فكانت بيضاء ، يدل على ذلك أن « جوهر » عندما قدم الى مصر ، أرسل رسولا ببند أبيض طاف به على الناس ليعلمهم بميله للمسلمة .

وكان لواء الجيش يحمله أمير الجيش ، وقد يعطيه لغيره ، وعلى كل حال فهو يعتبر شرفا عظيما لمن يحمله اذ أنه شهادة له بالشجاعة واعتراف بالقوة ، أخذنا من قول الامام على : « أقيموا راياتكم فلا تميلوها ، ولا تجعلوها الا بأيدي شجعانكم » وقد تستخدم الرايات للتخاطب بها بدلا من البوق والنقارات ، وذلك فى حالة خشية تنبيه العدو وسماعه أصوات هذه الآلات (٨١) .

(٨١) انظر : مشرفة : نظم الحكم ص ١٧٧ .

مواكب الخلفاء الفاطميين

ودور الجيش فيها

منح الخلفاء الفاطميون قدرا كبيرا من اهتماماتهم لمناسبات معينة ، أحيوها بالاحتفالات الفخمة ، وأعدوا لها لمواكب للعظام .

وكانت الخلافة الفاطمية حريصة على أن يأخذ احتفالها مظهرا عسكريا ، وشكلا حربيا ، وهدفها من وراء ذلك هو إظهار قوة دولتهم ، وبيان ما تتمتع به من عظمة ونهضة ، وبث هيبتها في نفوس الناس ، وينشر الرعب منها في قلوب الأعداء .

فالمواكب الفاطمية والاحتفالات في تلك الدولة ، تشبه الى حد كبير تلك الاستعراضات التي تقيمها دول العصر الحديث في مناسبات مختلفة كأعياد الاستقلال وما إليها ، مبتغية اعلام الدول بقوتها ، وعلان الحكومات بامتلاك جيشها لأحسن النظم الحربية وأحدث التشكيلات العسكرية ، وهي بهذا تزرع الرعب والخوف في قلب عدوها ، وتحمله على التفكير مرة ومرة قبل أن تسول له نفسه خوض معركة حربية معها ، وفي الآن نفسه تسر شعبها وأولياءها حين يرون تفوق دولتهم وعنايتهم بجيشها ، ويشاهدون على الطبيعة قدرتها على مسيرة ركب التقدم العسكري ، والاستعداد للعدو بأحدث ما انتهى اليه فن التسليح .

وكانت أهم المناسبات الكبرى التي بها تهتم الدولة وتعد لها المواكب الضخمة وتهيء الاحتفال الضخم هي :

أول العام الهجري وأول رمضان وأيام الجمع للثلاث الأولى منه والعيدان وفتح الخليج، وعيد الغدير، الى جانب الاحتفالات الأخرى التي كانت تقام في أيام مختلفة على مدار السنة كلها ، وبخاصة أيام السبت والثلاثاء من كل أسبوع وفي الفترة من أول العام الى أول رمضان .

ونتحدث الآن عن واحد من أهم هذه الاحتفالات ثم نستخلص دور الجيش الفاطمي فيها :

احتفال أول العام :

كان احتفال الفاطميين بأول العام يتخذ مظهرين أحدهما يتمثل في جلوس الخليفة في الأيوان ، ويتمثل الثاني في ركوبه مع جنده وحاشيته ورجال دولته احتفاء بهذه المناسبة .
جلوس أول العام :

اعتاد الخليفة الفاطمي أول كل عام هجري أن يجلس على سرير الملك في الديوان الكبير بالقصر .

وقد كان الأمراء وكبار رجال الجيش يحضرون هذه المناسبة ، ويشهدون احتفال الخليفة بها ، ويقفون في أماكنهم المقررة لهم حسب مكانتهم في الدولة ، فالوزير يجلس على يمين الخليفة وتطرح له مخدة تشريفا له ، ثم يكون صاحب الباب (كبير الأيوان) وأسفله العسكر على جانبي الباب يمينا ويسارا ، يليهم من خارج الباب الأئمة والأمراء وفق مراتبهم ، ويقفون في الرواق (الأبريز العالي من أرض القاعة) ثم أرباب القضاة والعماريات يمينا ويسارا أيضا ، ثم الأمثال ومن يترشح للتقدمة والامرة من الجنود في الجيش (٨٢) .

ركوب أول العام :

استن الخليفة المعز — أول خليفة فاطمي في مصر — نظاما معيناً ورسم طريقة خاصة ، للاحتفال بهذه المناسبة ، وقد اتبع نهجه فيها كل من جاء بعده من الخلفاء .

(٨٢) انظر : المقرئزي : الخطط مجلد ٢ ج ٢ ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٤ وما بعدها .

لقد كان شأنهم أنه اذا كان العشر الأخير من ذى الحجة فى أية سنة اهتموا بالاستعداد لذلك الاحتفال ، وأخرجوا ما يحتاج إليه الموكب من خزائن الدولة المختلفة .

فيخرج من خزانة السلاح ما تحمله طائفة للركابية وغيرهم حول الخليفة فى الموكب كالصمام ، والدبابيس ، واللقوت ، وعمد حديد يقال لها المستوفيات (وهى عمد يبلغ طولها ذراعين ، شكلها مربع ، ولها مقابض مدورة ، وكان يتسلمها القواد والأمراء) ، والسيوف والرماح ، والدرق ، والألوية ، والأعلام وما الى ذلك .

وكان يخرج من خزانة التجميل قضب الفضة برسم تشريف الوزير ، وكبار رجال الجيش والأمراء من رجالة وفرسان ، وتخرج لهم كذلك للرماح الملبسة بأنايب الفضة ، المنقوشة بالذهب سوى ذراعين منها ، وقد سبق وصفها^(٨٣) وكان يخرج للوزير لواءين على رمحين غير منشورين يسيران أمامه ، ثم يخرج للأمراء وأولهم صاحب الباب ، عشر قضب ، وعشر عماريات ، وللاسفسهلا مثل ذلك ، ولسواهما من الأمراء خمس .

ثم يخرج من البنود الخاص الدبيقى المرقوم الملون برماح ملبسة بأنايب على رعوسها الرمامين والأهلة للوزير خاصة ، كما يخرج للأمراء بنود حرير على رماح غير ملونة ، ورعوسها ورمامينها فيها نحاس مجوف مذهب .

كذلك يخرج لقوم يقال لهم السبربرية سلاح عبارة عن قطع كل قطعة ثلاثة أذرع برأسها طلقة مصقولة ، وهى من خشب القنطارية ، وفى عقبها حديد مدور الشكل ، ويتكون فى كف حاملها الأيمن يفتلها فتلا ، ويكون فى يده الكبرى نشابة يخطر بها .

(٨٣) انظر ما سبق ص

ويخرج لقوم متطوعين ليست لهم جراية ولا نفقة درقة واسمة ،
وسيف ويسيون فى المواكب رجالة •

كذلك يخرج لطائفه من طوائف العبيد يقال لها أرباب
السلح الصغير ، عددها ثلثمائة ، يخرج لكل فرد حريتان بأسنة
مصقولة ، تحتها جلب فضة ، ودرقة بكوامخ فضة ، يتسلم ، فذلك
نقباؤهم ثم يسلمون للعبيد كل عبد حريتان ودرقة •

ثم يسير الخليفة فى الموكب واللواءان المعروفان بلواءى انحمد
عن جانبيه ، والمذبة عند رأس فرسه ، وطائفة الركابية — الذين
هم نحو ألفى رجل تتقلد سيفها ، وتشهد أوساطها بالمناديل
والأسلحة — يأخذون وضعهم على جانبى الخليفة كالجناحين بينهما
فرجة لوجه فرس الخليفة ليتأتى له السير ، وبالقرب من الفرس
يوجد اثنان من الصقالية يحمل كلاهما مذبة ، يرفعها عند رأس الفرس،
كما يوجد بالفرجة كذلك ، مقدموا الركابية الست ، اثنان منهم يمسكان
لجسام الفرس ، واثنان فى عنقه من الجانبين ، واثنان فى ركاب
للخليفة ، وكان أيمنهم هو رئيسهم ويقوم بنقل أوامر الخليفة ونواهيه
مدة الركوب •

ويرتب المركب بعد ذلك وفقا لرسوم منظمة دقيقة ، فيتقدمه
من أمامه مجموعة من الجنود غير النظاميين يسمون بأخلاط العسكر ،
ومعهم أجناد الأمراء وأولادهم ، يليهم أدوان الأمراء ، ويأتى من
بعدهم قادة الجيش وأمراؤه ، أرباب القضب الفضسية ، ثم أرباب
الأطواق ، ثم الأستاذون المحنكون ، ثم أهل الوزير ، ثم الحاملان
لوائى الحمد ، ثم حامل الدواة وحامل للسيف بعده من الجانب الأيسر
وكل واحد من هؤلاء فى عشرة أو عشرين من أصحابه •

ثم يأتى موكب الخليفة فى حرسه من الركابية ، يسير فى
رفق وتؤدة يتناسب مع جلال الخلافة ، ويسير خلف دلبة الخليفة ،

مجموعة من الركابية تكون بمثابة مؤخرة الحرس ، يتبعهم عشرة رجال يحملون سيوف الدم لضرب عنق من يرى الخليفة ضربة أثناء الموكب ، وأخيرا تأتي طائفة أرباب السلاح الصغير .

وبعد مركب الخليفة يأتي موكب الوزير فى هيئة عظيمة ، وفى نحو خمسمائة رجل من حرسه الخاص الذين يسمون « صبيان للزرد » ، وكان يختارهم بنفسه من أقوىاء الجند يحيطون به فى الموكب من الجانبين ، مع وجود فرجة فى موكبه دون فرجة الخليفة ، ويحاول ما وسعه الجهد الا يغيب ظل الخليفة عن نظره ، ويوجد فى الخلف مجموعة من الطبول والصنوج والصفافير فى أعداد هائلة تدوى الدنيا من أصواتها ، وخلف ذلك حامل الرمح وحامل الدركة المنسوبة الى حمزة .

ثم رجال الأسطول يأتي مكانهم فى الموكب بعد ذلك كله ، ممثلين فى نحو خمسمائة رجل معهم القسى العربية المسماة قسى الرجل وللركاب ، يأتي بعد ذلك طوائف الجيش المصامدة والوزيرية وغيرهما ، يأتون جماعة جماعة فى عدة وافرة تصل الى أربعة آلاف ، ثم أصحاب الرايات ، فالحجرية للكبار والصغار ، فالأتراك والديلم وغيرهم .

وكان يقوم بمهمة إفساح الطريق للموكب وحث من يقف وتسييره ، وترتيب العساكر ، وزجر المعترضين والمتزاحمين ، كان يقوم بهذه المهمة كل من والى القاهرة ، واسفسهال العسكر ، وصاحب الباب .

ففى أول الموكب والى القاهرة ، وفى وسطه قائد الجند ، وصاحب الباب فى زمرة الخليفة ، وكان لكل منهم منطقة معينة يسأل عنها ، فوالى القاهرة يقوم بهذه المهمة الى أن يلقي قائد العسكر فيعود ثانية حيث يبدأ الموكب .

وكذلك صاحب الباب يياشر عمله الى أن يصل الى الاسفسهلا ر ،
ثم يعود لترتيب حراسة الخليفة مرة ثانية وهكذا (٨٤) .

وليس عجا أن نرى عناية الدولة الفاطمية بهذا الاحتفال تصل
الى هذا الحد ، فمعلوم أنها دولة المظاهر ، وهى التى لاهتمت بالمناسبات
الدينية والاجتماعية ولحييتها بالاحتفالات للرأعة ، ذات المناظر
والأشكال الأخاذة ، وبصورة لم تعرفها مصر من قبل وما احتفالاتنا
ببعض هذه المناسبات اليوم الا ظل باق من احتفال الناس بها على
عهد الدولة الفاطمية .

ولكن ، من أين كان يبدأ الموكب ، وأى الشوارع كان يخترق
فى مسيرته ، والى أين كان ينتهى ، وكم كان عدد كل فرقة من الفرق
التى أسهمت بالاشتراك فيه ؟

هذه أسئلة ضمن التاريخ بالاجابة عليها ، ولم يصل الينا شىء —
فيما نعلم — يفيد فى التعريف على حقيقتها حتى الآن .

ويبدو واضحا مما سبق أن الجيش كان يشترك بالنصيب الأوفى
من هذه الاحتفالات مع كبار الموظفين ورجال القصر والدولة ، وكان
تمثيله فيها قويا وشاملا .

وهذا العدد الضخم الذى كان يشترك به الجيش ، وهذه
الأسلحة المتنوعة التى كان يظهر بها ، كل ذلك يجعلنا نقول : ان هذه
الاحتفالات كانت عسكرية الطابع ، حربية الصبغة .

(٨٤) عن موكب أول العام انظر كلا من :

ابن تغرى بردى : الفجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٩ وما بعدها ،
القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٩ وما بعدها ، المقرئى : الخطط
مجلد ٢ ج ٣ ص ٣١٦ وما بعدها ، ماجد : نظم الفاطميين ج ٢ من
ص ٨٩ الى ص ٩٣ ومن ص ٤٦ الى ص ٤٩ .

وكان هدفها غرس هبة الدولة وأعلان قوتها ، ونشر عظمتها وما تتمتع به من قوة ومجد ونفوذ •

كما أنه يمكننا عن طريق ترتيب الطوائف والفرق العسكرية في هذه الاحتفالات ، أن نعرف مكانة كل طائفة ، وللقيمة التي كانت تصنيفها عليها الدولة ، ومكانة أسفسلار أو رجل الجيش الأول بين سواء من العاملين •

فالوزير رجل الدولة الأول بعد الخليفة ، يليه قاضي القضاة فداعى الدعاة ، فصاحب الباب (كبير الياوران م أو رئيس الحرس ، أو كبير أمناء القصر) ، فأسفسلار العسكر أى قائد الجيش ، فهو إذا يحتل المرتبة الخامسة بين كبار موظفى الدولة مدنيين وعسكريين •

أما طوائف الجيش وفرقه ، فأعلامهم وأرقاهم درجة ، أرباب الأطواق ، ثم أرباب القضب للقضية م ثم الأستاذون المحنكون ، ثم غير المحنكين فبقية الأمراء والأزمة م ثم يأتى ذلك طوائف للجال ، وكانت تختلف فى الأهمية والمكانة ، من عهد خليفة الى عهد آخر ، حسب ميله لهؤلاء أو أولئك ، فالمغاربة كانوا أعلى الفرق فى زمن الخليفة « المعز » ، ثم أصبح للمشاركة من ديلم وأتراك هم الطائفة الأرقى عندما اصطنعهم الخليفة « العزيز » وأهمل المغاربة وهكذا •

خاتمة

فى ختام هذا البحث نحاول تركيز أهم ما توصل اليه من حقائق :

نجح الفاطميون فى إنشاء دولة لهم فى بلاد المغرب ، مستفيدين من عدة عوامل ساعدتهم على ذلك النجاح ، ولقد تبنت قبيلة كتامة الفاطميين ، وهيأت لدعوتهم سبيل النجاح ، وكافحت معهم حتى تحقق قيام دولتهم ، ولم تتخل عنهم بعد ذلك ، وانما استمرت تقدم كل عون ، وتضحي بما تملك من مال ونفس فى سبيل حماية الوجود للفاطمي والدفاع عنه .

وبعد قيام الدولة تعرضت لثورات متعددة ، كانت وراءها أسباب مختلفة ، قد تكون الطبيعة البربرية حيناً ، وقد يكون أنفة البربر من أن يحكمهم دخيل أجنبي وافد عليهم من البلاد المشرقية ، وقد يكون نفار القبائل من حكم كتامة لهم وتوليها كل شئونهم ، وقد يكون ظلم الولاة الكتامين واستبدادهم بل وغطرستهم واهانتهم لأفراد الشعب ، كما قد يكون ضيق الناس بالمذهب الشيعي ومحاولتهم التخلص منه ، وقد يكون السبب أخيراً هو استيلاء بعض الأسر على الحكم فى منطقة ما ، وتسلطهم على أفراد الرعية مما يترتب عليه ضيق وتذمر يدفع الى الثورة وعلان العصيان .

ولقد استمرت قبيلة « كتامة » هى جيش الدولة الحامى لها ، المقدم كل ما استطاع فى سبيلها ، حتى كانت ثورة « أبى يزيد » وطلب الخليفة « المنصور » من قبيلة « صنهاجة » معاونته فى القضاء

عليها ، ومنذئذ والجيش الفاطمى يتكون من هاتين القبيلتين الكبيرتين ،
وعليهما يعتمد الفاطميون فى مواجهة خصومهم ، وفى فتح البلاد لهم ،
كما ناصر الفاطميون الى جانبهما بعض القبائل الأخرى ، كذلك كان
عنصر العبيد من أهم ما اعتمدت عليه الدولة الفاطمية فى البلاد
المغربية •

ولم تكن مهمة جيش الفاطميين منحصرة فى الدفاع فحسب ،
وانما تجاوزت ذلك الى مهاجمة بعض البلدان وازدواجها لأموال
الفاطميين ، وقد استطاع أن يخضع المنطقة ما بين المحيط الأطلسى
وبرقة للحكم الفاطمى على عهد الخليفة المعز (٣٤١ - ٣٦٥ هـ)
وعاون القوات البرية فى القيام بمهمتها أسطول قوى ، مدعم بأكبر
الوحدات ، مجهز بأحدث الأسلحة ، اهتمت به تلك الدولة ، وأنشأت له
« دار صناعة » منذ الأيام الأولى لقيامها •

أما مصر فكانت مطمح الفاطميين الأول ، بذلوا جهودا ضخمة فى
سبيل ضم البلاد المصرية لملكاتهم ، ذلك أنه يمكن اعتبار السيطرة
على تلك المنطقة ، خطوة أولى تتلوها خطوات يتم بعدها احتلال
« بغداد » وازالة الخلافة العباسية منها ، ووضح فى أحاديث الخلفاء
أنفسهم أن فتح مصر ليس الا هدفا مبدئيا نحو الغرض الفاطمى
الأكبر وهو الاستيلاء على حاضرة العباسيين فى « بغداد » •

ولقد أرسلت حملات فاطمية ثلاث لفتح مصر فيما بين سنة ٣٠١
الى ٣٢٣ هـ واشترك فى هذه الحملات خيرة القواد مثل « حباسة بن
يوسف الكتامى » ، وولى للعهد « القائم » الذى كانت الخلافة تدخره
لقيادة الجيوش فى وقت الشدة بهدف رفع معنويات أفرادها ، وكان
يحابى الحملات الفاطمية أسطول يضم أقوى السفن وأنجد الرجال •

ومع اهتمام الخلافة للفاطمية بالجيوش الوافدة لفتح مصر ،
لم ينتج لها تحقيق هدفها ، وفشلت فى الوصول الى غرضها ، بسبب

تصدى المصريين والعباسيين لها فى قوة ، فوق عوامل طبيعية خارجة عن ارادتها •

وكما فشلت الحملات الحربية ، كان الاخفاق حظ أسلوب الدهاء السياسى والمسالة الذى سلكه الخليفة القائم (٣٢١ - ٣٣٤ هـ) مع والى مصر للاختييد •

ورغم ذلك فقد كشفت الحملات عن وجود أنصار للدعوة الفاطمية فى المرحلة الأولى من حياتها ، وقد كاتبوا الخليفة الفاطمى وطالبوه بارسال جيوش للبلاد ، غير أن هؤلاء لم يمثلوا رأيا عاما فى مصر ، ولم يتجاوزوا أفرادا محدودة لم يتح لها معاونة الجيش الفاطمى وعلان ولائها له عندما قدم الى هذه البلاد •

ولقد استمرت الدعوة الفاطمية جاهدة فى كسب الأنصار ، وانضم الكثير الى صفوفها ، وكثر المناضلون لها فى صفوف الموظفين أنفسهم ، وكاد والى العباسى « كافور » نفسه أن يتحول الى الدعوة الشيعية •

وفى الحملة الفاطمية الرابعة والأخيرة على مصر ، لاستنفاد الفاطميون من دراستهم أخطاء الحملات السابقة ، وتلافوها هذه المرة ، فقد صفا الجو للخليفة الفاطمى « المعز » فى بلاد المغرب ، وفرغه ذلك المهمة العمل لفتح مصر ، وأخذ يعد لهذا الغرض ثلاثة أعوام بدأت بسنة ٣٥٥ هـ ، فحفر الآبار فى الطريق الى مصر ، وأكثر من عسائر الحملة ، وأمر باتخاذ أماكن لراحة الجند فيما بين المغرب ومصر ، وزود الحملة بمبلغ كبير من المال ، ووزع المنح والعطايا على أفرادها قبل مغادرتهم البلاد ، وأرضى نفوسهم جميعا ، ثم اختار لقيادتها أبرع الرجال وأكثرهم خبرة ، فتولى زعامة هذه الحملة أحظى الناس بثقة الخلافة وهو القائد « جوهر » ، ثم ودع « المعز » الحملة بنفسه ، وهو واثق من أنها ستنتجح فى مهمتها ، لأن جميع عوامل النجاح فى يديها •

وبالفعل استطاع « جوهري » أن يفاح فيما أخفق فيه غيره ، فضم هذا البلد الهام الى ممتلكات الفاطميين ، وقد ساعده على ذلك ضعف الخلافة العباسية ، وتسلب البويهيين الشيعة على خلفائها ، كما ساعده كذلك سوء الحالة الاقتصادية في مصر ، بالإضافة الى وجود رأى شيعي نصير للفاطميين في البلاد .

وبعد فتح مصر مباشرة أنشئت « القاهرة » لتكون معسكرا للجيش ، تقيم بها فرقه وجنوده ، وقد أقامت بها كل فرقة مسكنا اتخذته موطنها ، وفي سنة ٣٦٢ هـ أصبحت القاهرة حاضرة الخلافة الفاطمية ومركز حكمها بعد أن كانت ولاية تدين بالتبعية لموطن الخلافة في بلاد المغرب .

وقد خلت هذه الحملة من عسكر « صنهاجة » وكون أفرادها عرب افريقية ، والبربر من الكتاميين وغيرهم ، وسبب ذلك أن الخليفة « المعز » كان يريد ادخارهم لينوبوا عنه في حكم المغرب بعد انتقاله الى مصر ، فهم الذين في استخلائهم قهر أعداء الفاطميين من « زناتة » وغيرها ، وبحكمهم يمكن للأمن أن يستتب في تلك البلاد .

وقد كان للجيش الفاطمي دور هام في بلاد الشام كذلك ، فبعد أن كان القرامطة في « الأحساء » يدينون بالولاء للخلافة الفاطمية ، انقلبوا عليها ، ونقموا منها فتحها بلاد الشام ، وأعلنوها حربا عليها ، وتقدم هؤلاء لناصر « الفتكين » التركي عدو الفاطميين الذي تسبب ظلم ولاية الفاطميين في بلاد الشام في استتجاد أهلها به ، وكاد المتحالفون أن يقضوا على الخلافة ، وحملوا الخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) على الخروج بنفسه لقتالهم حتى قضى عليهم نهائيا .

واذا كانت الخلافة الفاطمية قد تعرضت لازوال على عهد العزيز ، فقد تزايد بنيانها كذلك في عهد الحاكم (٣٨٦ - ٤١١ هـ) بسبب

ثورة « أبى ركة » عليه ، وقد أفلح عنصر الحمدانية والشامية فى وضع حد لهذه الثورة وقضى عليها ، بعد أن استنجدت للخلافة به — ولأول مرة — فى محاربة الناصر وانهاه حركته .

ولم يكن دور الجيش الفاطمى فى صقلية ، وفى حروبه ضد الدولة الرومانية ، بأقل منه فى ميدان آخر ، فقد أخذ ثورات الصقليين ، وضم إلى أملاك الدولة بلدانا أوربية ، وانتزع هبة الشعوب والحكومات فى تلك المنطقة .

وفىما يتصل بعناصر الجيش ، فقد اعتمدت الدولة بعد انتقالها إلى مصر على العنصر المغربى ، إلى أن كان عصر « العزيز » واصطفاه « الفتكين » التركى عندئذ رأينا للخليفة يهمل المغاربة ، ويميل إلى المشاركة من ديلم وأتراك ويعتمد عليهم ، ويحظون بالمكانة العالية فى جيشه ودولته .

وفى عهد الحاكم ، عادت كثامة مرة ثانية إلى الظهور ، بيد أنها لم تلبث أن تدهورت منذ تولى « برجوان الصقلبى » الوساطة لذلك الخليفة ، وبدأ بهم العبيد فى الظهور ثم الارتفاع ، غير أنهم سيكونون أكثر تأثيرا فى الأحداث بدولة الفاطميين فيما بعد أيام للخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) .

أما عن نظم الجيش الفاطمى ، فقد كانت هذه النظم أساسا أخذت به جيوش الأيوبيين والمماليك فيما بعد ، وقد قسم الفاطميون جيشهم إلى ثلاث مراتب ، تفرعت فى داخلها إلى أنواع ، ومنح الفاطميون قواد جيشهم ألقابا فخمة ، وأنشأوا مناصب عسكرية ولوها رجالا ذوى كفايات خاصة ، وكانت لهم طريقتهم فى التجنيد وفى الترقية إلى الرتب الأعلى ، واهتموا بالتدريب العسكرى لرجال الجيش ، وأنشأوا ديوانا سموه ديوان « الجيش والرواتب » قسموه أقساما ثلاثة : خصصوا واحد منها لذكر رجال الجيش وتحديد

لوصافهم ، والثانى دونت فيه مراتب العاملين عسكريين ومدنيين ،
وكان للثالث مخصصا لذكر اقطاعات الجنود ، ومقدار المقطع لهم ،
ومدته ... الخ ..

ولقد كانت الامارة على الجهاد من أهم ما عنى به الفاطميون ،
واشتراطوا فيمن يتولاها شروطا معينة ، وحددوا له مهمته ، وكانت لهم
أساليب في ادارة المعركة ، وتعبئة الجيش ومحاصرة العدو ، ولم يغفلوا
للخدمات الطبية للجيش ، والعناية بشيابه وبنوده الخ ..

ولقد قدم البحث فى صورة مختصرة جدا ، موقف الفكر الاسلامى
فيما يتصل بأهم النقاط السابقة وعرض تصرفات الفاطميين عليها ،
ليرى أكانوا حقيقة صابئة ويهودا خارجين على الدين ، يقتلون وينهبون
دون مراعاة حرمة ، أم أن ذلك كان من تجنى أعدائهم عليهم ؟
وقد انتهى الى أن هؤلاء لم يتجاوزوا مبادئ الفكر الاسلامى ،
ولم يبعدوا عنها الا فى الأقل النادر .

.. ولقد اهتم الفاطميون بتسليح جيشهم ، وخصصوا لهذا الغرض
مبلغا وصل الى ثمانين ألف دينار ، ووفروا له مختلف الأسلحة ،
وأعدوا الخزائن لحفظها ، وبذلوا كل جهد فى سبيل الحصول على
أحدث ما انتهى اليه فن للتسليح فى عصرهم .

ولكى نتضح أماننا مكانة الجيش الفاطمى — وسط غيره من
الجيوش — نلقى نظرة على الجيوش التى سبقته فى مصر والشام ،
ونتحدث كذلك عن تأثير نظمه فى للنظم العسكرية لدى الدول المستقلة
التي حكمت مصر بعد الفاطميين وأخيرا نحاول — قدر الطاقة —
التعرف على الجيش البيزنطى المعاصر للفاطميين .

وفيما يتعلق بالنقطة الأولى : يمكننا أن نقول ان الجيش فى
عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه وفى عهد الخلفاء الراشدين

والأمويين ، كان يتألف من العنصر للعربي ، ولكن الفرس أصبح لهم دور بارز من حيث الاعتماد عليهم كعنصر رئيسي في عهد الدولة العباسية ، ولما تولى الخليفة المعتصم العباسي الخلافة (٢١٨ / ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ / ٨٤٢ م) اعتمد على الأتراك وفضلهم على الفرس والعرب ، وزاد فمحا اسم العرب من ديوان للعطاء ، وقد طغى هذا العنصر وتحكم حتى في الخلفاء أنفسهم ، وبمرور الوقت اندمج في الجيش للعباسي عناصر من غير الترك كلهم مرتزقة لا هم لهم الا جمع المال ، وكان الجيش في عهد الخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ / ٨٦٦ م) يتألف من الأتراك ، والمغاربة (المصريين) والفراغة (أى أهل بلاد ما وراء النهر) •

أما عن تنظيم الجيش العباسي ، فقد كان يتألف من فرق نظامية وأخرى تطوعية وتتألف هذه الفرق ، من المنشأة : وسلاحهم الرماح والسيوف والحراب والتروس ، ومن الرماة وسلاحهم السيف والقوس والترس والنشاب ، ويلبسون الخوذات والدروع ، ومن النشابين وهم الذين يرمون بالنشاب ومن الدبابين ، ومن العيارين وهم الذين يرمون الحجارة من المقاليع ، ومن المنجنيقيين والنفاطين وهم الذين يقذفون النفط ، ويرتدون زيا خاصا يحميهم من التيران ، ومن الأطباء وللبياطرة والمهندسين ، وكل ذلك أخذته العرب عن الفرس •

وكان على كل عشرة آلاف جندي أمير ، وعلى كل ألف قائد ، وعلى كل مائة نقيب ، وعلى كل عشرة عريف ، ويختلف زي الجند بحسب فرقهم وأسلحتهم (١) •

ومصر والشام لم تكن كلتاها الا اقليما خاضعا للخلافة العباسية الى أن استطاع « أحمد بن طولون » (٢٥٤ هـ / ٢٧٠ = ٨٨٣ / ٨٩٨ م)

(١) انظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٢٨١ وما بعدها القاهرة سنة ١٩٦٥ م •

الاستقلال عن الخلافة العباسية ، واتخذ لنفسه جيشاً من السودان والنوبيين والروم دربه وفق أحدث نظام ، وبلغ مائة ألف فى عهده وكان هذا الجيش من الأسباب التى ساعدته على نزع مصر والشام من حكم العباسيين^(٢) ، ويتبين مبلغ اهتمام الطولونيين بالجيش من وصف مركب خماروية (٢٧٠/٢٨٢ هـ = ٨٣٠/٨٩٥ م) عند خروجه للصيد أو التتره أو الاحتفال ، فقد كان موكبه رائعاً يسير فيه أولاد الحرف وشناترة الضياع ، وكانوا من قطاع الطرق ، ضخام الأجسام معروفين بالقوة وللشجاعة ، فمنع خماروية أذاهم عن الناس واتخذهم حرصاً له ، وكانت تسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة يتلوهم ألف من السودان^(٣) ، بل انه ليقال ان الجيش الذى نظمه أبو الجيش خمارويه لم يتفق مثله لأعظم الفاتحين ، وكان مؤلفاً من صقالبة أى من أهل صقلية والروم وغيرهم من العناصر^(٤) .

أما فى عهد الأخشيدي محمد بن طفج (٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م) فقد عاشت مصر مطمئنة بفضل جيش بلغ ٤٠٠ ألف مقاتل عدا الحرس الخاص والعبيد والمماليك الذين زخر بهم القصر ، ووصلوا الى ثمانية آلاف رجل ، وكان « الأخشيدي » من القوة بحيث استطاع أن يولى ابنه (أونو جور) (٣٣٤/٣٤٩ هـ = ٩٤٦/٩٦٠ م) من بعده ، وأن يحصر حكم مصر من بعد فى أسرته ، وقد اتضح لنا كيف استطاعت قوة هذا الجيش على عهد الأخشيدي أن ترد للحملة الفاطمية الثالثة على مصر (٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م) ، وقد انضم الى هذا الجيش كثير من السودان بعد أن تولى « كافور » (٣٥٥/٣٥٧ هـ = ٩٦٦ م) زمام مصر وما يلها من البلاد^(٥) .

(٢) انظر : محمد كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ١٦ دمشق سنة ١٩٢٧ م .

(٣) حسن ابراهيم حشن : المرجع السابق ص ٢٨٦ وما بعدها .

(٤) محمد كرد على : المرجع السابق ج ٦ ص ١٦ .

(٥) حسن ابراهيم حشن : المرجع السابق ص ٢٨٧ .

فاذا انتقلنا الى الجيوش فى الدولة الأيوبية التى استقلت بحكم مصر بعد الفاطميين فسنجد أن الجيوش على عهد صلاح الدين كانت تتألف من عرب وأكراد وأتراك وكان الجيش ينقسم الى نوعين :

النوع الأول : الأمراء وهم أربع طبقات :

(أ) أمراء المئين مقدمو الألو ف ٠٠٠ وعند كل منهم مائة فارس ، أى كل واحد من هؤلاء يكون فى خدمته ١٠٠ مملوك (فارس) ، وفى أثناء الحرب يقود ألف جندى من أجناد الحلقة وهذه الطبقة أعلى مراتب الأمراء •

(ب) أمراء الطبلخاناه وعدة كل منهم أربعون فارساً وقد تصل الى ثمانين •

(ج) أمراء العشرات ، وعدة كل منهم عشرة فوارس •

(د) الطبقة الرابعة أمراء الخمسات وهم قليل وأكثرهم أولاد الأمراء المتوفين وكانوا يصلون الى هذه الرتبة رعاية لحق سلفهم •

النوع الثانى وهم الأطباء ، وكانوا ثلاث طبقات :

(أ) المماليك السلطانية وهم أرفع قدرا ، ثم هم عبارة عن أجناد السلطان وأجلايه وما يتبقى عنده من ممالك من سبقه فى السلطنة ، وهؤلاء يتولى السلطان العناية بهم وتربيتهم منذ صغرهم ، ويكونون حرسه الخاص •

(ب) أجناد الحلقة ، وهم عدد كبير ، ولكل أربعين منهم مقدم « ليس له عليهم حكم الا اذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه وتربيتهم فى موقفهم اليه » وهم عبارة عن محترفى الجندية من ممالك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهم أقرب الفئات الى نظام الجيش الثابت فى العصر الحديث •

(ج) ممالك الأمراء ، وهم يشبهون الممالك السلطانية ، غير أنهم يتبعون أمراءهم مباشرة ، ومنهم تتكون الوحدات الحربية التي يذهب بها الأمراء مع السلطان في حربه^(٦) .

وهناك من الأجناد فوق ما سبق طائفة يقال لها البرية ، يقول « القلقشندي » أنهم كانوا يبيتون بالقلعة ، وأن أول من رباهم ورتبهم وسماهم بهذا الاسم الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل (٦٣٦ / ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ / ١٢٤٩ م) .

والشبه كبير بين مقدمي الألوف في النوع الأول هنا ، وبين مرتبة الأمراء المطوقين في التنظيم الفاطمي للجيش ، كما أنه كذلك بين أمراء الطبلخاناه هنا وبين أمراء القصب هناك ، وبين أمراء العشرات والخمسات هنا وبين أدوان الأمراء هناك . كما أن الشبه كبير كذلك بين أجناد السلطان في التنظيم الأيوبي صبيان الحجر والخاص في العصر الفاطمي ، وممالك الأمراء هنا لا يختلفون عن الفرق التي كان يشكلها الوزراء والأمراء ، كالوزير ، نسبة إلى الوزير يعقوب بن كلس ، واليانسية نسبة إلى يانس الصقلي في العهد الفاطمي .

وإذا كانت الأجناد قد انقسمت إلى طوائف أيام الفاطميين ، ونسبت كل طائفة إلى وزير أو خليفة أو أمير ، فقد انقسم الجيش الأيوبي كذلك إلى طوائف أخذت كل طائفة اسم قائدها مثل النورية نسبة إلى « نور الدين محمود » والصلاحية نسبة إلى « صلاح الدين » والأسدية نسبة إلى « أسد الدين شيركوه » ، وكان كل مقدم يقود خمسين مملوكا ، وكل مملوك يقود ٤٠ جنديا^(٧) .

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ وما بعدها ، تعليق (الدكتور) محمد مصطفى زيادة على السلوك للمقريزي ج ١ قسم أول ص ١٢٢ ، ص ١٣٩ .

(٧) احسان هندی : الحياة العسكرية عند العرب ص ١٩٧ .

وهذا التشابه الكبير بين نظم الجيشين لا يمكن أن يفسر بالمصادفة ،
وانما هو — فيما نظن — تأثير الدولة الفاطمية فى الدولة للتي قامت
على أنقاضها فاستفادت بنظمها وطبقته بعد تعديل ، ولم يقف حد
التأثير عند الأيوبيين بل تعداه إلى عصر للماليك الذين حكموا
بعد الأيوبيين •

وإذا عقدنا مقارنة بسيطة — فى نهاية الأمر — بين للنظام البيزنطى
والنظام العربى ، فسنجد أن الشبه بينهما كبير ، فقد كان البطريق
عندهم يقود عشرة آلاف جندى ، يقسمون إلى قسمين ، يقود كل
قسم منهما « طومارخان » أى أن « للطومارخان » يقود خمسة آلاف ،
وتحت امرته خمسة « درنجاريه » ، وللدرنجاري يقود ألف جندى ،
وتحت امرته خمسة قوامس ، والقومس يقود مائة جندى ، ثم الدمراخ
وتحت امرته عشرة جنود •

وفى لتجيش البيزنطية ، الفرسان ، والرجالة ، والفرسان
ينقسمون إلى أربعة أقسام :

- ١ — الاسخلارية ، وعدتهم أربعة آلاف •
- ٢ — الخشف وهم كذلك أربعة آلاف فارس •
- ٣ — أوحوس وعدتهم أربعة آلاف وهم مخصصون للحرس
وصاحبهم طرنجار •
- ٤ — قندارطين وهم يخرجون مع الملك إذا خرج فى سفر ،
وعدتهم أربعة آلاف •

أما الرجالة فينقسمون قسمين : الأول منهما يسمى « ابلنمسا »
وعدتهم أربعة آلاف رجل والباقيون يسمون « مويرة » وعدتهم أربعة
آلاف رجل ، هذا ما يكون فى القسطنطينية ومجموعهم ستة عشر

ألفا من الفرسان ، وثمانية آلاف من الرجال ، أما مجموع جيوش
الامبراطورية فعدته سبعون ألفاً^(٨) .

ونقدم في الصفحة التالية مقارنة بين الجيوش وقوادها ووحداتها
في العصر الحديث ، وبينها في العصور السابقة :

أمير الصكر :

واسم وحدته في القديم « الجيش » وكان يقود من خمسة عشر
ألفاً الى خمسة وعشرين ألفاً وهو المشير في تعبيرنا الحديث .

رئيس الخميس :

واسم وحدته في القديم « الفرقة » وكان يقود من أربعة آلاف
الى ٢٥ ألفاً وهو الفريق أو اللواء في التعبير الحديث .

رئيس الجيش :

واسم وحدته في القديم « اللواء » وكان يقود من ألف الى
أربعة آلاف وهو العميد أو اللواء في اصطلاحنا الحديث .

رئيس الكردوس :

واسم وحدته في القديم « الكتيبة » وكان يقود من ٥٠ الى
ألف وهو عقيد أو مقدم في المصطلحات الحديثة .

رئيس السرية :

واسم وحدته في القديم « السرية » وكان يقود من ٥٠ الى ٤٠٠
ورقبته حديثاً هي الرائد أو النقيب .

(٨) قدامة بن جعفر الكاتب : نبذة من كتاب الخراج وصناعة
الكتابة ، ص ٢٥٥ وهو مطبوع ملحقاً لكتاب المسالك والممالك
لابن خرداذبه ، تصوير بغداد عن طبعة دي غويه - بريل سند ١٨٨٩ م .

رئيس الفصيلة :

واسم وحدته فى القديم « الفصيلة » وكان يقود من ٣٠ - ٤٠
تقريباً • واسم رتبته حديثاً الملازم أول أو الملازم •

رئيس العريف :

واسم وحدته القديم « الجماعة » وكان يقود حوالى عشرة
وينظره حديثاً « الرقيب » •

رئيس العريف :

واسم وحدته فى القديم « الطاقم » وكان يقود من خمسة الى
عشرة جنود وينظره فى الجيش المعاصر « عريف »^(١) •

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم •

انظر : احسان هندى : الحياة العسكرية عند العرب ص ٢٣٧ •

أهم المصادر والمراجع

● أولا : الكتب المطبوعة :

(رتبت المراجع حسب الأسماء الأخيرة للمؤلفين مع اهمال « ال »
و « ابن » ... الخ) .

ابن أبي دینار : (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم) :

١ - كتاب المونس في اخبار افريقية وتونس - تونس سنة ١٢٨٦ هـ
ابن أبي زرع : (أبو الحسن علي بن محمد) :

٢ - الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب
وتاريخ مدينة فاس - ج ١ - نشر محمد الهاشمي الفيلاي - الرباط
سنة ١٩٣٦ م (وتوجد منه نسخة كاملة مطبوعة بالمغرب طبع حجر
بدون تاريخ) .

ابن أبي الضياف (أحمد) :

٣ - اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان -
تونس سنة ١٩٦٣ م .

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم) :

٤ - تاريخ الكامل (علي هامشه تاريخ ابن الشحنة المسجي
: روضة المناظر في اخبار الأوائل والأواخر ») أجزاء - طبع
ولاق بدون تاريخ .

الادريسي (محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوى) :

٥ - صفة المغرب وارض السودان ومصر والأندلس قطعة مأخوذة
من كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » (لندن سنة ١٨٦٣ م .

الاصطخرى (ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى) :

٦ - المسالك والممالك - تحقيق محمد جابر الحينى - القاهرة
سنة ١٩٦١ م .

امارى (ميشيل) :

٧ - المكتبة الصقلية - جزعان - ليبزج سنة ١٨٨١ م .

الانصارى (احمد النائب) :

٨ - المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب - الطبعة الثانية -
بيروت - سنة ١٩٦٠ م .

الانطاكى (يحيى بن سعيد) :

٩ - تاريخ يحيى بن سعيد (, تكملة تاريخ « سعيد بن البطريق »
المسمى « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ») بيروت
سنة ١٩٠٩ م م

ابن اياس (محمد بن احمد) :

١٠ - كتاب تاريخ مصر المشهور « ببداية الزهور فى وقائع
الدهور » اجزاء بولاق سنة ١٣١١ هـ .

بروكلمان (كارل) :

١١ - تاريخ الشعوب الاسلامية . اجزاء . ترجمة نبيه فارسى ومنير
بعلبكي . بيروت سنة ١٩٤٩ م .

ابن البطريق (سعيد المكنى باوتيا) :

١٢ - التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . بيروت سنة ١٩٠٩ م .

البكرى (ابو عبيد الله بن عبد العزيز) :

١٣ - المغرب فى ذكرى بلاد افريقية والمغرب (, وهو جزء من المسالك والممالك) تحقيق دى سلان . باريس سنة ١٩٠٩ م .

ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو الحسن الأتابكى) :

١٤ - النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة . أجزاء . طبعة وزارة الثقافة المصورة عن طبعة دار الكتب . القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

الجوذرى (ابو على المنصورى) :

١٥ - سيرة الأستاذ جوذر . نشر الاستاذين الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد عبد الهادى شعيرة . القاهرة سنة ١٩٥٤ م .

ابن الجوزى (ابو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد) :

١٦ - المنتظم (المطبوع منه من ج ٥ الى ج ١٠) طبع دائرة المعارف العثمانية . حيدر اباد . الدكن سنة ١٣٥٨ هـ .

حتى (الدكتور فيليب وآخرون) :

١٧ - تاريخ العرب . مطول . أجزاء . الطبعة الثانية . بيروت ١٩٥٣ م .

حسن (الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم) :

١٨ - تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى . أجزاء . ط ٧ القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

١٩ - تاريخ الدولة الفاطمية (, وهو الطبعة الثانية من كتاب « الفاطميون بمصر ») القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

٢٠ - عبيد الله المهدي (بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور طه شرف)
القاهرة سنة ١٩٤٧ م .

٢١ - الفاطميون بمصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص .
القاهرة سنة ١٩٣٢ م .

٢٢ - مصر الاسلامية من الفتح العربى الى الفتح العثمانى
(وهو قسم من كتاب « المجل فى التاريخ المصرى » لعدة مؤلفين)
القاهرة ١٩٤٢ م .

٢٣ - المعز لدين الله الفاطمى (بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور
طه شرف) الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

حسن (الأستاذ الدكتور زكى محمد) :

٢٤ - فى مصر الاسلامية (بالاشتراك مع آخرين) . القاهرة
سنة ١٩٢٣ م .

٢٥ - كنوز الفاطميين . القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

حسن (الدكتور على ابراهيم) :

٢٦ - تاريخ مصر فى العصور الوسطى . القاهرة سنة ١٩٤٧ م .

٢٧ - جوهر الصقلى . القاهرة سنة ١٩٣٣ م .

ابن حماد (ابو عبد الله بن محمد بن على) :

٢٨ - أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم . الجزائر ١٣٤٦ هـ .

ابن حوقل (ابو القاسم النصبى) :

٢٩ - صورة الارض (المسالك والممالك والمفاوز والممالك)

بيروت ١٩٦٤ م .

خسرو (ناصر) :

٣٠ - سفرنامه (الرحلة) . ترجمة عن الفارسية الأستاذ الدكتور

يحيى الخشاب ، القاهرة سنة ١٩٤٥ م .

ابن خلدون (عبد الرحمن) :

- ٣١ - العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر
ومن ناصرهم من ذوى السلطان الاكبر . القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ .
٣٢ - مقدمة ابن خلدون . تحقيق الأستاذ الدكتور على عبد الواحد
وافى . القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

ابن خلكان (ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبى بكر) :

- ٣٣ - وفيات الأعيان وانباء الزمان . اجزاء . تحقيق محمد
محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

دبوز (محمد على) :

- ٣٤ - تاريخ المغرب الكبير . اجزاء . القاهرة سنة ١٩٦٣، ١٩٦٤ م .

ابن دقمان (ابراهيم بن محمد العلائى) :

- ٣٥ - الانتصار لواسطة عقد الأمصار (طبع منه ج ٤ ، ٥)
بولاى ١٣٠٩ هـ .

ابن الراهب (ابو شاكى بطرس بن أبى الكرم) :

- ٣٦ - تاريخ ابن الراهب . نشر لويس شيخو اليسوعى سنة ١٩٠٣ م .
الريس (الأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين) :

- ٣٧ - الخراج او النظم المالية للدولة الاسلامية . الطبعة الثانية ،
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

- ٣٨ - النظريات السياسية الاسلامية . الطبعة الرابعة .
القاهرة ١٩٦٧ .

ابن زيدان (عبد الرحمن) :

- ٣٩ - اتحاف انباء الناس بجمال حاضرة مكناى . اجزاء .
الرباط ، سنة ١٣٤٧ هـ .

سرور (الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين) :

٤٠ - مصر فى عصر الدولة الفاطمية • القاهرة سنة ١٩٦٠ م •

٤١ - النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ط ٣ القاهرة سنة ١٩٦٤ م •

ابن سعد (عريب القرطبى) :

٤٢ - صلة تاريخ الطبرى « الجزء ١٢ من تاريخ الطبرى » المطبعة الحسينية بالقاهرة بدون تاريخ •

السلوى (احمد بن خالد الناصرى) :

٤٣ - الاستقصا لتاريخ دول المغرب الاقصى • جزآن فى مجلد • طبع المغرب سنة ١٣١٢ هـ •

سيدنو (ل • م) :

٤٤ - تاريخ العرب العام • ترجمه الى العربية عادل زعيتر • القاهرة سنة ١٩٤٨ م •

السيوطى (جلال الدين) :

٤٥ - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة • القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ •

الشيال (الأستاذ الدكتور جمال الدين محمد) :

٤٦ - تاريخ مصر الاسلامية • جزآن • القاهرة سنة ١٩٦٧ م •

٤٧ - مجموعة الوثائق الفاطمية • القاهرة سنة ١٩٥٨ م •

الصيرفى (امير الدين تاج الرياسة أبو القاسم على بن منجب) :

٤٨ - الاشارة الى من نال الوزارة • تحقيق عبد الله مخلص • القاهرة ١٩٢٤ م •

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) :

٤٩ - تاريخ الأمم والملوك . أجزاء . المطبعة الحسينية بالقاهرة
بدون تاريخ .

عبد الحميد (الأستاذ الدكتور سعد زغلول) :

٥٠ - تاريخ المغرب العربي . القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

عبد الوهاب (حسن حسنى) :

٥١ - خلاصة تاريخ تونس ط ٣ . تونس سنة ١٣٧٣ هـ .

العدوى (الأستاذ الدكتور إبراهيم أحمد) :

٥٢ - الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط . القاهرة ١٩٥٧م

٥٣ - المسلمون والجرمان . القاهرة سنة ١٩٦٠ .

ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله) :

٥٤ - التاريخ الكبير . أجزاء . طبع روض الشام سنة ١٣٣٥ هـ .

عنان (محمد عبد الله) :

٥٥ - الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية . ط ٢ . القاهرة ،

سنة ١٩٥٩ م .

٥٦ - مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية . القاهرة سنة ١٩٣١ م .

بو الفداء (الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماة) :

٥٧ - المختصر فى اخبار البشر . أربعة أجزاء . طبع القسطنطينية

سنة ١٢٨٦ هـ .

بن القلانسي (أبو يعلى حمزة) :

٥٨ - تاريخ ابن القلانسي المعروف بذيلى تاريخ دمشق . بيروت

سنة ١٩٠٨ م .

القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) :

- ٥٩ - صبح الاعشى فى صناعة الانشا . مصورة وزارة الثقافة عن
طبعة المطبعة الأميرية . القاهرة سنة ١٩٦٣ م .
٦٠ - ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر . القاهرة
سنة ١٣٢٤ هـ .

كاشف (الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل) :

- ٦١ - مصر فى عصر الاخشيديين . القاهرة سنة ١٩٥٠ م .
ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر) :
٦٢ - البداية والنهاية . اجزاء . القاهرة سنة ١٩٣٢ م .

الكعساك (عثمان) :

- ٦٣ - موجز التاريخ العام للجزائر . تونس سنة ١٣٤٤ هـ .

الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف) :

- ٦٤ - كتاب الولاة والقضاة . تصحيح رفن كست : بيروت
سنة ١٩٠٨ م .

ماجد (الأستاذ الدكتور عبد المنعم) :

- ٦٥ - الامام المستنصر بالله الفاطمى . القاهرة سنة ١٩٦١ م .
٦٦ - الحاكم بأمر الله الخليفة المقتدى عليه . القاهرة سنة ١٩٥٩ م .
٦٧ - نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . جزءان . القاهرة
سنة ١٩٥٣ ، ١٩٥٥ م .

الماوردى (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب المصرى) :

- ٦٨ - الاحكام السلطانية . القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

مبارك (على) :

٦٩ - الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة . اجزاء بولاق
سنة ١٣٠٦ هـ .

المراكشى (ابن عذارى) :

٧٠ - البيان المغرب فى اخبار المغرب (وقد اختلطت به قطع من
تاريخ عريب بن سعد) تحقيق دوزى . ليدن سنة ١٨٤٨ م .
وطبع طبعة أخرى تحقيق ليفى بروفنسال بعنوان « المغرب فى اخبار
الاندلس والمغرب » ، ليدن سنة ١٩٤٨ م .

مشرفة (الدكتور عطية مصطفى) :

٧١ - نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين . القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

المقريزى (تقى الدين احمد بن على) :

٧٢ - اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفا . نشر الاستاذ
الدكتور جمال الدين الشيال الجزء الاول ، القاهرة سنة ١٩٤٨ م .
اما الجزء الثانى والثالث فقد حققهما الاستاذ الدكتور محمد حلمى
محمد احمد ، ونشرا بالقاهرة سنة ١٩٦٩ ، ١٩٧١ م .
٧٣ - اغاثة الامة بكشف الغمة نشر الأستاذين الدكتور محمد مصطفى
زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال . القاهرة سنة ١٩٤٠ م .
٧٤ - الخطط المقريزية المسماة « المواعظ والاعتبر بذكر الخطط
والاثار » ثلاثة مجلدات فى كل مجلد ثلاثة اجزاء . مطبعة الساحل
الجنوبى . لبنان سنة ١٩٥٩ م .

٧٥ - السلوك لمعرفة دول الملوك . نشر الاستاذ الدكتور محمد
مصطفى زيادة . اجزاء . القاهرة سنة ١٩٣٤ م .

ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف بن جاب) :

٧٦ - اخبار مصر . نشر هنرى ماسبيس . القاهرة سنة ١٩١٩ م .

الميلى (مبارك بن محمد الهاللى) :

٧٧ - تاريخ الجزائر فى القديم والحديث . جزءان . طبع قسنطينية بالجزائر سنة ١٣٥٠ هـ .

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله) :

٧٨ - كتاب معجم البلدان . أجزاء . القاهرة سنة ١٩٠٦ م .

اليقوى (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح) :

٧٩ - صفة المغرب (مأخوذة من كتاب البلدان له) طبع أوربا بدون تاريخ .

اليمنى (أبو الحسن نجم الدين عمارة) :

٨٠ - النكت العصرية فى اخبار الوزارة المصرية . أجزاء . نشر درينج شالون سنة ١٨٩٧ م .

مجهول :

٨١ - كتاب الاستبصار لمجهول يبدو أنه من رجال القرن السادس الهجرى ، نشر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد . اسكندرية سنة ١٩٥٨ م .

مجهول :

٨٢ - نبذة تاريخية جامعة فى اخبار البربر فى القرون الوسطى ، انتخبها ونشرها من الكتاب المسمى (بكتاب مفاخر البربر) ليفى بروفنسال الرباط سنة ١٩٣٤ م .

● **ثانيا : الكتب المخطوطة :**

ابن ابيك (أبو بكر عبد الله بن ابيك المعروف والده بالدواة دارى) :
١ - درر التيجان و غرر تواريخ الأزمان . دار الكتب بالقاهرة برقم ٤٤٠٩ تاريخ .

٢ - كنز الدرر وجامع الفرر : أجزاء . دار الكتب بالقاهرة
برقم ٨٨٤٥ ح .

ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو الحسن الاتابكى) :

٣ - مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة . دار الكتب برقم
١٣٥٦ خ تاريخ .

الحلوانى (يوسف الحلوانى) :

٤ - كتاب تحفة الأحباب فيمن ملك مصر من الملوك والفواب .
دار الكتب برقم ٥٦٢٣ تاريخ .

الدوادار (ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار) :

٥ - زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة . ح ٥ ، ٦ . مخطوط بمكتبة
جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٦ ، ٢٤٠٢٧ .

الذهبى (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد الذهبى) :

٦ - تاريخ الاسلام . دار الكتب . برقم ٣٩٦ ، ٤٢ تاريخ .

٧ - دول الاسلام . دار الكتب برقم ٢٢٩٩ تاريخ .

سبط بن الجوزى (أبو المظفر يوسف بن قيروظى) :

٨ - مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان . دار الكتب برقم ٩٢٧٦ ح .

ابن سعيد (على بن موسى المغربى) :

٩ - المغرب فى حلى المغرب ، مجلد ٣ ، كتاب النجوم الزاهرة
فى حلى القاهرة . دار الكتب المصرية برقم ٢٧١٢ تاريخ .

وقد نشر الجزء الأول من القسم الخاص بمصر الدكتور زكى محمد

حسن وآخرون القاهرة ١٩٥٨ م .

ابن ظافر (جمال الدين ابو الحسن على) :

١٠ - اخبار الدول المنقطعة . دار الكتب ٧٣٥٥ ح . .

ابن الظهيرة :

١١ - الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة . دار الكتب
برقم ١٤٦٠ تاريخ .

العمري (شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله) :

١٢ - مسالك الابصار فى ممالك الامصار . دار الكتب مصور برقم
٢٥٦٨ تاريخ ، ٥٥٩ معارف عامة .

العيني (نور الدين ابو محمد بن احمد بن موسى) :

١٣ - عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان . اجزاء . دار الكتب
برقم ٨٢٠٣ ح .

القضاعى (ابو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن محمد بن على) :

١٤ - عين المعارف وفنون اخبار الخلايف . دار الكتب برقم
١٧٧٩ تاريخ .

الكندى (ابو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب) :

١٥ - فضائل مصر . دار الكتب برقم ٧٥٣ مجاميع .

المقريزى (تقى الدين احمد بن على) :

١٦ - المقفى الكبير ، اجزاء . مصورة دار الكتب برقم ٥٣٧٢ تاريخ .

النعمان (ابو حنيفة بن محمد المغربى) :

١٧ - المجالس والمنسايرات . اجزاء . مصورة بجامعة القاهرة
برقم ٢٦٠٦٠ .

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) :

١٨ - نهاية الأرب . أجزاء . مصورة دار الكتب تحت رقم ٥٤٩
معارف عامة .

مجهول :

١٩ - أخبار المعز لدين الله الفاطمى ، مصورة دار الكتب برقم
١٢١١١ ح وهو نفسه « شرح لمعة من أخبار المعز لدين الله » المصور
بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٢

مجهول :

٢٠ - الجواهر الثمين فى سير الملوك والسلطين ، دار الكتب برقم
١٥٢٢ ، ١٥٨٧ تاريخ .

مجهول :

٢١ - مختصر فى تاريخ مصر . دار الكتب برقم ٣٥١ مجاميع .

ثالثا : المراجع الأوروبية

Ivanow (valdimir)

- 1 — Rise of the Fatimids. Calcutta, 1942.

Lane Poole

- 2 — A history of Egypt in the middle ages. London 1914.

- 3 — The story of Cairo. London 1959.

ترجمه الى العربية بعنوان « سيرة القاهرة » حسن إبراهيم وآخرون
القاهرة سنة ١٩٥٠ م .

- 4 — The Mohammadan dynasties. Westminster 1925.

Lewis Bernard.

- 5 — The Origins of Ismailism. Cambridge 1940.

ترجم للعربية بعنوان « أصول الاسماعيلية » .

Nicholson (John).

- 6 — An account of the establishment of the Fatimids Dynasty in Africa. Tubingen, 1848.

Nicholson (reynold A).

- 7 — A literary history of the fatimids Cambridge 1930.

O, lery delacy .

- 8 — A short history of the Oatimids Khaliphato. London 1924.

- 9 — Cambridge Meidieaval history . Cambridge 1913.

- 10 — The encyclabeadia of Islam.

- 11 — Encyclobeadia Britancia .

فخر سنی

الصفحة

٣	الاهـداء
٣	المقدمة
٩	الفصل الأول - الوطن والقبائل
٢٦	الحالة السياسية ببلاد المغرب قبيل قيام الدولة الفاطمية
٢٦	الاجالبسة
٣٠	دولة الرستميين في نيهـرت
٣٢	دولة بنى واسول بسجلماسة
٣٥	العلاقات بين الدول السابقة
٣٨	الدعوة الشيعية منذ البداية وحتى قيام الدولة الفاطمية
٥٤	الفصل الثانى - الجيش الفاطمى فى افريقية
٥٥	دور الجيش الفاطمى فى اخـماد الثورات
٧٥	دلالات الحركات النورية ضد الفاطميين
٨٥	دور الجيش الفاطمى فى توسيع رقعة الدولة
٩١	الفصل الثالث - الجيش الفاطمى ومحاوـلات فتح مصر
٩٣	أهمية مصر للفاطميين
٩٥	حالة مصر عند مجىء الفزوات الفاطمية
١٠٣	حملة الجيش الفاطمى الاولى لفتح مصر
١٠٩	حملة الجيش الفاطمى الثانية لفتح مصر
١١٤	اسباب فشل الفاطميين فى المحاولة السابقة
١١٦	حملة الجيش الفاطمى الثالثة على مصر
١١٨	محاولة سلمية تجاه مصر
١٢٠	حملة الجيش الفاطمى الرابعة والاخيرة على مصر
١٣٠	اسباب نجاح الحملة الفاطمية الاخيرة على مصر
١٤٢	الفصل الرابع - الجيش الفاطمى فى الشام
١٤٤	الجيش الفاطمى يحارب القرامطة
١٥١	الجيش الفاطمى يحارب « الفتكين » التركى
١٥٦	الجيش الفاطمى يحارب اباركوه التركى
٢٠٥		

١٦٤	الفصل الخامس - الجيش الفاطمي وصقلية والروم
١٦٥	أهمية صقلية للفاطمين
١٦٦	الجيش الفاطمي في صقلية
١٧٣	نشاط الجيش الفاطمي من صقلية
١٧٥	فتح طبرمين
١٧٦	فتح رمطة
١٧٨	واقعة المجاز
١٧٨	الأسطول الفاطمي يغزو الأندلس
١٨٠	الجيش الفاطمي يحارب الروم البيزنطيين
١٨٥	الفصل السادس : عناصر الجيش الفاطمي ومعسكراته
١٨٥	عناصر الجيش الفاطمي
١٩٥	القاهرة معسكراً للجيش الفاطمي
١٩٧	حارات القاهرة والفرق التي سكنتها
٢١٥	الفصل السابع - النظم والأسلحة في الجيش الفاطمي
٢١٧	مراتب رجال الجيش في الدولة الفاطمية
٢٢٢	القاب القواد في الجيش الفاطمي
٢٢٥	مناصب عسكرية في الجيش الفاطمي
٢٣٠	مجال الترقى وصاحب الحق فيه
٢٣١	التدريب في الجيش الفاطمي
٢٣٣	طريقة التجنيد
٢٣٥	دينوان الجيش
٢٣٦	كيفية ترتيب العسكر في الديوان
٢٣٧	أسس تقدير مراتب العسكر
٢٤١	مراتب الأجناد في الدولة الفاطمية
٢٤٥	دينوان الاقطاع
			الإمارة على الجهاد ، أحكامها وشروطها وموقف الفاطميين
٢٤٧	من ذلك
٢٥٢	ما يجوز للقائد فعله أثناء الحصار
٢٥٤	تعبئة الفاطميين لجيشهم أثناء المعركة
٢٥٦	ملابس الجنود
٢٥٦	موسيقى الجيش الفاطمي

الصفحة

٢٥٧	مسئولية عسكرية لولاية الاقاليم
٢٥٨	التسليح والأسلحة فى جيش الفاطميين
٢٥٨	خزائن السلاح
٢٦٢	أنواع السلاح فى العهد الفاطمى
٢٦٧	مواكب واحتفالات الخلفاء الفاطميين ودور الجيش فيها

خاتمة تتناول أهم نتائج البحث مع المارنة بين الجيش
الفاطمى وغيره من الجيوش السابقة عليه واللاحقة به فى

٢٧٥	مصر والشام
٢٨٩	أهم المصادر والمراجع
٢٨٩	أهم المصادر والمراجع العربية
٣٠٣	أهم المصادر والمراجع الأوروبية
٣٠٤	فهرس الموضوعات

رقم الايداع ٨٧١٦ / ٩٠

دار الفکر للطباعة والنشر
٩٢٥٢٠٤
الطبعة ٣٠٠٠٠
الطبعة ٣٠٠٠٠